الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم اللغة
شعبة اللغة العربية و الدراسات القرآنية

الإعجاز البياني
بين
الباقلاني وعبد الله دراز

(دراســـــة موازنـــة)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة والدراسات القرآنية

إعداد الطالب:
غريبي سالم

إشراف الدكتور:
رابح دوب

السنة الجامعية 1420هـ -1999م/2000م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمـــن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا وأعذبهم بيانـا سيدنا محمد النبي الأمي الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وأتاه الحكمة وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

وبعد،

فهذه دراسة تتناول علمين من أعلام الإعجاز البياني عاش كـل منـهما في حقبـة خاصـة بـه - علـى الرغم من الفوارق الزمانية والمكانية - تعد من أخصب فترات البحث البياني والنقدي وهما العلمان: الباقلاني - في القرن الرابع الهجري، ومحمد عبد الله دراز - في القرن الخامس عشر الهجري.

و هي دراسة موازنة بين علمين كبيرين من أعـلام الدراسـات الإعجازيـة، وإذا كـان قـد سـبقني إلى دراسة كل من هذين العلمين كثير من الباحثين فإن الجديد في هذه الدراسة هو الموازنة بينهما، وبيان ما اتفقا فيه من القضايا البيانية، وما اختلفا فيه منها على الرغم من تشابه ثقافتيـهما، وأسـلوبيهما، ومنهجيـهما في دراسة الإعجاز البياني.

وموضوع هذه الدراسة هو الإعجاز البيـاني بـين البـاقلاني وعبـد الله دراز "دراسـة موازنـة" وترجـع صلتي بكتابي "إعجاز القرآن" لمؤلفه القاضي أبي بكر الباقلاني، و"النبأ العظيم" لمؤلفه الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أيام الدرس بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، فقد كانا مـن بـين الكتـب الـتي لفتـت نظـري في الدراسات القرآنية.

ثم توثقت صلتي بالكتابين حين اتخذت منهما مرجعين استعنت بهما في دراسـة موضـوع "الإعجـاز بين المتقدمين والمتأخرين" لدى تحضيري لشهادة اللسانس.

فلما آن لي أن أختار لدراسة الماجستير موضوعا، رأيت أن يكون هذان الكتابان محورا لتلك الدراسة.

وشجعني على المضي في هذا الاختيار، أن الكتابين يدوران بمباحثيهما حول أقوم كتاب جاء بلسـان عربي مبين، ذلك أنهما يدوران حول القرآن الكريم ويبحثان قضية إعجازه ومن أي ناحية كان ذلك الإعجاز.

وقضية الإعجاز في القرآن الكريم من القضايا التي شغلت النقد العربـي منـذ عصـور مبكـرة ووجـهت مباحثه وجهة لم يكن ليتجه إليها لو لم يكن هناك هذا الكتاب.

من المعروف أن القرآن قد بهر العرب بأسلوبه البياني المعجز وقيمه الفكرية والتشريعية... وأنه ليس وقفا على مرحلة معينة، أو مصر معين، بل هو دستور الله الخالد للبشرية جمعاء من جهة وكتاب أدب وبلاغة معجزة من جهة أخرى.

ومن هنا فلا بد أن تكون دراستنا معتمدة على جانبين هما التراث والمعاصرة حتى ندرك تمام الإدراك أن حقيقة الإعجاز القرآني تتجلى باستمرار في مدى عجزنا عن الإتيان بمثله من الأدب والبلاغة، وفي مدى تفاعلنا مع النص القرآني من حيث المضامين والدلالات التي هي الحقيقة المطلقة بشكل نسبي انطلاقا من الأرضية المعرفية المحكومة بالزمان والمكان.

ولعل هذا ما جعلني أفكر في موضوع هذه الدراسة التي تربط بين الحاضر والماضي حيث انطلقت من معايشتي العقلية والوجدانية للكتابين ولبعض الدراسات القرآنية التي تناولت إعجاز النص القرآني بيانيا، وحاولت إبراز تميز أسلوبه وخصوصية نظمه البديع المتناه في البلاغة، كما أن تعلقي الشديد بالقرآن العظيم والرغبة الصادقة في فهم أسراره وخدمة لغته الشريفة، كانا لهما عميق الأثر في اختيار موضوع الدراسة، وإذا كانت هذه حوافز الإختيار فإن الأهداف التي توخيت الوصول إليها بهذا الدرس هي: النظر في الكتابين وفيما تضمناه من آراء وقضايا نقدية نظرا يعين على تقييمهما ويكشف عما عسى أن يكون فيهما من آراء تخدم النقد والبلاغة بعد أن تخدم قضية الإعجاز البياني... وهذا بدوره يعين على تحديد مكانتهما ووضعهما في المنزلة التي تليق بهما في مجال الدراسات القرآنية.

كذلك توخيت بهذه الدراسة استجلاء الأسس العلمية والمنطلقات الفكرية التي تدعم مواقفهما في معالجتهما لقضية الإعجاز القرآني مدافعين بذلك عن القرآن الكريم وعقيدة الإسلام بالإضافة إلى تحديد المفهوم الدقيق للإعجاز والمعجزة والفرق بينهما.

كذلك توخيت بهذه الدراسة أن أضيف لبنة متواضعة إلى صرح تراثنا العربي الإسلامي ذلك التراث الذي تعتز به جامعة الأمير عبد القادر وتعمل دائبة على تنميته والإضافة إليه، فوق ما تبذل في سبيل الحفاظ عليه.

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أمور عديدة منها:

أنها تتعلق بعلمين كبيرين مختلفين لهما جهدهما المتميز المتواصل في الدراسات الإعجازية عامة والبيانية خاصة والذي طفر بالبحث البياني القرآني طفرة قوية وانتقل بالبيان العربي إلى طور جدير بالبحث والتحليل والموازنة والنقد وبخاصة عبد الله دراز الذي أسهم بحظ وافر في الانتقال بالبيان إلى مدى بعيد كانت له فيه إضافات لا تنكر على من سبقه.

كما أن متقدمه الباقلاني كان له منهجه البياني الذي أفادت منه البلاغة العربية وأفاد منه عبد الله دراز نفسه.

فتطلعت نفسي إلى دراسة بيان هذين العلمين دراسة موازنة مستعينا بما ألف كل منهما في الإعجاز البياني وغيره وبالبحوث التي دارت حولهما، ومما دفعني إلى الكتابة في هذا الموضوع أيضا تشابه منهجيهما مع أنهما من عصرين مختلفين فكلاهما يعالج القضايا البيانية بأسلوب أدبي ولا يهتم بالتحديد والتعقيد بقدر الاهتمام بالذوق الأدبي مستعينا بالصور الأدبية والشواهد والمثل في توضيح الفكرة فضلا عن أن كلا منهما كان يمزج البحث البياني بالنقد الكلامي أو الأدبي غالبا.

وقد تأثر كل منهما بمن سبقه من العلماء الذين أسهموا بحظ في البحث البياني كما أن للباقلاني الأثر البالغ فيمن أتى بعده من العلماء خصوصا عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" مع وضوح في الشخصية يتمثل في مناقشة آرائه مع الحكم له أو عليه.

كما يرجع الفضل للباقلاني في ابتكار وتوضيح بعض المسائل البيانية كالروح الساري في نظم القرآن - الأسلوب - ... وغيرها.

كما أن الباقلاني تكلم عن الفصل والوصل في إطار النظم وبيّن دواعيهما ومثّل لها بكثير من آي الذكر الحكيم والسور، وفصّل القول فيهما على نحو لم يسبق إليه.

ثم كان لهذه الدراسة أهمية بيانية كبيرة لأنها تكشف عن قيمة بلاغة هذين العلمين وعن الجوانب المضيئة الزاهية في بيان كل منهما التي كانت نبراسا مضيئا لمن أتى بعدهما من المهتمين بالدراسة البيانية والنقدية.

وسأناقش - ضمن منهجي في الدراسة - إن شاء الله تعالى - أهم القضايا البيانية التي تناولها كل من الباقلاني وعبد الله دراز وأدرسها دراسة موازنة تقوم على التذوق والتحليل والنقد مرجحا ما أراه صوابا معطيا كل ذي فضل فضله، كما أبرز أوجه التشابه بينهما في الأسلوب والمنهج وكذلك أبرز أوجه الخلاف في بعض القضايا والمسائل البيانية مستخلصا النتائج من ذلك.

وقد آثرت أن أقوم بهذه الدراسة للموازنة بينهما.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة الذي أملته طبيعة الموضوع فهو منهج تاريخي استقرأت فيه بعض أقوال العلماء في الإعجاز القرآني قديما وحديثا. الأمر الذي له أهميته البالغة في هذه الموازنة ومنهج تحليلي مقارن اعتمدت فيه على عرض قضايا بيانية وآراء كل منهما على حدة محللا ومناقشا كلما دعا الأمر إلى نقد أو مناقشة، ومقارنا بين طرحيهما لاستخلاص ما يمكن أن يكون خلافا بينهما أو سمات مشتركة تجمعهما ومركزاً أساسًا - كما أشرت سابقا - على ما كتبه هذان العلمان في كتابيهما "إعجاز القرآن" و"النبأ العظيم".

وحتى يكون الهيكل العام للدراسة واضحا أبين فيما يلي الخطة المفصلة لها لتتضح صورتها الإجمالية أمام القارئ الكريم.

تتكون هذه الدراسة من بابين وخاتمة.

والبابان هما:

الباب الأول: "أسس الإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز" ويشمل مدخلا وثلاثة فصول:

المدخل: عرضت فيه لطائفة من المسائل التي لا يستغنى عنها في دراسة تتعرض لقضية الإعجاز في القرآن، فتكلمت عن الإعجاز والمعجزة في اللغة وفي الاصطلاح. ثم عن التأليف في الإعجاز منذ ظهر في ذلك تأليف إلى عهد أبي بكر الباقلاني. وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم من المتقدمين. ولكي يتم ضبط تصور عام لفكرة الإعجاز القرآني تناولت جانبا من الإعجاز القرآني في مقاربات المحدثين.

ومن هذا المنطلق جاء المدخل بمثابة الخلفية المعرفية لهذه الدراسة الموازنة ذلك أنه لا يمكن لدراسة أكاديمية حديثة تختص في الدراسات القرآنية أن تنطلق من عدم أو تتحرك في فراغ إلا إذا عاينت المسار التاريخي لكتابات القدماء والمحدثين في مسألة الإعجاز البياني ليتم التواصل بين مختلف حلقات هذه الكتابات.

الفصل الأول: "الباقلاني ومنهجه في كتاب إعجاز القرآن".

يتعلق هذا الفصل بمبحثين أساسين هما:

1 - نبذة عن حياة الباقلاني: تناولت فيها ترجمة بسيطة عن نشأة الباقلاني مع التركيز على الجوانب الدينية والعلمية في شخصية الرجل.

2 - منهجه في كتاب إعجاز القرآن: تحدثت فيه عن منهجه في بحث إعجاز القرآن وغايته منه - كما حدده في فاتحة كتابه - وقسمته إلى أربع مراحل أساسية كل مرحلة توصل إلى ما بعدها وترتبط بها وهي: مرحلة التمهيد، ومرحلة التفنيد، ومرحلة التحديد. ومرحلة التأييد والإثبات، ثم نقد وتقييم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني: "عبد الله دراز ومنهجه في كتاب النبأ العظيم".

يتعلق هذا الفصل بمبحثين أساسين هما:

1 - نبذة عن حياة محمد عبد الله دراز: تناولت فيها ترجمة بسيطة عن نشأة عبد الله دراز مع التركيز على الجوانب الدينية والعلمية في شخصية الرجل.

2 - منهجه في كتاب النبأ العظيم: تحدثت فيه عن منهجه في بحث إعجاز القرآن وغايته منه - كما حدده في فاتحة كتابه وقسمته إلى أربع مراحل أساسية كل مرحلة توصل إلى ما بعدها وترتبط بها، يلمس ذلك أي قارئ - وهي: مرحلة التمهيد، ومرحلة التفنيد، ومرحلة التحديد، ومرحلة التأييد والإثبات، ثم نقد وتقييم.

الفصل الثالث: "أسس الإعجاز بين الباقلاني وعبد الله دراز".

يتعلق هذا الفصل بثلاثة مباحث أساسية هي:

1 - أسس الإعجاز عند الباقلاني: وتناولت فيه الأسس العلمية والمنطلقات الفكرية التي بنى عليها الباقلاني فكرة إعجاز القرآن وتتمثل في ثلاثة عناصر أساسية هي:

أ - الإلتزام بالمنهج الكلامي الجدلي.

ب - الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري.

جـ - الإحتكام إلى التذوق الفني الأدبي - ذوقي تأثيري -

2 - أسس الإعجاز عند عبد الله دراز: وتناولت فيه أيضا الأسس العلمية والمنطلقات الفكرية التي بنى عليها عبد الله دراز فكرة إعجاز القرآن وتتمثل في ثلاثة عناصر أساسية وهي:

أ - الإلتزام بالمنهج العلمي الموضوعي.

ب - الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري - وكان معتمدا في ذلك على الباقلاني في الكشف عن أسرار الجمال القرآني بطريقته الموضوعية الخاصة -.

جـ - الإحتكام إلى التذوق الفني الأدبي - المنهج الأدبي -

3 - الموازنة بينهما من خلال أسس الإعجاز: وتناولت فيه نقاط التشابه والإختلاف من حيث المنهج والأسلوب في توجيه فكرة إعجاز القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني: "نظام عقد المعاني بين الباقلاني وعبد الله دراز". و يضم تمهيدا وثلاثة فصول :

وفي التمهيد عرضت لطائفة من القواعد التي لا يستغنى عنها في دراسة تتعرض لقضية الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية.

فتكلمت عن معنى الإرتباط عند الباقلاني وعبد الله دراز وكذلك تكلمت عن نظام عقد المعاني بين موضوعات السورة القرآنية في إطارها العام شكلا ومضمونا.

الفصل الأول: "نظام عقد المعاني عند الباقلاني".

تناولت فيه مدى تطبيق منهج الباقلاني على نظم القرآن وأسلوبه في بيان نظام عقد المعاني في مناقشته سورة النمل وآياتها، ومدى عنايته بإظهار الترابط الموضوعي والفني بين أجزاء النص القرآني.

الفصل الثاني: "نظام عقد المعاني عند عبد الله دراز".

تناولت فيه مدى تطبيق منهج عبد الله دراز على نظم القرآن وأسلوبه في بيان نظام عقد المعاني في مناقشته سورة البقرة وآياتها ومدى عنايته بإظهار الترابط الموضوعي والفني بين أجزاء النص القرآني.

الفصل الثالث: "النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز"

خصصت هذا الفصل للحديث عن نقاط التشابه والاختلاف بين الباقلاني وعبد الله دراز من خلال: ماهية النظم القرآني وأسلوبه، ومخالفته لأي صورة من صور النظم الحادث، ووجوه إعجازه ثم خلاصة الموازنة بينهما منهجا وأسلوبا.

و أنهيت هذه الدراسة بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما عن المصادر والمراجع فلعل طبيعة الموضوع تكون هي التي حددتـها فلـم أكـن لأختـار وإنمـا كـان حتما ولزاما أن أرجع إلى كتب التاريخ والتفسير، وعلوم القرآن، والملل والنحـل وعلـم الكـلام، وكتـب اللغـة والنقد والبلاغة... التي تعد بحق معينا خصبا للتحليل والنقد والموازنة...

وقد اتخذت الدراسة من بعض هذه الكتب القديمة والحديثة منارة هادية يستروح من خلالها جمـال البيان القرآني. وخاصة الدراسات البلاغية والأدبية والنقدية. وأخص منها كتاب: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (471 هـ أو 474 هـ)، وكتب علوم القرآن منها البرهان في علوم القرآن لبـدر الديـن الزركشـي (794 هـ)، والإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمـن بن أبي بكر السيوطي (911 هـ) وكـان لكتـب الإعجـاز النصيـب الأوفر في هذه الدراسة وأخص منها كتاب بيان إعجاز القرآن لمحمد بـن محمـد الخطـابي (388 هـ) وكتـاب النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني (386 هـ)، كما استعنت بكتـب التفسـير خاصـة تلك التي تعنى بالمادة البلاغية وأخص منها تفسير الكشاف عن حقائق غوامـض التـنزيل وعيـون الأقـاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري (538 هـ) وغيرها من التفاسير القديمـة، وتفسـير التحريـر والتنويـر للطاهر بن عاشور... وغيرها من التفاسير الحديثة.

ولا أزعم أني أتيت على جميع ما كتب في هذه المجالات ولكني حاولت الإلمام بكثير وقد ذكـرت في ثبت المراجع بآخرة الرسالة أكثر ما وصلت إليه يدي وأخذت منه في دراستي، ولا تنكـر الدراسـة اسـتفادتها الجليلة من هذه الدراسات كلها بشكل صريح أو ضمني.

أما عن المصاعب التي واجهتني في دراستي فلا يجمل بي التحدث عنها لأنه ما من دارس مرّ بـهذه المرحلة إلا وقد عانى الكثير من مشقة التنقيب وعنت البحث في الحصول علـى المصـادر العلميـة، فضـلا عـن الظروف المادية والاجتماعية والنفسية القاهرة.

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أسجل خالص الشكر وعظيم القدر إلى أستاذي الفاضل المشرف الدكتور رابح دوب الذي أعانني بتوجيهاته العلمية ونصائحه القيمة وطيبة نفسـه وتواضعـه في فـترة كنـت في أمسّ الحاجة إلى من يأخذ بيدي، كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي يد العون، وشجعني على إنجاز هذا العمل المتواضع وإنهائه، وفي مقدمتهم المشرف ولا أدعي أني بهذا العمل قد بلغت مرامـي العلـم وفتحـت مغالق اللغة، وإنما جهدي لبنة صغرى متواضعة في صرح هذه اللغة.

فإن وفقت في هذا فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان.

وأسـأل الله سـبحانه أن يكـون عملـي المتواضـع هـذا خالصًا لوجهـه الكريـم، وأن يرزقنـا السـداد في القـول والإخلاص في العمل والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الأول

أسس الإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخل إلى إعجاز القرآن.

الفصل الأول : الباقلاني ومنهجه في كتاب "إعجاز القرآن".

الفصل الثاني : عبد الله دراز ومنهجه في كتاب "النبأ العظيم".

الفصل الثالث : أسس الإعجاز بين الباقلاني وعبد الله دراز.

المدخل إلى إعجاز القرآن

- تمهيد
- تعريف الإعجاز
- تعريف المعجزة
- شروط المعجزة
- مراحله المختلفة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخل إلى إعجاز القرآن

تمهيد

من الضروري أن نمهد لهذه الدراسة وموضوعها "**الإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز دراسة موازنة**" بمدخل نتبين فيه مفهوم الإعجاز. ومراحله المختلفة حتى تجد الدراسة الموازنة مبررًا لظهورها.

لقد خلق الله عز وجل الإنسان "...**لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**...[1] في أحسن تقويم ومنحه قوة التفكير وجعله سيدا في هذا الكون كل شيء مسخر له بأمره تعالى: "**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**"[2].

وما كان الله ليذر هذا المخلوق البشري دون أن يمده بقبس من الوحي بين فترة وأخرى بواسطة رسله فيجعله ينقاد إلى معالم الهدى والنور ليسلك عن بصيرة سبل الحياة، وحتى يعترف بعجزه ونقصه ويمتثل للأمر المنزل عليه، و يعلم أنه ليس هو الوحيد الأقوى في هذا الكون ويؤمن بقدرة عليا فوقه إليها يرجع الأمر كله هي قوة الخالق جل وعلا. فبعث الله تعالى رسلا وأنزل معهم الكتاب والميزان وأيدهم بخوارق العادات التي تقيم الحجة على الناس فيعترفون أمامها بالعجز والضعف ويدينون لها بالولاء والطاعة؛ ولكن العقل البشري كان في أطوار نموه الأولى لا يرى شيئا يأخذ بلبه أقوى من "المعجزات الكونية والحسية" حيث لا يرقى عقله إلى السمو في المعرفة و التفكير فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه جارية لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء.

فلما اكتمل العقل البشري أذِنَ الله تعالى بفجر الرسالة الخالدة إلى الناس كافة وكانت معجزتها معجزة العقل البشري في أرقى تطورات نضجه ونموه [3].

---

[1] – الإنسان. 01

[2] – الجاثية. 13

[3] – حينما تطور العقل البشري أصبحت المعجزات المادية غير كافية لإقناعه حيث يقول عز من قائل: "**وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ**". الإسراء. 59. كما كانت لدى الأمم السابقة ولكن إضافة إلى ذلك جاء القرآن الكريم بمعجزة معنوية تعتبر معجزة المعجزات لأنها باقية إلى يوم القيامة.

فبينما كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية حسية تبهر الأبصار ولا سبيل للعقل في معارضتها كمعجزة اليد والعصا لموسى – عليه السلام–، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى –عليه السلام–.

كانت معجزة محمد – صلى الله عليه وسلم – في عصر مشرق على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشري وتتحداه إلى الأبد، وهي معجزة القرآن الكريم، بعلومه ومعارفه وأخباره الماضية والمستقبلية.

فالعقل الإنساني على تقدمه لا يعجز عن معارضته، لأنه آية كونية لا قبل له بها فحسب. ولكن يعجز عنها لقصوره الذاتي فيكون هذا اعترافا منه بأنه وحي الله إلى رسوله وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسّة ليستقيم عوجه وترقى مواهبه، وهذا المعنى هو ما يشير إليه الرّسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا"[1].

والحديث عن الإعجاز القرآني ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سرّ إعجازها الزمن، فهو كما يقول الرافعي: "ما أشبه القرآن الكريم في تركيب إعجازه تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذي اكتنفه العلماء من كل جهة.. واخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدًا ومرامًا بعيدًا"[2].

هذا لم يحدث في تاريخ البشر أن أمة من الأمم اعتنت بكتابها السماوي كما اعتنت به أمة الإسلام، ولم ينل كتاب من الرعاية والحفظ والإجلال والإكبار مثل الذي ناله هذا الكتاب المجيد معجزة الإسلام الخالدة، وحجته البالغة ودعوته إلى الناس أجمعين، ولا عجب ولا غرو أن يحتل القرآن الكريم في نفوس المؤمنين هذه المكانة الجليلة، وهو الهداية والإصلاح والتربية والتعليم، وسمو التشريع ولقد أحسن أحمد شوقي عندما قال:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت * وجئتنا بكتاب غير منصرم

آياته كلما طال المدى جدد * يزينهن جمال العتق والقدم[3]

---

[1] – رواه البخاري، عن مباحث في علوم القرآن، مناع القطان.

[2] – مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص257، 258، الطبعة الخامسة عشر، مؤسسة الرسالة سنة 1985م.

[3] – الشوقيات، أحمد شوقي، ج 1، ص197، ط 10، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1404هـ، 1984م.

مفهوم الإعجاز

تعريف الإعجاز؛ والمعجزة :

ومما جاء في لسان العرب لابن منظور: العَجْزُ: نقيض الحزم ... عن ابن الأعرابي: عَجَّزَ فلانٌ رأيَ فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم؛ كأنه نسبه إلى العجز ... والْعَجْزُ: الضَّعف؛ تقول عَجَزْتُ عن كذا أعْجِزُ. وفي حديث عمر "لا تلثوا بدار مَعْجِزَةٍ": أي لا تقيموا ببلدة تَعْجِزُونَ فيها عن الاكتساب والتَّعَيُّشِ ...وأعْجَزَهُ الشيءُ: عَجَزَ عنه ... والْمُعْجِزَةُ: واحدة مُعْجِزَاتِ الأنبياء عليهم السلام.[1]

وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي: الْعَجْزُ والْمَعْجِزُ والْمَعْجِزَةُ وتفتح جيمُهما، والْعَجَزَانُ محركة، والعُجُوزُ بالضم: الضَّعْفُ ... وأعْجَزَهُ الشيءُ: فاتَه. وفُلاَنًا: وجدَه عاجِزًا، وصيَّرَه عاجِزًا ... والتَّعْجيز: التَّثْبيط، والنسبة للعَجْز ... ومُعْجِزَةُ النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعجَزَ الخصمَ عند التحدي؛ والهاء للمبالغة.[2]

وللزمخشري: عجز فلان عن العمل إذا كبر.[3]

وفي المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر: عَجَزَ عن الشيء عَجْزًا وعَجَزَانًا: ضعُفَ ولم يقدر عليه، وعَجَزَ فلانٌ عن الشيء عَجْزًا: لم يكن حازما ... وأعجَزَ فلانٌ: سبقَ فلم يُدرَك، وأعجزه فلانٌ: صيَّرَه عاجزا، وأعجز فلانا: وجده عاجزا ... والمُعْجِزَةُ: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييدا لنبوته، والمُعْجِزَةُ: ما يعجز البشرُ أن يأتوا بمثله.[4]

وجاء في تعريف المعجزة عند الإمام السيوطي قوله: "أعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إمّا حسية وإمّا عقلية وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ولأن الشريعة لما كانت باقية على صفحات

---

[1] – لسان العرب لابن منظور، مادة عجز، ج 2، ص 691، دار لسان العرب، بيروت، لبنان.

[2] – القاموس المحيط للفيروز أبادي، مادة عجز، جزء 2، ص 180، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.

[3] – أساس البلاغة للإمام الزمخشري، ص 294، دار المعرفة، لبنان، 1979م.

[4] – المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر، ج 2،ص 585، ط 2، مطابع دار المعارف بمصر 1973م.

الدهر إلى يوم القيامة ليراها ذوو البصائر كما قال – صلى الله عليه وسلم – "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله فأرجو أن أكون أكثرهم تبعا"[1].

ويرى صاحب كتاب مباحث في علوم القرآن: "أن الإعجاز إثبات العجز، والعجز في التعارف اسم للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز والمراد الإعجاز هنا إظهار صدق النبي – صلى الله عليه وسلم – في دعوى الرسالة، و إظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن وعجز الأجيال بعدهم. والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة[2]

وجاء في تعريف الإمام الأشعري وهو من علماء الكلام: " المعجزة فعل خارق للعادة مقترن بالتحدي سليم في المعارضة ينزل منزلة التصديق بالقول من حيث القرينة وهو منقسم إلى خرق المعتاد وإلى إثبات غير المعتاد"[3].

وقال الباقلاني: "الدليل على إثبات نبوة نبينا ما ظهر على يده من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة والحجج النيرة، الخارقة للعادة والخارجة عما عليه العادة وتركيب الطبيعة والله سبحانه لا يظهر المعجزات ولا ينقض العادات إلا للدلالة على صدق صاحبها، وكشف قناعه، وإيجاب الإقرار بنبوته والخضوع لطاعته والانقياد لأوامره ونواهيه"[4]

ويرى القاضي عبد الجبار الاسترابادي "أن معنى قولنا في القرآن أنه معجزة أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به"[5].

---

[1] – الإتقان في علوم القرآن، الإمام السيوطي، ج2، ص 116، دار المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1973م.

[2] – مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص 259.

[3] – الملل والنحل، الإمام الشهرستاني، ج2، ص 93، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

[4] – كتاب التمهيد للباقلاني، ص156، 157، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1987م.

[5] – المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار – ن – تحقيق أمين الخولي ط1، دار الكتب المصرية، 1960م، وزارة الثقافة والإرشاد.

ويرى الأستاذ نعيم الحمصي: "العجز، الضعف وأصله لغة: التأخر عن الشيء وهو ضد القدرة وأعجزه الشيء فاته، وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته جعلته عاجزا، وجاء في القرآن الكريم ﴿وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[1].

ومصدر أعجز الإعجاز ومنه اشتقت كلمة معجزة وهي اسم فاعل منه لحقته التأنيث وواحدة معجزات الأنبياء التي تؤيد بها نبواتهم وقد صار لها هذا المعنى في زمن متأخر عن الرسالة فأطلقها العلماء عليه اصطلاحا كما أطلقوا المصدر الإعجاز على اتصاف الشيء بها أي بأنه أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة"[2].

وجاء في تعريف الإعجاز للدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): "عجزت المرأة، صارت عجوزا أي أنها هرمت وشاخت وأصبحت عاجزة عن استعادة شبابها، وعجزت المرأة عجيزتها أو عجزتها ويقال: عجز عن الأمر إذا قصر عنه وأعجزني فلان أي فاتني، وقال الليث أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه و إدراكه ومعنى الإعجاز: الفوت والسبق، أعجاز الإبل مآخيرها والركوب عليها شاق، ويعجز البعير ركب عجزه، هذه المعاني تفيد **القصور**، والفوت والسبق وهذا معنى **الإعجاز لغة**، ولعل مفهومه آت من عجز المرآة عن استرداد شبابها أو عن الصعوبة والمشقة التي يلقاها العربي عند ركوبه على أعجاز الإبل. **والإعجاز اصطلاحا**: هو قصور القدرة البشرية عن محاكاة القرآن الكريم والإتيان بمثله"[3].

أما مصطفى صادق الرافعي فيرى أن الإعجاز شيئان: "ضعف القدرة الإنسانية في محاولته المعجزة ومزاولته شدة الإنسان واتصال عنايته ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدّته المحدودة بالغة ما بلغت فيصير الأمر المعجز إلى ما يشبه في الرأي مقابلة أطول الناس عمرا بالدّهر على مداه كله، فإن المعمر دهر صغير وإن لكليهما مدة في العمر هي جنس الأخرى غير أن واحدة منهما قد استغرقت الثانية فإن شاركتها الصغرى إلى حدّ فما عسى أن يشركهما فيما بقي"[4].

---

(1) – العنكبوت، 22.

(2) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص7، ط2، مؤسسة الرسالة، 1980م.

(3) – التفسير البياني في القرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص53، ط2، دار المعارف، مصر، 1966م.

(4) – تاريخ أدب العرب، فصل إعجاز القرآن، ج2، ص139، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ويعرّف محمد عبد العظيم الزرقاني المعجزة قائلا: "هي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الأسباب المعروفة يخلقه الله تعالى على يد مدعّى النبوة عند دعواه إياها شاهدا على صدقه فإذا قام إنسان ما وأدّعى أنه مبعوث من الله تعالى إلى خلقه ورسوله إلى عباده، وقال إن آية صدق فيما أدعيه أن يغير الله الذي أرسلني عادة من عاداته على يدي... ثم قال وسيأتيكم الله بهذا الأمر العجاب من باب ترون أنكم فيه نابغون وعليه قادرون وإني أتحداكم زرافات ووحدانا أن تأتوا بمثل هذه الآية"[1]

ويقول: "إعجاز القرآن مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير إعجاز القرآن الخلق عن الإتيان بما تحداهم به"[2].

وتلخيصا لهذا كله نقول: إن المعجزة هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يخلقه الله تعالى على يد النبي أو الرسول ليشهد على صدق دعواه، ومن هنا فلن تسمى المعجزة معجزة إلا إذا وقع بها التحدي أولا، لأن هذا التحدي ميزان ينصب بين القدرة والعجز لا تستطيع أن تقول هذا معجز إلا إذا تحديت الناس فعجزوا عنه.

---

(1) – مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني،ج1، ص56، 84،دار الفكر.

(2) – المرجع نفسه ج2، ص331.

شروط المعجزة:

إن للمعجزة شروطا خمسة تعمل جملة واحدة فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة.

أ - أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله كفلق البحر وانشقاق القمر وإحياء الموتى.

ب- أن تخرق العادة وتكون مخالفة للسنن الكونية والعقلية كفلق البحر مثلا.

جـ- أن يستشهد بها مدعي الرسالة (الرسول) على صدق دعواه كمعجزة القرآن الكريم الذي هو آية جلية على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ورسالته.

د - أن تقع على وفق دعوى النبي المتحدي بتلك المعجزة كنزول المائدة من السماء استجابة لطلب الرسول عيسى - عليه السلام - بعد دعوى قومه بالإنزال.

هـ- ألا يأتي أحد بمثل تلك المعجزة على وجه المعارضة لقوله تعالى: "فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ"[1].

ويضيف آخرون سادسة أن تكون مما نبغ وبرع فيه القوم. فهذه الشروط المذكورة إن تحققت كان ذلك الأمر الخارق للعادة معجزة دالة على نبوة صاحب الدعوى التي ظهرت المعجزة على يده وإن لم يتحقق خرجت عن كونها معجزة ولم تدل على صدق صاحب الدعوى[2].

وعلى الرغم من كل ذلك فبحدوث الثورة المعرفية الحديثة وانفتاح المسلمين على نتائج العلم في الغرب وانطوائهم تحت النظرة الكونية الجديدة وقع تغير كبير في النظر إلى الإعجاز القرآني "معناه وموضوعه" والآيات الدالة عليه.

والحقيقة أن معنى الإعجاز وموضوعه تابع لطبيعة النشاط الفكري السائد، كما نؤكد على ذلك، بمعنى أنه تاريخيا متغير من عصر إلى عصر، وفقا لتغير اهتمامات عقل الإنسان في التاريخ، فعندما كانت الثقافة الإسلامية ثقافة لغة وأدب ونصوص أو بمعنى أجمل ثقافة نصوص لغوية تحلل وتفسر وتتذوق، لم يكن الإعجاز القرآني ليخرج عن طبيعة هذا الاهتمام السائد.

---

[1] - الطور، 34.

[2] - جملة هذه الشروط هو ما اتفق عليه العلماء المسلمين في مجال الإعجاز المقرون بالتحدي.

والإعجاز كما يظهر في تجلياته التاريخية يعتبر دائما خلاصة العمل التفسيري الدائر حول النص القرآني بمعنى أن النص يفسر ويشرح ثم يشار بعدها إلى خصائصه الخارقة، نستنتج من هذا أن الإعجاز لا يكون إلا تابع للتفسير يتلون بلونه، ويأخذ طابعه وسماته في كل عصر. وبما أن الطابع اللغوي أهم مميزات التفسير البياني فقد جاء الإعجاز من جنسه.

أما في العصر الحديث[1] فلم تعد البراعة اللغوية كافية في تفسير نص القرآن وإدراك دلالالته الكونية الواسعة، إنه صار واجبا الاعتماد على حقائق الواقع المادي بجانب الأداة اللغوية في تفسير القرآن، ثم تجلية إعجازه. ولذا خرج الإعجاز القرآني من دائرة التذوق اللغوي ليطرق دائرة أوسع هي ما تعكسه الآيات من دلالات ومعاني تماثل الحقائق المكتشفة في مجالات النفس والآفاق.

وفي ظل الواقع الثقافي الجديد المختلف عن واقع المتقدمين اختلافا كبيرًا لم تعد آيات التحدي منطلقا نظريا لإثبات إعجاز القرآن، وإنما صار المعاصرون يؤكدون الإعجاز منطلقين من آيات قرآنية كثيرة تفيد معنى الإعجاز بوضوح، ولكن الاقتران بالتحدي الصريح تفيده في صورة وعد تكفل الله بإظهاره عن طريق الدلالات القرآنية على حقائق الواقع التي تقود إلى الإيمان بصدق دعوى النبي الأمي - صلى الله عليه وسلم - والإيمان بالمصدر الإلهي من مثل قوله تعالى: "سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفاق وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"[2] وقوله تعالى: "وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ"[3] وقوله أيضا: "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا"[4] وغيرها كثير.

ولقد صارت هذه الآيات وأمثالها منطلقا نظريا لإثبات المحتوى الإعجازي للقرآن بدل آيات التحدي المعروفة. من مثل قوله تعالى: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ"[5] وقوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

---

[1] - والراغب في استقصاء أهم القضايا والأفكار التي كونت بناء هذا الاتجاه في التفسير العلمي عليه الرجوع إلى الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم في العصور الحديثة، عبد الحميد بوكعباش، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة، سنة 1989م.

[2] - فصلت: 53.

[3] - ص: 88.

[4] - النمل: 93.

[5] - البقرة: 23.

صَادِقِينَ"[1] وقوله: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَّاتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْءَانِ لاَ يَاتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[2].

إن الواقع العلمي الجديد الذي نعيشه في عصرنا هذا، ويوجه نمط تفكيرنا هو الذي قاد إلى تغير النظرة إلى إعجاز القرآن. ولذا لم يعد الاهتمام مصروفا إلى تأكيد نفي القدرة على الإتيان بالمثل، وإنما صار اهتمام الأجيال الجديدة منصبا على رؤية دلالات القرآن وهي تماثل معلومات الإنسان المؤكدة عن الكون والحياة يستدل من هذه المماثلة على المصدر الإلهي للقرآن، فصار كل ما يؤكد المصدرية الإلهية للقرآن إعجازا قرآنيا صحيحا.

هذا على الرغم من اعتراض بعض العلماء على هذا الإعجاز المتحقق بهذه الطريقة. ونلاحظ أن هناك بجانب الآيات الواعدة لإظهار البراهين للناس على صدق المصدر القرآني آيات قرآنية أخرى تحقق هذا الوعد المضروب تحقيقا علميا، وبشكل تاريخي مستمر وهي الآيات التي اتخذت موضوعا لها في الواقع الكوني بجميع أبعاده الطبيعية، والنفسية والسياسية، والتاريخية، وغيرها. مثل قوله تعالى: "وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ"[3] وقوله تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالارْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا"[4]، وغيرها كثير.

"وعند التأمل نجد الآيات الكونية التي تعلن دلائل الإعجاز القرآني، سواء في شكله المتحقق أو الموعود لا تخلو من معنى التحدي، وإن كان بطريق ضمني وغير صريح؛ لأن إقامة الدليل الحسي القاطع على صحة دعوى القرآن كما هو الحال مع الإعجاز العلمي، أو الوعد في إظهار هذه الأدلة في المستقبل، هو في حقيقة الأمر تحدي للمكذبين بالقرآن أو الذين يردون إظهار تناقضه لأن من إعجاز القرآن "عجز الزمان عن إبطال شيء منه"[5] إذن فهو في تحد دائم إذا كان هذا التحدي بمعنى ظهور الأدلة، بشكل مستمر مع التاريخ على صدق دعوى القرآن فالأمر الذي يحقق في الوقت نفسه إعجازه.

---

(1) – هود: 13.

(2) – الإسراء: 88.

(3) – الذاريات: 47.

(4) – الأنبياء: 30.

(5) – المنار، محمد رشيد رضا، ج1، ص207، دار المنار، 1367هـ.

إذن فلم يعد الإعجاز في هذا العصر يتحقق من انعدام القدرة على تقليد نص من نصوص الوحي والإتيان بما يقاربه في النظم والأسلوب بل صار يعد من الإعجاز كل معنى من آيات القرآن دل في ذاته على أنه يستحيل صدوره من بشر"[1]

وقد اتضح أنه لم يكن ممكنا الخروج بمسألة الإعجاز القرآني من الإطار اللغوي والبياني إلا حين وقع التخلي عن اشتراط التحدي الصريح الذي تراءى للمتقدمين في الآيات المذكورة أنه صار مستدلا عليه بقرائن الأحوال في جل الآيات القرآنية فخرج عن معنى: انعدام القدرة على الإتيان "بمثيل" له ذي مضمون بياني إلى معنى "الدليل" على كون القرآن من عند الله بغض النظر عن موضوع هذا "الدليل" بيانيا كان أم علميا، أم تشريعيا، أم تاريخيا.. وبهذا ازدادت دائرة الإعجاز اتساعا بعد ضيق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم في العصور الحديثة، عبد الحميد بوكعباش، ص303 بتصرف.

مراحله المختلفة:

بدأ التفكير في سحر القرآن الكريم منذ حوّل العقلية الإنسانية من السذاجة إلى التبحر في التفكير والتأمل في ملكوت السماوات والأرض، كيف لا؟ وهو أول كتاب يكرم هذا الإنسان ويدعوه إلى التدبر، ويرفع مكانة العلم والعلماء.. أول كتاب يخرجه من غياهب الظلمات إلى النور.

إنه القرآن الكريم العظيم المعجز الذي فتح مدارك الإنسانية وتركها تبحث عن علة إعجازه، و أين تتجلّى. أفي القرآن نفسه أم في أمر خارج عنه؟

سؤال شغل بال المفكرين والفلاسفة والعلماء منذ القديم وسالت فيه الأقلام ما شاء الله لها أن تسيل، ومع ذلك كله فسيبقى القرآن غضا طريا خالدا لا تفنى عجائبه ولا تنقضي فوائده، يساير كل زمان ومكان.. في سحره وجلاله يتحدى العالمين ببيانه وبرائع نظمه وبعلومه وشرائعه المنظمة لحياة البشر وأحوالهم وبغيبياته وبكل ما فيه، فهو الكنز الذي لا يفنى ومنارة الهدى والرشاد التي لا تبلى من تمسك به أفلح ونجا، ومن أعرض عنه ونأى خاب وهلك.

والحقيقة أن قضية الإعجاز القرآني من أمهات القضايا الفكرية التي شغلت بال الدارسين والمفكرين قديما وحديثا، والتساؤل المطروح ترى كيف نشأت قضية الإعجاز؟ وفي أي وقت أثير النقاش فيها؟ ولماذا اختلف الباحثون في تعليل وجوه الإعجاز؟

ثم بعد ذلك ما هو المفهوم المعاصر للإعجاز؟ وهل الإعجاز والتحدي في القرآن العظيم منصرف في الدرجة الأولى إلى المضمون، وما فيه من الشواهد التي كشف العلم عنها أم هو منصرف إلى البلاغة في أسلوب القرآن البياني؟

هذا ما سنعرفه بعد أن نتبين المحاولات الأولى التي قام بها أسلافنا الكرام خدمة للقرآن الكريم.

لقد افتخر العرب في الجاهلية بفن الشعر واتخذوه منارة هادية إلى طريق البيان القويم، فقد عرفوا بفصاحة اللسان وقوة البيان، مما جعلهم يفتخرون ببلاغتهم وقدرتهم البيانية على التصرف في ضروب النظم. وقد بلغوا في اعتزازهم بالشعر والنثر مبلغا جعلهم يتعلقون بهما لدرجة العبادة والطاعة.

وظل العرب ردحا من الدهر في معبد بيانهم يجوّدون أشعارهم وينقّحون خطبهم حتى نزل القرآن الكريم، وكان لنزوله عظيم الأثر في نفوسهم، بحيث جعل العرب وهم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة ينسون إلاههم المعبود (عن فن الشعر وروعة النثر) ويبحثون أمر هذا الجديد الذي حيّر عقولهم وأذهل ألبابهم بروعة

بيانه وجمال نظمه، مما جعلهم يصفون القرآن الكريم تارة بالشعر، وتارة أخرى بالسحر، إلى غير ذلك من نعوت الإعجاب وصفات التأثر.

فقد قاسوا ما ليس عندهم بما عندهم لا للتقليل من قيمته إنما للتعبير عن شدة تأثرهم بجماليته ذلك أن نزول القرآن لم يصرف العرب عن الإعجاب بالبيان بل كانت حاستهم البيانية أحد أسباب التأثر بالقرآن الكريم.

ولما بالغ العرب في غيهم وتمادوا في عتوهم تحداهم القرآن الكريم حتى ينهي أباطيلهم بالحجة الواضحة الكاشفة لترهاتهم.

وقد سلك القرآن الكريم في ذلك مسلك التدرج في التحدي بحيث تحداهم على صور متعددة وأشكال مختلفة وكانت آية البقرة الحاسمة هي آخر صور التحدي المتبوع بالتقريع بعجز العرب وهي قوله تعالى: "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"[1]

وقد اعتمد القرآن منطق التدريج في التحدي لغرض إبراز القصور البشري والضعف الإنساني في الوصول إلى بلاغة القرآن الكريم ونظمه.

فالعرب على الرغم من قدرتهم البيانية فإنهم عجزوا عن الإتيان بمثل أسلوب القرآن لما فيه من الميزات الظاهرة التي تتجلى في مباينة أسلوبه لأسلوبهم وكذلك الميزات أو السمات الداخلية التي أدركها العرب بالذوق وصعب عليهم بيانها وتعليلها، فنظم القرآن مخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وغيرهم.

ولقد ارتبط البحث البلاغي بمحاولة الكشف عن سر إعجاز القرآن الكريم على الرغم من الصلات العميقة بين بحوث البلاغة وعلوم اللغة عامة. وقد تباينت مشارب العلماء والمفسرين في استجلاء حقيقة الإعجاز القرآني واستكناه الأجزاء الداخلة في تشكيل منظومته الكلية الشاملة.

والمتأمل في المسار التاريخي لمذاهب القدماء في محاولتهم بيان وجه الإعجاز وإبراز لطائفه وإدراك حقائقه يجد أنهم كانوا يؤكدون فكرة مخالفة النظم القرآني ومباينته لنظم البشر وبلاغتهم، وقد تحدث عبد

---

[1] – البقرة: 23 ، 24.

القاهر الجرجاني عن هذه المغايرة وذلك من خلال إشارته إلى أنه "لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قوى نظرهم عنها"[1]

ولقد كانت البدايات[2] الأولى لقضية الإعجاز القرآني من كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى سنة (210 هـ) وهو يمثل التيار اللغوي مع قليل من آثار البحث البياني وإذا كان أبو عبيدة لم يتوسع في تفصيل البحوث البيانية فلأنه ألّفه في وقت مبكر نسبيا، وكان عام ثمانية وثمانين ومائة من الهجرة النبوية. (188 هـ).

---

[1] – دلائل الإعجاز في علم المعاني عبد القاهر الجرجاني، ص192. دار المعرفة بيروت، 1402هـ – 1981م.

لقد قصدنا إلى العرض الموجز على غير منهج الاستقصاء حول تاريخ فكرة الإعجاز، لأن المساحة التي خصصت للمدخل أو التمهيد لا تسع لاستعراض المسار التاريخي لفكرة الإعجاز والراغب في استقصاء مذاهب القدماء في هذا الموضوع عليه الرجوع إلى كتاب فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق نعيم الحمصي، قدم له بهجة البيطار،كما ينظر كتاب الطراز المتظمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز،يحيى العلوي، المجلد الثالث، الجزء الثالث، ص367، 178، ...464،أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. (دت). ففي هذا الفصل من الكتاب المذكور بيان واف لمذهب القدماء في إعجاز القرآن ورّد المؤلف عليها ومناقشتها.

[2] – سؤال: لماذا تأخرت دراسة الإعجاز القرآني ولم تظهر في عهد الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم – وظهرت أخيرا في العصر العباس؟

الجواب: "والحقيقة الأكيدة أن المسلمين أدركوا تمام الإدراك أن بيان القرآن ونظمه وسبكه لا تدانيه نظوم أخرى لذلك لم يتكلموا في وجه الإعجاز ولم يلتفتوا إليه لأن برهانه قائم في نفوسهم". وتوقفوا عند حدود حفظه وفهم معانيه صونا وإجلالا له. والراغب في استقصاء هذا الموضوع عليه الرجوع إلى كتاب الإعجاز البلاغي، محمد أبو موسى، ص19، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1405هـ – 1984م.

ويعتبر هذا الكتاب مرحلة أولية من مراحل الكشف عن إعجاز القرآن وبلاغته، كما يعتبر مرجعًا لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التي تلت"[1]

وبعد كتاب مجاز القرآن تطورت الدراسات المرتبطة بإعجاز القرآن الكريم تطورًا ملحوظًا، نتيجة لتطور الفكر العربي،وظهور فلسفات ومذاهب و علوم شتى في مسار قضية الإعجاز،ولعل أظهر بيئة كانت مجالا واسعا لإنتشار فكرة الإعجاز القرآني هي بيئة المتكلمين ومن أشهر أئمتهم الجاحظ المتوفى سنة(255 هـ) ومحمد بن يزيد الواسطي (306 هـ) وعلي بن عيسى الرماني(384 هـ) واحمد بن محمد الخطابي(388 هـ) وأبو بكر محمد الباقلاني(403 هـ) وعبد القاهر الجرجاني(471 هـ)والزمخشري (538 هـ) وغيرهم.

وكان لزامًا أن تجد فكرة إعجاز القرآن الكريم في بيئة المتكلمين من آمن بها ودافع عنها وفقا لمعتقده الديني ومذهبه الكلامي كجماعة المعتزلة الذين قال بعضهم بالصرفة ولعل من أشهر أقطابها أبو إسحاق إبراهيم ابن سيار النظام(220 هـ) حيث زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليها "فرأى النظام إعجاز القرآن في إخباره عن الغيوب، أما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم"[2]

ولعل المقصود بالمنع والعجز في نص بكري شيخ أمين أن القول بالصرفة يمكن ان يكون له تفسيرات ثلاثة كما ذكر يحيى العلوي صاحب الطراز:

---

[1] – التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، ص158، ط4، دار الشروق، بيروت،1980م.

كما يرى الدارسون أيضا: أن المرحلة الأولى التي مرت بها الدراسات القرآنية كانت مهتمة بالجانب اللغوي في القرآن، وتفسير الغريب منه بالشعر.

كما يرون أن الدراسات البيانية للقرآن قد بدأت في المرحلة الثانية بظهور الجاحظ، وابن قتيبة، انظر كتاب "الإعجاز الفني" عمر السلامي، ص50.

كما يرون أيضا أن كتاب "مشكل القرآن" لابن قتيبة يعد أول مفتاح للدراسات النقدية لأسلوب القرآن الكريم التي تناولتها بعد ذلك كتب إعجاز القرآن. أنظر كتاب "أثر القرآن في تطور النقد، زغلول سلام، ص150.

[2] – التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين، ص158.

التفسير الأول: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة. مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز...

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ...

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة. القسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك. فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة"[1]

وخلاصة مذهب أصحاب الصرفة أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن، إلا أن الله تعالى منعهم أي أنه صرفهم عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدروا لهم.

ولقد كان لظهور نظرية الصرفة عميق الأثر في احتدام الصراع بين العلماء. فقد انقسموا إزاء هذه القضية بين مؤيد ومعارض وكان الجاحظ أول من تصدى للرد على أستاذه النظام في كتابه "نظم القرآن" المفقود، ومن ثم. فهو صاحب الفضل لأنه أول من قال بنظم القرآن. وإن لم يتوسع في شرح فكرته وتفصيلها، وله الفضل في وضع اللبنة الأولى لنظرية النظم التي أتم بناء صرحها عبد القاهر الجرجاني. فالجاحظ يرى " ان معجزة القرآن أكبر المعجزات. وأن الله حين تحدى العرب دمغهم بالحجة ولم يقدروا على الإتيان بمثله عجزا منهم ووهنا. لا تهاونا ولا تغافلا. ولا ضعفا لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلاً بأن يكفيهم شر قتل الأنفس والأولاد. وأن التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب والبدو خاصة. لما فيهم من الأنفة والعزة، فكيف والقرآن يتحداهم في أخص خصائصهم وهو البيان. وهم عرفوا بالبراعة والبلاغة"[2]

وخلاصة رأى الجاحظ في مسألة الإعجاز القرآني"أن الإعجاز متصل بالنظم وحده - بصرف النظر عما يحويه القرآن من المعاني - إذ طلب الله تعالى إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل و مفترى لا معنى له"[3].

---

[1] - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلوي، المجلد الثالث، ص391، 392.

[2] - التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص158، 159.

[3] - المرجع نفسه، ص159.

وبعد نهاية القرن الثالث الهجري وبداية القرن الرابع الهجري ظهرت دراسات مستقلة في الإعجاز القرآني ومحاولات خاصة ارتكزت أساسًا على محاولة الاستفادة من مؤلفات علماء القرن الثالث، وكان من أشهر العلماء الذين افردوا للإعجاز كتابًا مستقلا أبو الحسن علي بن عيسى الرماني "النكت في إعجاز القرآن" وقد جاء فيه ما يلي:

"وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة؛ والصرفة؛ والبلاغة؛ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة"[1]

يرى الرمّاني أن وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات:

1)- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحجة.

2)- التحدي للكافة.

3)- الصرفة.

4)- البلاغة.

5)- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

6)- نقض العادة.

7)- قياسه بكل معجزة.

والمتأمل في وجوه إعجاز القرآن عند الرماني يجد أنه يجمع كثيرا من الآراء التي سبقته دون نقدها أو إبراز عيوبها، كما أننا نلاحظ أنه بدأ في بيان وجوه الإعجاز من الوجه الرابع (البلاغة)، ولعلّ اختيار الرماني لهذا الوجه والانطلاق منه في إبراز حقيقة الإعجاز دليل كاف على المكانة الجليلة للبلاغة العربية بوصفها أحد الوجوه الجوهرية التي يقوم عليها الإعجاز واللافت للإنتباه أن الرماني قدم البلاغة على بقية وجوه الإعجاز لأنها المدخل الرئيسي لمسألة الإعجاز ويشهد على ذلك أنه أفرد لهذا الوجه بابا واسعا وأخر الوجوه الأخرى جامعا إياها في آخر الكتاب بعنوان "باب البيان عن الوجوه التي ذكرنا في أول الكتاب" ونظرًا للمكانة المحورية للبلاغة العربية فإن الرماني قسمها إلى ثلاث طبقات:

---

[1] - النكت في إعجاز القرآن، الرماني، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص75، ط2، دار المعارف، مصر ،1968م.

"منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة: فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى... وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[1].

ثم قسم البلاغة إلى عشرة أقسام، وهي الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة والتلاؤم والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان، ثم فسرها بابا بابا وفصل القول فيها تفصيلا وافيا مستشهدا في ذلك بالآيات القرآنية ومقارنا بين بلاغة العرب وبلاغة القرآن، وينتهي إلى ما بينهما من تباين في مستوى التعبير، وبعد أن انتهى الرماني من تفصيل أقسام البلاغة العشر، عاد إلى بيان الوجوه الستة التي بدأ بها كتابه.

ولعل أهم وجوه الإعجاز عند الرماني هو الوجه الأول يعني ترك المعارضة مع توفر الدواعي و شدة الحاجة . يقول الرماني في تبيان حقيقة هذا الوجه "أما توفر الدواعي فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة ، في واحد كان أو جماعة . والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه . وكل داع يدعو إلى مثله ، وهو مع ذلك ممكن له فلا يجوز ألا تقع شربة منه حتى يموت عطشا لتوفر الدواعي على ما بينا ، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه . فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة على القرآن لما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها"[2]

وواضح من كلام الرماني أن توفر دواعي معارضة العرب للقرآن قائم، ولكن امتنعوا عن معارضته عجزا ووهنا، مع أنهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم القدرة على معارضته و التمكن منه. والطريف في رأي الرماني في هذا الوجه من الإعجاز أنه ارتكز على المنطق العقلي على طريقة المعتزلة في المجادلة والمساءلة العقلية، ولعل اعتماد المنطق في مثل هذه المسائل أجدى، لأنه من الأمور الثابتة في العقول والقائمة في النفوس، فكيف يعقل أن يترك الضمآن شربة روية مع شدة حاجته إليها؟ لولا العجز والقصور عن شرب الماء!.

ثم يتحدث الرمّاني عن الصرفة بعد أن عرض لوجه التحدي للكافة، قائلا: "وأما الصّرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن

---

[1] – النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص75.

[2] – المصدر نفسه، ص109.

المعارضة، وذلك خارج عن العادة لخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول"[1].

والمتأمل في بيان وجوه الإعجاز القرآني يجد أنه يقوم على ثلاثة أصول وهي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة والصرفة والبلاغة، وأما بقية الوجوه الأخرى فهي فروع عنها وتبع لها.

وبعد جهود الرمّاني المتميزة في إعجاز القرآن البلاغي نجد الخطابي صاحب كتاب "البيان في إعجاز القرآن" وهو من العلماء الذين جمعوا بين الكلام في البلاغة وعلم الكلام وقد بدأ كتابه بقوله:

"قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد عن ريّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته"[2].

ثم عرض للأقوال التي قيلت قبله في وجوه الإعجاز، وبدأ برأي القائلين بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه وعقب على هذا الوجه قائلا: " وهذا – من وجوه ما قيل فيه – أبينها دلالة وأيسرها مؤونة. وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه"[3].

ثم يناقش رأي القائلين بالصرفة معلقا عليه "وهذا أيضا وجه قريب إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا". فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم"[4].

ثم عرض لرأي الطائفة التي زعمت أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، وصدّقت أقوالها مواقع أكوانها. ثم نقده بقوله "ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن

---

[1] – النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص110.

[2] – البيان في إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص21.

[3] – المصدر نفسه، ص22.

[4] – المصدر نفسه، ص 23.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ من غير تعيين، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه"[1].

ثم ذكر الخطابي رأي الذين قالوا بإعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر وعاب عليهم اعتمادهم على التقليد دون التحقيق له وإحاطة العلم به ثم نقد الخطابي هذا الرأي قائلا: "وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفى من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام، ..."[2]

وبعد أن ذكر الأقسام الثلاثة للكلام الفاضل المحمود يقرر أن بلاغات القرآن قد حازت من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة "فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة" وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبّو كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، ... وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور:

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وأوضاعها، ولا تدرك التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض...

و اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء: بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ..."[3]

ثم ذكر أقوال المعاندين للقرآن، لما عجزوا عن معارضته، وقال "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، ... فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يئودهم ويتصعدهم منه، ..."[4].

---

[1] – البيان في إعجاز القرآن، الخطابي، ص23، 24.

[2] – المصدر نفسه 24، 25.

[3] – المصدر نفسه، ص26، 27، 28.

[4] – المصدر نفسه، ص29، 35.

ويفند الخطابي بعض ما أورده المعترضون من شبه ضد القرآن ويفصل القول في تـأويل بعـض الآيـات ويحلّلها تحليلا رائعا يدل على ذوقه في البيان وحسن فهمه لمواضع الحسـن في الكـلام، ثـم يخلـص في آخـر رسالته قائلا "إن في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحـادهم، وذلـك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا، إذ قرع السمع خلـص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه،..."[1]

والناظر في تصور الخطابي لمسألة الإعجاز يلقى أنه أومأ إلى عناصر الجمال في الكلام البليغ ولعل أهم ما يلفت الانتباه في وجه الإعجاز الذي ذهب إليه الناس - عنصر تأثير القرآن في القلـوب والنفـوس، ولعـل مصدر البلاغة في الكلام التأثير الوجداني المطلوب وهكذا يتقدم الخطابي خطوة جليلة في مسألة الإعجـاز عـن الرماني لأنه عرض لمختلف الأقوال التي قيلت في وجوه الإعجاز بالتفصيل ونقدها وأبـرز عيوبـها وهـو العمـل الذي لم يقم به الرماني، بل اكتفى بذكر مذاهب العلماء في مسألة الإعجاز دون تمحيص أو تدقيق.

وبعد أن اشتد الصراع بين الفـرق الكلاميـة والمذاهـب الفلسـفية في قضيـة الإعجـاز ظـهر البـاقلاني (403هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" ليردّ ردًا عنيفا على من عللوا الإعجاز القرآني بالصرفة وتعـرض لكثـير مـن المعارضين والمخالفين. ولعل فضل الباقلاني يعود أساسًا إلى القيمة العلمية لكتابه. الذي يمثل الحلقة المركزيـة في سلسلة الدراسات التي تناولت قضية الإعجاز، كما تتجلى المكانة المعرفية لهذا الرجل في كونه استطاع أن يخرج فكرة الإعجاز من المجال النظري إلى المجال التطبيقي بحيث عرض لنقطة علمية في منهج الكشف عن الإعجاز القرآني تلك هي **كيف يوقف على إعجاز القرآن؟**

إن قضايا هذا الكتاب "إعجاز القرآن" ومسلماته الفكرية وإشكالياته التي أثارها ثم أجـاب عنـها مـا تزال حتى الآن تحتفظ بنفس القوة، وتلقى نفس القبول والاحترام في مجال الدراسات القرآنيـة المعـاصرة علـى الرغم من التغير الهام الذي أصاب قضية الإعجاز القرآني وأسسها التي بنيت عليها قديما. فنتائج علم اللغة الحديث والنقد الأدبي المعاصر والمنهج الحديث في تفسير القرآن القائم على الربط بين آيـات القـرآن، وخـبرة الإنسان عن الكون والمجتمع والتأريخ.. كلها عوامل متظـافرة تتـابعت علـى إنقـاذ أهميـة الأفكـار الـواردة في الكتاب. والتي مضى عليها ما يزيد عن عشرة قرون.

ونقول هذا لإدراكنا مدى ارتباط إعجاز القرآن بالمعرفة ارتباطـا تامـا، والمعرفـة هنـا ليسـت الإحاطـة بعلوم اللغة وطرق البيان فقط، وإنما معرفة الإنسان بنفسه ولغته والعـالم الـذي يحيـط بـه لـذا فالتغـير الـذي أصاب مسائل الإعجاز وقضاياه، لم يكن إلا بحجم التغير الذي يصيب معرفتنا بمجالات أخرى.

---

[1] – البيان في إعجاز القرآن، الخطابي، ص70.

وهذا في الحقيقة المنهج الضمني الذي سار عليه الباقلاني وتقبله في مواضع من كتابه لم تكن منافية له تماما ولكن دون أن يكون وفيا له تمامًا.

وهو أنه للوقوف على الإعجاز القرآني ينبغي الإحاطة بجميع أشكال المعارف السائدة في زمانه.

ولا أدل على نجاح منهج الباقلاني وجدته في دراسة الإعجاز القرآني جملة وتفصيلاً من النواحي الكلامية، والبلاغية، والنقدية من اقتفاء الدارسين المحدثين له، حيث اقتفاه في المنهج على سبيل الإجمال والتفصيل "الدكتور محمد عبد الله دراز" في كتابه "**النبأ العظيم**" يلمس ذلك أي قارئ، حتى من يستعرض فهرس الكتاب فحسب، مع فارق بسيط يمكن أن نذكره له إنصافا وتقديرا هو فارق الثقافة المعاصرة التي تلبس الأفكار جدة وحداثة.

هذا ما سنعرفه بعد أن نوازن بين محاولتيهما اللتين قاما بها خدمة للقرآن الكريم.

وبعد جهود الباقلاني في مجال الدرس البلاغي يظهر عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز وهو يمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الجهود السابقة عليه في مجال النقد والنحو والبلاغة، كما يمثل دلائل الإعجاز نقلة نوعية ومحاولة علمية جادة في مجال دراسة الإعجاز القرآني،إذ استطاع من خلال عرض نظريته عرضا وافيا متأثرا بمذهب الأشعري الذي كان له عمق الأثر في بناء أصول نظريته وإرساء دعائمها، ونظرا لعظم شأن الرجل ومكانته العلمية في ملامسة بعض أسرار تفوّق الكلام الإلهي ومخالفته لكل نظم معهود من كلام العرب فإننا نرى ضرورة تلخيص نظرية النظم.

لقد عرض الجرجاني لوجوه تركيب الكلام وفق مقتضيات النحو وأحكامه، بغية استنباط الفروق بينها فهو يقول" واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها،وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها..."[1] ومعنى هذا القول هو "الاهتمام بإدراك الفروق الفنية الدقيقة التي تتجلى في الاستعمالات المختلفة للتركيب النحوي، فكل استخدام له قيمته في إبراز القيم الجمالية التي يحفل بها النص البليغ، فالجملة الإنشائية غير الخبرية و الاسمية غير الفعلية والوصل غير الفصل والتقديم غير التأخير والذكر غير الحذف،

---

[1] – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص64.

فكل تصرف في تركيب الجملة و كل استخدام لوحداتها البنائية له معناه الخاص في إثراء السياق اللغوي وتحقيق رسالة البليغ في الإفادة والإمتاع"[1]

ومن هنا يتجلى لنا بوضوح أن مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني يقوم على إدراك الإمكانات التعبيرية المختلفة وصورها المتنوعة في تشكيل النسيج اللغوي للعبارة القرآنية، ووضع الكلام الذي يقتضيه علم النحو، كما يقول الجرجاني يرتكز أساسا على معرفة الفروق المعنوية الدقيقة بين التراكيب النحوية وفقا لإمكانات صور الإسناد الكثيرة ومن ثم "استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يدرك بغيته في التوفيق بين الشكل المادي للصياغة والجانب العقلي للمعنى عن طريق الاستعانة بالنحو التقليدي مع تحويله إلى إمكانات إبداعية، بالنظر إلى الصورة النحوية الظاهرة ومسبباتها الدلالية"[2] ولقد كانت الفكرة الجوهرية التي شغلت عقل الجرجاني هي قضية اللفظ والمعنى وإلى أيهما يرجع الفضل والمزية في بناء العبارة القرآنية وصياغتها.

ولا شك أن هذه المعضلة هي التي حركت أقلام المتكلمين المتقدمين بدءا من الجاحظ منطلقين في أبحاثهم الكلامية والمذهبية من البحث عن حل لهذه المسألة العصبية التي عولجت من منظورات متعددة لدرجة الاستهلاك، ولم تجد مخرجا نظرا لطبيعة الجدل والمراء الذي وسم دراستهم.

ومن هنا آثر الجرجاني أن يرسي قواعد نظريته الأسلوبية استنادا إلى النحو التقليدي قصد إبراز الخصائص الفارقة بين كلامه تعالى الخارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب وكلام البشر.

ولهذا فإن عبد القاهر الجرجاني - على خلاف علماء الأسلوبية طرح السؤال بتعبير أدق: فيم يكمن وجه المغايرة والمباينة بين كلام الله تعالى وكلام البشر؟ ولإدراك هذه المباينة بين الأسلوبين ركز الجرجاني على المنهج الوصفي قصد استجلاء صور نمطية من التراكيب اللغوية وذلك لغرض إبراز الجانب العقلي للمعنى، محاولا الجمع بين طرفي العبارة الأدبية يعني بين جانبها الشكلي المادي المحسوس وجانبها المعنوي اللامحسوس مسترشدا بالنحو التقليدي وقوانينه ومن ثم فإنه "بالنظر إلى المنحى الفكري الذي تحرك الجرجاني وفقا له تبين أن الرجل واجه إشكالية تبدو معقدة بعض الشيء، إذ كان أمامه مستويان عليه أن يتحرك بينهما، وأن يوفق بين متناقضاتهما ؟ فهو بين كلام لفظي منطوق يمكن ملاحظته ونشاط عقلي لا يمكن ملاحظته ؛أي أنه كان يسعى للجمع بين النقيضين، وبرغم أن الكلام اللفظي لم يكن يهمه في حد

---

[1] - دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، عبد الفتاح عثمان، جريدة "الجزائر اليوم" العدد 370، الثلاثاء 24 ذو الحجة 1413 هـ الموافق لـ 15 جوان 1993م، ص7.

[2] - النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، محمد عبد المطلب مجلة "فصول"، العدد الأول المجلد الخامس، القاهرة، 1984م، ص 28.

ذاته، فإنه الشيء الوحيد الذي يمكن ملاحظته، ومن هنا آثر الجرجاني توجيه دراسته إلى ما بين مفردات اللغة من علاقات بوصفها مجسدة للنشاط العقلي ومصورة له، وهذه العلاقات ليست سوى إمكانات النحو التركيبية"[1].

وبعد أن أوجزنا مفهوم النظم يمكن تلخيص آرائه كما يلي[2]:

1- لا يقوم إعجاز القرآن في رأيه على الأغراض الأدبية المقصودة في وضع الكلام من حيث معانيها العامة... بل بالصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير والجمال في الأداء وحسن العرض للمعنى...

2- يذكر عبد القاهر الجرجاني أن النبي - ص- قد تحدى العرب الذين عرفوا المقصود من هذا التحدي ولكنهم عجزوا عنه.

3- ليس الإعجاز بمعاني الكلمات المفردة وإنما هو باجتماعها منظومة لتؤدي معنى شاملا كما قلنا وليس كذلك في الموازنة بين كلمات وكلمات القرآن حركة وسكونا وإلا كان مسيلمة قد قلد القرآن.

4- ليس إعجاز القرآن في مراعاة القواطع والفواصل، فليس ذلك بأصعب من مراعاة الوزن والقافية في الشعر.

5- يشنّع على القائلين بالصرفة وينقض رأيهم بأنه إذا كان الأمر كذلك فلماذا بهرهم القرآن إذن؟

6- لا يمكن أن يكون الإعجاز في الاستعارة أو فيما يتعلق بالبديع، لأنها ليست موجودة في كل آيات القرآن، وهو يسير في هذا على غرار القاضي الباقلاني.

7- إنما كانت معجزة النبي - ص - بلاغة القرآن، لأن معجزة كل نبي كانت في الناحية التي اشتهر بها قومه.

8- ينكر أن يكون القرآن معجزا لمجرد كونه كلام الله.

9- لا ينكر في موضع من كتابه شأن خفة الحروف في النطق في فضيلة الكلام وإنما ينكر أن تجعل وحدها سبيلا إلى الإعجاز.

10- يؤمن بأن عمدة إدراك البلاغة في النظم والإعجاز فيه هو الذوق والإحساس الروحي وكثرة الإطلاع على كلام العرب.

---

(1) - النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، مجلة "فصول" العدد الأول، المجلد الخامس، 1984م، ص28.

(2) - فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي: ص 86..89.

والمتأمل في المحاور الكبرى والدعائم الأساسية التي قامت عليها نظرية النظم[1] يجد أن الجرجاني استطاع أن يتصور موضوع الإعجاز جزءا من ظاهرة أوسع وأعمق وأشمل هي طريقة نظم البيان عامة وصياغته.

وقد يكون من المناسب في هذا المقام أن نشير إلى أن نظرية النظم حظيت باهتمام الباحثين على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم، ولعل سرّ هذا الاهتمام يعود أساسا إلى أن نظرية النظم تشكل إنجازا علميا خالدا ونقلة ناضجة في الدرس البلاغي والقرآني على حدّ سواء.

وخلاصة القول أن نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني تبقى آية شاهدة على عمق تفكير الجرجاني وقدرته الفائقة على امتصاص روافد التراث الثقافي من منطق ونحو ولغة فإليه يعود قصب السبق في إخراج الأبحاث القرآنية في قضية الإعجاز إلى الاحتكام إلى الذوق الفني الأصيل القائم على أسس لغوية مضبوطة. ونظرًا للقيمة العلمية والمعرفية لنظرية النظم فإنها وجدت من وسع من مجال تطبيقها وكان الزمخشري هو المطبق للنظرية في أغلب الأحوال. فقد استطاع أن يطبق نظرية النظم أحسن تطبيق ومثّلها التمثيل الأوفى، وتتجلى الجهود اللغوية والبلاغية للزمخشري من خلال تفسيره الكشاف. وتعد مقاربته للنص القرآني من أحسن المحاولات إبرازا للجوانب الفنية للقرآن.

وقد اعترف له غير واحد من الباحثين بقصب السبق وسعة الذرع وأشادوا بقدرته التحليلية وحسه البياني الرفيع. يقول مصطفى الصاوي الجويني في معرض حديثه عن القيمة العلمية لتفسير الزمخشري، "لقد اندثرت آثار المتكلمين في التفسير وبقي أثر تفسيري واحد كامل هو تفسير الكشاف للزمخشري الذي يمثل.

---

[1] – لمزيد من التوسع في استقصاء آراء الباحثين في موضوع القيمة العلمية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في ضوء الدراسات الحديثة ينظر: نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، ص15، 29، 30، 50، دار الأندلس، ط.ن.ت، بيروت. ينظر مدخل إلى علم الأسلوب، شكري محمد عياد، ص59، ط1، دار العلوم للطباعة والنشر، رياض م.ع. السعودية، 1982م. ينظر البلاغة العربية والبلاغيون، عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم، عبد القادر حسين؛ مجلة الفكر العربي، العدد السادس والأربعون، السنة الثامنة، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، حزيران (يونيو) 1987م، ص152، 153. ينظر البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص272، 313، 358، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1965م. ينظر في تاريخ البلاغة العربية، علم المعاني، عبد العزيز عتيق، ص268، ط دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1974م. ينظر عن الصيغة الإنسانية للدلالة، مصطفى ناصف، مجلة "فصول" ع2، م6، القاهرة، 1986م، هامش ص96، 97.

أصدق تمثيل منزع المتكلمين في تفسيرهم للقرآن ويعالج إعجاز القرآن على نحو لم نألفه في تفسير من التفاسير التي بين أيدينا اليوم"[1].

ومما يعدّ سمة متفردة في تفسير الزمخشري إهتمامه بالجوانب اللغوية والبيانية وابراز ظلال الكلمات وإيحاءاتها فهو "تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز في غير ما آية من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآني وبلاغته، وليس كالزمخشري من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم"[2].

إن جهود الزمخشري في مجال الدرس اللغوي والبلاغي جهود متميزة في الاستنطاق الأسلوبي للقرآن وخطوة لها من الخصوصية والتفرد ما لا يخفى على باحث منصف بحيث "إن تفسير الزمخشري يعد أفضل نموذج للتأويل والاجتهاد والرأي، وقد فتح الباب أمام ما ظهر في عصرنا الراهن من اتجاه إلى تفسير القرآن تفسيرًا بيانيا، ومن اتجاه إلى تفسير القرآن بالقرآن. فهو تفسير له تميزه، وله قدرته على الإحاء والتأثير"[3].

أما خلاصة رأيه في مسألة الإعجاز فهي أنه "يبني فكرة الإعجاز في الكشاف على خصائص الكلمات والنظم في التعبير ويوافق رأي الجرجاني قليلا، فالإعجاز عنده قائم على المعاني من تعريف وتنكير وتقديم وتأخير ثم على ما يتصل بعلم البيان"[4].

وبعد كل هذه الجهود الجبارة والمتميزة في بحث مسألة الإعجاز القرآني عند القدماء لا يزال الدرس البلاغي في مسيس الحاجة إلى عمل علمي كامل يمكن من الوصول إلى حقيقة الإعجاز.

والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هي "أن المتكلمين بصفة عامة وخاصة المعتزلة قد ساهموا مساهمة كبيرة في تأصيل الدرس البلاغي، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى أن الجدل الذي كان قائما بينهم وبين أعداء الإسلام يتطلب منهم الافتنان في أساليب القول، ويتطلب منهم امتلاك قدرة بلاغية عالية تمكنهم من إبطال ورد كل الشبهات التي أوردها المتشككون والطاعنون في القرآن الكريم، خاصة فيما يتعلق بإعجازه البياني، وكذلك في الآيات المتشابهات التي قد يوهم ظاهرها أن فيها تناقضا.

---

[1] – منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، ص16، من تمهيد الكتاب ينظر نفسه، ص215، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1959م.

[2] – التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، الجزء الأول، ص407، ط4، مكتبة وهبه، 1988م.

[3] – نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، عز الدين إسماعيل، ص76، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.

[4] – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص 92، 93.

ومن ثم كان دور أصحاب الدراسات القرآنية عامة والإعجاز البياني خاصة فعالا في بناء صرح علوم البلاغة عاليا، فوجد المتأخرون السبيل ممهدا أمامهم فكان عملهم عبارة عن جمع وتنسيق وترتيب لفصولها المبثوثة في ثنايا كتب المتقدمين"[1].

تناولنا جانبا من الإعجاز القرآني في مقاربات المتقدمين، ولكي يتم ضبط تصور عام لفكرة الإعجاز نحاول عرض قضية الدرس البلاغي للقرآن في الكتابات الحديثة.

فمن طلائع الدرس الإعجازي الحديث نجد كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" للرافعي الذي عرض فيه لشتى المذاهب والآراء التي قيلت في مسألة الإعجاز ونقدها وبعد أن تحدث عن أسلوب القرآن خلص إلى أن "القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعًا إنسانيا البتة ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيما عند ذلك بد في طريقته ونسقه ومعانيه "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[2] والقرآن في رأي الرافعي معجز أيضا من جهات ثلاث: في الحروف والكلمات والجمل، يقول في إبراز القيمة التعبيرية للحروف وأصواتها "وحسبك بهذا اعتبار في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة والتفخيم والترقيق والتفشي والتكرير..."[3].

ويقول الرافعي في مزية الكلمات وحروفها "والكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة قد لحظته النفس فيها من أصل الوضع حين فصلت الكلمة على هذا التركيب"[4] وينتهي الرافعي إلى الجهة الثالثة من جهات النظم وهي جهة الجمل وكلماتها ويعني بالجملة "مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي إذ يحيل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصورها في نفسه أو تصفها ترى النفس هذه المادة المصورة وتحسها[5].

---

(1) – الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رابح دوب، ص400، رسالة دكتوراه، سنة 1994م.

(2) – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص203، مكتبة رحاب، الجزائر.

(3) – المرجع نفسه، ص215.

(4) – المرجع نفسه، ص220.

(5) – المرجع نفسه، ص236.

وخلاصة رأيه أن القرآن معجز:

1 – بهذه الموسيقى التي فيه.

2 – بهذه الروح المستشفة من نظم القرآن، والتي تخاطب الروح، وهي ليست ألفاظا ذات معنى فقط بل هي حياة تضطرم وهي خلق روحي...

3 – خلوّ القرآن من الألفاظ التي تكون كمتكأ، وهذا المتكأ يشاهد في كلام البلغاء وهو يرى أن كلمات القرآن كلها ضرورية في تأدية المعاني التي يريدها.

4 – في اشتمال القرآن على مبادئ العلوم، وعلى كثير من المخترعات والنظرات العلمية الحديثة[1] والملاحظ على الجهات التي أقام عليها الرافعي تصوره لمسألة الإعجاز، أنها قاصرة عن ملامسة حقيقة الإعجاز، كما أنها لا تفي في بيان طبيعته الجوهرية لأن كلام البشر لا يخلو من هذه المواصفات.

ومن المحاولات الجادة التي حاولت ملامسة قضية الإعجاز القرآني نجد جهود سيد قطب من خلال تفسيره "في ظلال القرآن" وكتابيه "التصوير الفني في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" بحيث بلغ سيد قطب من خلال هذه الكتابات مبلغا عظيما في مجال البحث البياني "ولعل الغاية التي انتهى إليها سيد قطب من فهم الأسلوب القرآني أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن، لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله..."[2].

فهو من خير من كتب في موضوعات القرآن في هذا العصر "ولم يؤلف كتابا خاصا في الإعجاز ولم يتكلم عليه صراحة في كتابيه "التصوير الفني في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" ولكن قارئ الكتابين يشعر بأنه يؤمن بالإعجاز إيمانا عميقا، ويبين بالأمثلة التي يأتي بها من القرآن سحره الفني الذي يرادف في حقيقة الأمر إعجازه البياني"[3] تعتبر النظرية التصويرية لسيد قطب هي عمدته في مبدأ الإعجاز على جلالة قدرها وعلو مقامها.

ومن خير من كتب في قضية الإعجاز البياني في العصر الحديث نجد سماحة الأستاذ العلامة الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" الذي يعد من أعظم تفاسير القرآن الكريم اكتشافا لأسلوب القرآن وبلاغته وقد خصص الطاهر بن عاشور في الجزء الأول من تفسيره في المقدمة العاشرة فصلا في

---

(1) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمص، ص333.

(2) – مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص317، 320، ط10، دار العلم للملايين، بيروت آب، 1977م.

(3) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمص، ص343.

إعجاز القرآن، استهله بالحديث عن اختلاف العلماء في تعليل عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن وقد خلص إلى رأيه الشخصي قائلا: "وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أيمة الأشعرية وإمام الحرمين وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في المواقف، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة"[1] وبعد أن بين أن تفصيل وجوه الإعجاز، مما لا يحصره المتأمل ضبط معاقدها أرجعها إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتًا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عيّاض.

والطريف في تفسير التحرير والتنوير هو أن صاحبه يحاول في استنطاقه للآيات القرآنية أن يبرز لطائفها البلاغية ومقاصدها الأسلوبية...

ومن خير من كتب في قضية الإعجاز في العصر الحديث نجد سماحة الدكتور عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن الكريم الذي يعد من أحسن ما ألف في الدراسات القرآنية، وهي دراسة علمية نظرية تطبيقية تشكل - في نظرنا - الوعي اللغوي المتكامل الذي وصلت إليه العقلية العربية والإسلامية الحديثة في مجال دراسة النص القرآني أسلوبيا يقوم الكتاب أساسًا على دراسة استكشافية في التراث العربي الإسلامي. تعرّض الباحث من خلاله لبعض المعضلات في علوم القرآن، فقد ناقش منهج القدماء - الباقلاني - و أتبعه في تناول النص القرآني: بوصفه نصا لغويا ورسالة تعبيرية قائمة بذاتها، إذ البحث عن مفهوم النص القرآني في رأيه انطلاقا من التراث يعد بحثا في حقيقة الإعجاز وماهيته وطبيعته.

---

[1] - تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الجزء الأول، المقدمة العاشرة، ص103، 104، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

إن دراسة الدكتور دراز تندرج ضمن التصور النظري والتطبيقي للإعجاز القرآني ولهذا السبب نجد كتابه أقرب إلى الدراسة التطبيقية إذ معالجته لبعض الآيات والسور بيانيا تعد تدعيما لأطروحته النظرية، كما أن محاولته هذه - على علو مكانتها العلمية تحتاج إلى دراسة علمية لما فيها من أسرار الإعجاز القرآني البياني.

إن الدرس البياني للقرآن الكريم في الكتابات الحديثة تطور تطورًا ملموسًا وخطا خطوات عملاقة بحيث "أصبحت النظرة الجامعة إلى النص عامة وسيلة المؤلف ومال المحدثون إلى الشعور بعدم جدوى الوقوف عند العبارة وحدها كما فعل الأقدمون مما قد لا يناسب من يحتفظون بذوق العربية الفطري، وتركزت جهودهم في مباحث الإعجاز على ما يكشف عن إمكانات النص النفسية، وما يشتمل عليه من قيم إنسانية تتخطى حدود العصر وبيئته اللغوية"[1].

إن ثراء النص القرآني وتنوع دلالاته فرض على الدكتور دراز مقاربته بطرق متجددة سعت لإدراكه تميز أسلوب القرآن الكريم وتباينه عن أسلوب البشر، ولعلّ منفذه الوحيد في استكناه جماله وتذوق حلاوته هو الانطلاق من بلاغته بوصفها وسيلة لمعرفة الإعجاز البياني والأداة الفعالة في استكشاف حقيقته ومصدره.

أما خلاصة رأيه في مسألة الإعجاز هي "قوله" لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات وفي نبؤاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات فلعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزة"[2].

لقد خص بالذكر في هذه الخلاصة الجامعة المانعة ترتيب آية في كل سورة، وفق وحدة موضوعية منسجمة منطقية منسقة وهو ما أبدع من أجله هذا المؤلف كله "النبأ العظيم".

وتحاول دراستنا للإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز "دراسة موازنة" أن تجيب عن الأسئلة التالية: ما هي الأسس والمنطلقات التي تدعم موقف الباقلاني في تأليفه لهذا الكتاب؟ وما المنهج الذي اعتمده في ذلك؟ وما مدى تناوله مسألة الإعجاز البياني في ضوء الدراسات القديمة؟ وما مدى تطبيق منهج الباقلاني على نظم القرآن وأسلوبه؟

---

(1) - اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، محمد إبراهيم الشريف، ص554، ط1، دار التراث، القاهرة، 1982م.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص211، ط7، دار القلم، 1413هـ - 1993م.

وما هي الأسس والمنطلقات التي تدعم موقف الدكتور دراز في تأليفه لهذا الكتاب؟

وما المنهج الذي اعتمده في ذلك؟ وما مدى تناوله مسألة الإعجاز البياني في ضوء الدراسات الحديثة؟ وما مدى تطبيق منهج عبد الله دراز على نظم القرآن وأسلوبه؟

إن رؤيتنا التحليلية تشير إلى دراسة خاصة في ظل الدراسات القرآنية وذلك بالارتكاز على منهج الموازنة محاولين بهذا الجهد المتواضع الكشف عن مدى توسيع آفاق الإعجاز البياني للقرآن الكريم انطلاقا من تطوير آليات التفكير البلاغي القديم؟ ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا وضعنا هذه الدراسة ضمن علاقتها بالدراسات القرآنية قديما وحديثا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

الباقلاني ومنهجه في كتاب إعجاز القرآن

- نبذة عن حياته
- منهجه في كتاب إعجاز القرآن
  - مرحلة التمهيد
  - مرحلة التفنيد
  - مرحلة التحديد
  - مرحلة التأييد والإثبات
- نقد وتقييم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نبذة عن حياته:

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر القاضي الباقلاني البصري المتكلم الفقيه الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث.[1] الباقلاني نسبة إلى الباقلي وبيعه، والبصري لأنه نشأ في البصرة وقضى فيها فترة شبابه قبل أن يهاجر منها إلى بغداد ليقيم فيها بقية حياته، والمتكلم لأنه اتجه إلى علم الكلام نظرا لكثرة الملحدين في العراق في القرن الرابع الهجري، وظهور مذهب أبي الحسن الأشعري ودفاعه عن آرائه، وجداله الشديد للمعتزلة وأنصارهم يقولون: إنه كان أعرف الناس بعلم الكلام، وأحسنهم خاطرا، وأجودهم لسانا، وأوضحهم بيانا، وأصحهم عبارة، وله في كتب الكلام آراء كثيرة يعتد بها.

والفقيه لأنه كان من كبار فقهاء المذهب المالكي، ويعد الباقلاني فيلسوف المذهب الأشعري الذي بلور آراءه، ونفذّ تعاليمه يقول ابن تيمية: "إنه أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري وليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده"[2].

"عمل على نصرة المذهب، وصار إماماً له بعد أن تناوله بالتهذيب ووضع لمسائل العلم المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأن العرض لا يبقى زمانين، وجعل هذه القواعد تبعا للعقائد الدينية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الأدلة – في رأيه– عليها، ولأن بطلان الدليل يؤذن – فيما يقول ببطلان المدلول"[3].

وتتحدث المصادر كثيرا عن ذكاء الباقلاني، وقوة لسنه وحجته، وسرعة بديهته واقحامه للخصوم. "وقد حدث أن ابن المعلم شيخ الرافضه ومتكلمها حضر بعض مجالس النظر مع أصحاب له إذ أقبل القاضي أبو بكر الأشعري فالتفت ابن المعلم إلى أصحابه وقال لهم: "قد جاءكم الشيطان فسمع القاضي كلامهم وكان

---

(1) – رجعنا إلى ترجمة الباقلاني في: مقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن التي كتبها الأستاذ عماد الدين أحمد حيدر، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1411هـ – 1991م. ومقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن للأستاذ أحمد صقر – دار المعارف مصر، ط3، – لم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته – والقسم الأول من كتاب الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف.دار مكتبة الحياة، بيروت 1978م.

(2) – شذرات الذهب، لابن العماد، جـ3 ص 169 طبعة القدسي، 1350 هـ.

(3) – مقدمة ابن خلدون، جـ1، ص369، دار العودة بيروت 1981م.

بعيدا من القوم فلما جلس أقبل على ابن المعلم وأصحابه وقال لهم: قال الله تعالى "أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا"[1] أي إن كنت شيطانا فأنتم كفار وقد أرسلت إليكم"[2].

والباقلاني كان في علمه فريد عصره، وانتهت إليه الريادة في مذهبه وكان صاحب مكانة مرموقة على المستوى العلمي والرسمي. "تلمذ الباقلاني على مجموعة من العلماء كان لهم أكبر الأثر في تغذية عقليته، وصقل موهبته وتنوع اهتماماته العلمية منهم ابن مجاهد الطائي صاحب الأشعري. وعنه أخذ علم الكلام والفقه المالكي وأصوله -علم النظر-"[3]. "وسمع الحديث من أبي بكر بن مالك والقطيعي، وأبي محمد بن ماسي، وابي أحمد الحسين بن على النيسابوري وغيرهم من أعلام القرن الرابع الهجري في الدين والشريعة"[4].

لقد روى كثير من المترجمين أن عقلية الباقلاني انتجت مجموعة كثيرة من الكتب الدينية ذات الصبغة الكلامية، والتي تتناول الرد على المخالفين والملحدين والمتفلسفين يقولون أنه صنف سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدين كل ليلة خمسة وثلاثين ورقة، كل ذلك إظهارًا لعلم الرجل وإبرازاً لمكانته الدينية والعلمية، بيد أن أشهر كتبه على الإطلاق هو كتابه "إعجاز القرآن" الذي حدد فيه مفهومه للإعجاز القرآني وقد طبع هذا الكتاب مراراً في القاهرة.

ويروى أن له كتابا في "الملل والنحل" وكتابا آخر ذكره صاحب كشف الظنون واسمه "هداية المسترشدين في الكلام" كما ذكرت المصادر له "كتاب الإنتصار" و "كتاب التمهيد" في الرد على الملحدة والرافضة والخوارج فكان أكثر ما صنفه في الرد على الفرق المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة كما يقول ابن العماد في الشذرات أنه صنف تصانيف واسعة في الرد على الفرق الضالة.

مات القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة 403 هـ -رحمه الله-.

انظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحويه من الصلف
وانظر إلى صارم الاسلام مغتمدا ... وانظر إلى درة الإسلام في الصدق [5]

---

[1] - مريم 84.

[2] - تاريخ بغداد للخطيب، جـ5، ص 379، طبعة بيروت. (دت)

[3] - شذرات الذهب، لإبن عماد، جـ3، ص169.

[4] - تاريخ بغداد، للخطيب، جـ5، ص 379.

[5] - مقدمة تحقيق إعجاز القرآن، السيد عماد الدين أحمد حيدر.

منهجه في كتاب إعجاز القرآن:

لقد اعتبر الباقلاني تأليفه لهذا الكتاب واجبا دينيا في المرتبة الأولى. إلى جانب كونه واجبا علميا. لذلك لم يدخر وسعا، وهو بصدد تحليلاته. من أن يعمق البحث. ويكثر من المناقشة. ويتطرق إلى الكثير من المسائل التي تهمه وتهم الناس. وفي الوقت نفسه تردّ على مظان الظانين. وتبطل أقوال الطاعنين.

حدد الباقلاني في فاتحة[1] كتابه منهجه في البحث. وغايته منه بأنه يرمي من وراء ذلك إلى عدة أمور:

- كشف ماكان لأصل الدين قواما ولقاعدة التوحيد عماداً ونظاماً.

- وإثبات أن ماجاء به النبي-صلى الله عليه وسلم- صدقًا وبرهانا. ولمعجزته ثبتا وحجة. للرد على ما طعن فيه الطاعنون والملحدون حول أصول الدين.

- ثم نفى كل ما تقوّله المتقولون عن معادلة القرآن وموازنته بالشعر اعتمادا على ما توارثوه من أقوال ملحدة قريش وغيرهم.

فإذا ما انتهى من تحديد منهجه وعناصر بحثه. انتقل إلى تفصيل دقائقها حتى يمكنه إحكام القول في هذا الشأن. لذلك قسم الباقلاني بحثه في إعجاز القرآن. إلى أربع مراحل أساسية. كل مرحلة توصل إلى ما بعدها وترتبط بها. حتى يتسم عمله بطابع الوضوح. والتكامل الموضوعي والعلمي في آن واحد.

1- مرحلة التمهيد.

2- مرحلة التفنيد.

3- مرحلة التحديد.

4- مرحلة التأييد.

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص25.

مرحلة التمهيد:

جعل الباقلاني هدفه تنشيط الهمم وتحفيزها على تدارك كتاب الله ثم الدفاع عنه وردّكل ما أذيع حوله من أباطيل وأكاذيب، ثم التعريض بما ألف حول إعجاز القرآن، وخالف ما عليه أهل السلف عامة.

لقد رأيناه يصدّر كتابه بمقدمة تمهيدية، يحث فيها المسلمين على تدارك كتاب ربهم، وفهم مضمونه ومشموله للوقوف في وجه الملحدين والمضللين الذين خاضوا في أصول الدين وشككوا ضعاف الإيمان واليقين، واتخذ سبيلا لذلك - إبراز أهمية القرآن الكريم من حيث هو كتاب الله، ومن حيث هو حجة النبوّة، ودليل على صدق الدعوة وصدق النبوّة.

وبدأ هذا الأمر بتحفيز أهل الدين على النهوض بواجبهم المقدس نحو الله والناس قال: "ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاما، وعلى صدق نبيهم -صلى الله عليه وسلم- برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة، ولاسيما أن الجهل ممدود الرواق شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى عناء ودروس، وعلى خفاء وطموس، وأهله في جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه والأخذ في سبله، فإن الناس بين رجلين: ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين."[1]

ويتناول الباقلاني بعد ذلك ما أذاعه الملحدون والمغرضون حول القرآن من أباطيل و افتراءات سبق أن وردت على ألسنة مشركي قريش، منذ أن أنزل الله القرآن على قلب نبيه -صلى الله عليه وسلم- فنراه يسفه آراء هؤلاء الملحدين، ويصفهم بالجهل، والبعد عن الرشد ذلك أن مشركي مكة من قريش قد تابوا وأنابوا، وأنار الله بصائرهم وأبصارهم، فأسلموا ورجعوا عن غيهم، أما هؤلاء الملحدون فهم على جهلهم ونزقهم وتعصبهم الأعمى الذي لا يستند إلى دليل.

والباقلاني - وهو بصدد مواجهة هؤلاء الملحدين والمغرضين، يلقي اللوم على علماء العصر، خاصة من اشتغل منهم باللغة وعلم الكلام، ولم يلتفت إلى توضيح وجوه الإعجاز القرآني، والكشف عن أسرارها، ويحملهم تبعة من خلط في هذه المسائل، متأثرين ببعض مذاهب البراهمة، يقول: "وقد قصر بعضهم في هذه المسألة (أي مسألة إعجاز القرآن، حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها، ورأو أن

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 25، 26، بتصرف.

عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب ألا يستنصر فيها ولا وجه لها حين رأوهم قد برعوا في لطيف ما أبدعوا وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا، ثم رأو ما صنفوه في هذا المعنى غير كامل في بابه، ولا مستوفى في وجهه قد أخل بتهذيب طرقه، وأهمل ترتيب بيانه"[1].

بيد أنه يلتمس لبعضهم الأعذار، لأن البحث فيها، أي في مسائل الإعجاز ووجوهه لم يكن يتيسّر إلا لمن كدّ فكره وأعمل عقله، وأعدّ لهذه الرسالة نفسه " وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه، لأن هذا الباب مما يمكن إحكامه بعد التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ."[2]

وفي هذه المرحلة التمهيدية وقبل أن يبدأ في تنفيذ مخططه، وتوضيح المسائل التي ذكرها في مقدمته، يجد الباقلاني بدافع من غيرته على آراء السّلف، وإيمانه الراسخ بها أن يعرض بكتب الفرق الكلامية الأخرى، خاصة المعتزلة، وقد وجد بغيته في كتاب الجاحظ المعتزلي "نظم القرآن"[3] فوصفه بالقصور والسطحية، وعدم الموضوعية، وأنه لم يأت فيه بجديد، بل هو ناقل، مردّد لما قاله المتكلمون "وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا" لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله [4] ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى – يقصد الكشف عن وجوه الإعجاز القرآني وسرّها.

وواضح أن الباقلاني –السّلفي– متأثر في هذا القول بعقيدته، وبما قاله أصحابه الأشاعرة. وهنا يقف الباقلاني، ليذكر "جملة من القول جامعة تسقط الشبهات، تزيل الشكوك التي تعرض للجهال وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة"[5] .

فتناول مجموعة من القضايا العلمية الهامة التي تتصل بموضوع الإعجاز منها: "ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 27.

(2) – المصدر نفسه، ص27.

(3) – وهو من الكتب المفقودة.

(4) – يقصد أستاذه النظام الذي قال مقالته في مسألة الإعجاز وأرجعها إلى الصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن.

(5) –إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 28.

العرب في أصل الوضع، ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب، وغير ذلك من مجارى الخطاب وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصول ما يبين فيه التفاصح، وتقصد فيه البلاغة؛ لأن هذه الأمور يتعمّل لها في الأغلب ولا يتجوّز فيها. ثم من بعد هذا الكلام الدائر في محاوراتهم والتفاوت فيه أكثر لأن التعمل فيه أقل إلا من غزارة طبع، أو فطانة تصنّع وتكلّف، ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محلّ القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمل."[1]

ثم يستطرد الباقلاني كلامه ذاكراً أنه يعرف تماما أن هذه المسائل لا يستوعبها إلا من كد فكره، وأعمل عقله وكان هو أصلا" من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين، وإنما ضمّن الله عز وجل فيه البيان لمثل ما وصفناه، فقال: "كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءايَاتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[2] وقال: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[3] [4].

إذن فقد خص الباقلاني كتابه بالصفوة المختارة من الباحثين والمتأدبين والعلماء والمثقفين وليس للعامة؛ أو الجهال، وهذا هو محور بحث الرجل، إنه يخاطب فئة معينة من الواعين.

فإذا ما انتهى الباقلاني من هذه المرحلة التمهيدية، وبين هدفه ومبتغاه، انتقل إلى المرحلة التالية.

---

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 28.

[2] – فصلت، 3.

[3] – الزخرف، 3.

[4] –إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 29.

مرحلة التفنيد:

فقسم بحثه إلى فصول متوالية، كل فصل يرتبط بما بعده، ويوصل إليه أيضا، وفي الوقت نفسه يتصل بما قبله، تناول في كل فصل منها ناحية من النواحي التي وعد ببحثها، تمهيدا لإبراز وجوه الإعجاز القرآني.

فافتتح هذه الفصول، بفصل تحدث فيه عن نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن معجزتها القرآن فالرسول، وإن كان قد أيّد بعد ذلك بمعجزات جمة، لا يمكن إنكارها، إلا أن معجزة القرآن "كانت معجزة عامة عمّت الثّقلين -"الإنس والجن"- وبقيت بقاء العصرين -"الليل والنهار"- ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله وجه دلالته".

ويذكر الباقلاني أنه ما خصص هذا الفصل ولا ألفه إلا للرد على المتكلمين، وتفنيد مزاعمهم "لما حكي عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول، فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه، ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم"[1].

ويبين الباقلاني خطأ هذا الزعم، ويستدل على ذلك بأدلة من القرآن نفسه وبآيات بينات تثبت أن الله سبحانه وتعالى - حين ابتعث نبيه -صلى الله عليه وسلم-، جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليه، "فمن ذلك قوله تعالى "الٓرٰ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"[2] فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ولا تكون حجة إن لم يكن معجزة"[3].

ويرى الباقلاني أنه ما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة - مثل طه، كهيعص، حم - إلا وتدل على هذه المعجزة، بل إن كثيرا من السور إذا تؤمل - فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته، ويستشهد على ذلك بسورة المؤمن "غافر" ويحللها تحليلا دقيقا يبرز فيها أسرار الإعجاز. "ولا يترك الباقلاني إثبات أن نبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- مبنية على دلالة

---

(1) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص31.

(2) - إبراهيم: 01.

(3) - المصدر السابق،ص 32.

معجزة القرآن، دون أن يبين ويحدد وجه هذه الدلالة لذلك أعقب هذا الفصل بفصل في الدلالة على أن القرآن معجزة في ذاته."[1]

وقد اعتمد الباقلاني في تبيين وجه الدلالة على أصلين اثنين:

أولهما: إثبات أن "القرآن الذي هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف، هو الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة.

ودليل الباقلاني على ذلك، هو النقل المتواتر، الذي يقع عنده العلم الضروري به، وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره من لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يحتمل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها وتعدى إلى الملوك المعاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط، والحبش وغيرهم من ملوك الأرض"[2]

والأصل الثاني: هو التحدي الذي واجه العرب به ذلك "أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله وقرّعهم على ترك الإتيان به طول السنين التي وصفناها فلم يأتوا بذلك".[3]

ويستدل الباقلاني على صحة هذا الأصل بما تضمنه القرآن من آيات التحدي من مثل قوله تعالى: **"وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ"**[4]

فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منه، ودليلا على وحدانيته. ولقد كانت قضية التحدى مثار اهتمام الباقلاني، خاصة وهو بصدد الدفاع عن القرآن، فنراه يشبعها تحليلا وتدليلا إثباتا لصدق النبوة، وتدعيما لوجه الدلالة،وردًا على الملحدين والمتكلمين عامة، والمعتزلة خاصة، الذين أثاروا قضية "الصرفة".[1]

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 39.

(2) – المصدر نفسه، ص 39.

(3) – المصدر نفسه، ص 40.

(4) – البقرة: 23،24، ومن آيات التحدي، يونس: 38، والطور: 33،34.

(1) – راجع في هذا كتاب القرآن المعجزة الكبرى، الإمام محمد أبو زهرة، ص 75، 86، دار الفكر العربي.

فإذا ما أثبت الباقلاني معجزة النبوة، وإذا ما أصّل الأصول التي اعتمدها في بيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز في ذاته، انتقل الباقلاني إلى صلب موضوعه وهو تحديد وجوه إعجاز القرآن وهنا تبدأ المرحلة الثالثة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مرحلة التحديد:

بعد أن اجتاز مرحلتي التمهيد، والتفنيد يقرر الباقلاني في الفصل الثالث من كتابه " إعجاز القرآن" أن هذا الإعجاز إنما يرد إلى ثلاثة أوجه:

1 – تضمنه الإخبار عن الغيوب.

2 – وما فيه من القصص الديني، وسير الأنبياء مما روته الكتب السماوية مع أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– كان أميا لا يقرأ ولا يكتب.

3 – ثم بلاغته.

فأما الوجه الأول : فقد استدل عليه بما وعد الله تعالى نبيه –عليه الصلاة والسلام– "أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: "هُوَ الذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ"[1] ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح، وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يفعل كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه"[2].

وأما الوجه الثاني : "فإنه كان معلوما من حال النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتي بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم –عليه السلام– إلى حين مبعثه"[3].

وأما الوجه الثالث : "فإنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه"[4].

---

(1) – التوبة: 33.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 57.

(3) – المصدر نفسه، ص 58.

(4) – المصدر نفسه، ص 59.

ولما كان الباقلاني من علماء اللغة والأدب والبلاغة فقد ركزّ شرحه على هذا الوجه الأخير[1] فتحدث عن جمال نظم القرآن حديثا مسهبا، يتضح منه مفهومه ونظريته في إعجاز القرآن، إنه لم يرض أن يترك هذا الوجه دون أن يحدد قسماته ويبين معالمه، ويوضح سماته وما عناه بالنظم، من هنا وجدناه يحلل هذا الوجه البلاغي تحليلا دقيقا، ينم عن سعة إطلاع ورسوخ في العلم، ودقة في الفهم معا.

لقد ارجع الباقلاني جمال النظم القرآني إلى مجموعة وجوه تتسم بالدقة والعمق، وتدل على ترابط جزيئات الموضوع في ذهنه: وراح يفصل ذلك على عدة وجوه جعلها عشرة هي:

1 – "منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[2]. وهذه خصوصية "ترجع إلى النظر في القرآن جملة واحدة من حيث شكله العام، وأسلوبه وقالبه الظاهر باعتباره كلا، ويثبت الباقلاني أنه جاء على قالب لم يسبق إليه، وعلى هيئة لغوية لم تعرفها العرب، فإذا كانت القوالب المعروفة عندهم إلى وقت نزوله هي الشعر والسجع، والكلام المرسل المنطلق من القيود فإن الباقلاني ينفي أن يكون القرآن على نحو من هذه الانحاء، فلا هو بالسجع ولا هو بالشعر، ولا هو بالكلام المرسل، ويتجاوز الباقلاني ذلك إلى نفي أن يكون فيه سجع كما أنه ليس فيه شعر"[3] فهو تميز حاصل في جميعه.

2 – ومنها ما يرجع إلى الفصاحة[4]، وهو أن القرآن على طوله وامتداده قد جاء على أعلى درجات الفصاحة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، "وليس لأحد من العرب في إنتاجه الفني شعراً أو نثراً شيء من ذلك العلو المستمر في جميع إنتاجه على درجة واحدة، وإنما تنسب لشاعرهم أبيات معدودة، وتضاف لحكيمهم كلمات محصورة وألفاظ قليلة: والقصيدة الواحدة يقع فيها من الاختلال، ويعترضها من التباين والاختلاف ما يشهد بنقص قائلها في البلاغة والبيان"[5].

---

(1) – دراسات حول الإعجاز البياني في القرن الكريم، المحمدي عبد العزيز الحناوي، ص 214، 223، ط1، دار الطباعة المحمدية سنة 1984م ، الأزهر.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 59.

(3) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص 185، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، 1978م.

(4) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 60.

(5) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص 186.

وقد سبق الخطابي بكلام يتضمن هذا المعنى الذي صاغه الباقلاني بأسلوب مغاير[1] .

3 – ومنها ما يرجع إلى النظم، واستوائه وحسن رصفه. "وهو عدم التفاوت في الدرجة الفنية فالقرآن على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها. من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وجدل، وحكم وأحكام، واعذار وانذار، لا يتفاوت ولا يتباين، وإنما يأتي نسقا واحداً لا ترى لبعضه على بعض فضلا في النظم الفني"[2] . "ونلاحظ أن هذا الوجه من الوجه المتقدم قريب. وفرق ما بينهما أن الوجه المتقدم يتناول سمو القرآن جملة إلى أعلى درجات الفصاحة، بينما هذا الوجه يتناول وحدة الدرجة، وتشاكل السمت في الفصاحة والبلاغة وهو فرق يبيح جعلهما وجهين لا وجها واحداً كما صنع الباقلاني"[3]

والباقلاني بهذا البيان للوجه الثالث، إنما يوضح الفرق بين كلام الله الذي لا يختلف في مستواه البياني بل بلغ القمة في بلاغته في سائر الوجوه التي تناول الحديث عنها بينما يختلف كلام البشر ويتفاوت، فيجود الشاعر أو الكاتب أو الخطيب أحيانا ويخفق أحيانا أخرى. ويستطرد الباقلاني في حديثه عن النظم من حيث عدم تفاوت أساليبه، بينما لا يكون كلام الفصحاء كذلك فبين هذا من خلال الوجه الرابع.

4 – يبين الباقلاني "أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد. وهذا أمر عجيب. تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة"[4] إنما يوضح "عدم الإخلال بحسن الخروج من غرض إلى غرض، فهو في الفصل والوصل، والعلو والنزول والتحول من غرض إلى غرض يأتي على نمط واحد من حيث سمو الأداء وحسن الخروج والانتقال والتخلص، لا يضطرب، ولا يبين عليه نفار"[5] . ثم يستطرد أيضا فيوضح أن نظم القرآن البديع – بخروجه عن عادة الفصحاء، قد أعجز الإنس والجن.

5 – أنه جاء مخالفا لكلام الجن فقد قرر "أن نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن كخروجه عن عادة كلام الإنس". ويشير الباقلاني بعد ذلك إلى أن نظم القرآن قد تضمن ألوانا بلاغية تجاوزت حدود كلام العرب في الحسن والابداع ويتضح ذلك من قوله في الوجه السادس.

---

(1) – البيان في إعجاز القرآن، الخطابي، ص23، 24.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 60.

(3) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص186.

(4) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 62.

(5) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص 186.

6 – اشتماله على الصور الفنية التي عرفها العرب فهو قد تضمن جميع الصور التي جاءت في لغتهم من ايجاز واطناب، وجمع وتفريق واستعارة وتصريح ومن تجوز وتحقيق.. إلى جميع الخصائص التي عرفت باسم البيان والبديع والمعاني في اصطلاح البلاغيين.[1]

وقد جعل السيوطي (911 هـ) كل لون من ألوان بلاغته هذه وجها من وجوه الإعجاز فقد جعل الوجه الثالث والعشرين من وجوه إعجازه "وقوع الحقائق والمجاز فيه"[2] .

وجعل الوجه الرابع والعشرين من وجوه إعجازه هو "تشبيهه واستعاراته"[3] ، وجعل الوجه الخامس والعشرين من وجوه إعجازه هو "وقوع الكناية والتعريض"[4] وهكذا.

7 – ثم يبين الباقلاني أن من وجوه نظمه: ايراد معانيه في ألفاظ بديعة تتناسب مع مقاصده الشريفة، وشريعته الغراء وأحكامه واحتجاجاته والرد على الملحدين وذلك بما يتجاوز قدرة البشر وقد سمى ذلك: البراعة.

8 – وهو تميز الكلمة من القرآن عن غيرها من سائر الكلام بالرونق والفصاحة حتى لتعلن الكلمة عن نفسها "حين تذكر في تضاعيف الكلام أو تقذف ما بين شعر، فتأخذ الأسماع، وتتشوّف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما يقرن به، كالدّرة التي ترى في سلك من خرز وكالياقوتة في واسطة العقد"[5]. فذلك عنده وجه من الوجوه التي تشهد ببداعة النظم بداعة تجعل القرآن معجزاً.

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 66.

(2) – معترك الاقران في إعجاز القرآن، السيوطي، جـ1، ص 246، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي.

(3) – المصدر نفسه، جـ1، ص 269.

(4) – المصدر نفسه، جـ1، ص 286.

(5) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 66، 67، بتصرف.

وهذا يؤكد أن الاقتباس من القرآن الكريم يدل على إعجازه من حيث النظم، لأن الاقتباس منه يضفي على الكلام البليغ روعة وبهاء فتتلقفه الأسماع. وتقبل عليه النفوس بشغف وحب. وقد افاد الشعراء والكتاب والخطباء من معانيه وألفاظه الشيء الكبير.

ويبين أن الوجوه السابقة هي الدلائل على إعجاز القرآن وأنها هي التي افحمت أهل البلاغة والفصاحة، فلم يأتوا بمثله. ولو استطاعوا معارضته لأتوا بها. ولكان ذلك سبيلا إلى ايقاف دعوته بالأمر السهل بدل خوض المعارك الدامية والمقارعة بالسيوف.

9 - وهو أن مجموعة الحروف التي افتتحت بها السور المبدوءة بحروف مفردة تمثل المجموعات التي قسم إليها علماء الأصوات فيما بعد حروف المعجم فذلك عند الباقلاني "من البديع الذي يدل على أصل وضع القرآن وقع موقع الحكمة التي يقصر عنها اللسان"[1].

ولعل الباقلاني يشير بذلك إلى أن القرآن المؤلف من حروف هي نفس حروف كلامهم قد فاق كل قول لهم مؤلف من هذه الحروف ولعله يشير أيضا إلى أن الحروف التي ابتدأت بها بعض السور وعددها ثمان وعشرون سورة بحروف عدد أربعة عشر حرفا تدل على ما تضمنه من سرّ يعلمه الله وحده مع أن كلامهم مركب من نفس هذه الحروف.

وقد نوه ابن كثير وغيره على أن هذه الحروف مما تدل على إعجاز القرآن البياني، الذي تحدى به الله العرب قال ابن كثير في تفسيره هذه الحروف إنما ذكر هذه الحروف في أوائل السور بيانا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين[2].

وقد قرره الزمخشري في تفسيره[3] - ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام ابن تيمية، ثم قال: "ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، مثل الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ"[4]

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص70.

(2) - مختصر ابن كثير، جـ1، ص 27. تحقيق محمد علي الصابوني، ط7، دار القرآن الكريم، بيروت، 1402هـ-1981م.

(3) - الكشاف للزمخشري، جـ1، ص 95 وما بعدها، شركة مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

(4) - البقرة: 1، 2.

"الٓمٓصٓ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ"[1] "الٓرٰ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ"[2] "حٰمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ"[3] وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن.

وكذلك نوه القرطبي بنحو ذلك، حيث يقول: "وقال قطرب والفراء، وغيرهما هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم. إذ لم يخرج عن كلامهم - وقال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن. فلما سمعوا "الم" و "المص" استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له -صلى الله عليه وسلم- أقبل عليهم بالقرآن، المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم"[4].

10 - والباقلاني في حديثه عن الوجه العاشر، إنما يشير إلى أن القرآن يتضمن شروط الفصاحة في المفرد والمركب. "إن القرآن بجملته خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، مع امتناع المطلب وعسير المتناول غير مطمع مع قربه في نفسه، ولا موهم مع دنّوه في موقعه أن يقدر عليه، أو يظفر به"[5].

يدل على أنه خال من الغرابة التي هي أحد عيوب الكلمة[6] وقوله: "وجعله قريباً إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس"، يدل على أن كلام القرآن خال من التعقيد اللفظي والمعنوي. الذي هو أحد شروط فصاحة الكلام[7].

تلك هي الوجوه العشرة التي يرجع إليها الباقلاني إبداع النظم في القرآن وعليها يدير أكثر فصول كتابه بطريقته التي قدّمت أنها إجمال الكلام ثم تفصيله.

---

(1) - الأعراف: 1، 2.

(2) - يونس: 1، 2.

(3) - الدخان: 1، 3.

(4) - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، جـ1، ص 154، ط3، دار الكتب المصرية، 1387 هـ.

(5) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 70، بتصرف.

(6) - الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، جـ1، ص 13، شرح عبد المتعال الصعيدي، ط5، مكتبة الآداب.

(7) - المصدر نفسه، ص 19 وما بعدها.

فإعجاز القرآن عند الباقلاني يستند إلى فكرة مفادها أن القرآن يتجاوز قدرة البشر في النظم والأسلوب والبلاغة. وواضح من تقسيماته وتفريعاته أنه متأثر في الشطر الأول من نظريته بفكرة الجاحظ التي ذهب فيها إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن إلى نظمه وأسلوبه العجيب المباين لأساليب العرب في الشعر والنثر وما يطوى فيه من سجع أما في الشطر الثاني فقد تأثر الباقلاني بفكرة الرماني، التي ذهب فيها إلى أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة[1].

فالإعجاز عنده لا نستطيع أن نقول إنه يتحقق في الشكل دون المضمون ولا في المضمون دون الشكل، بل فيهما معاً، يتحقق عن طريق النظم مع الفصاحة والبلاغة المتناهية وهذا ما يركز عليه في تلك الخصائص العشر التي مرت بنا.

وعلى الرغم من أن الباقلاني قد أشبع هذه الوجوه العشر البلاغية شرحاً وتحليلا وتفسيراً وتمثيلا. وألحق بكل منها ما يؤيد وجهة نظره، واستشهد بالكثير من الشواهد الشعرية والنثرية، والآيات القرآنية إلا أنه وجد أن هذا الشرح غير كاف، وهذا التعليل غير شاف، فنراه يلحق بهذا الفصل الثالث فصلا رابعاً[2] لا يتناول فيه موضوعاً جديداً، بل إنه يعاود شرح ما سبق أن ذكره وبيّنه من وجوه، وواضح أنه قد فاته بعض المسائل لم يستطع أن يدرجها أثناء الشرح فألحقها به، إنه يتناول وجها وجها من الوجوه الثلاثة التي حددها للإعجاز القرآني ليعاود الكلام عليها ولكن بتركيز شديد وبشواهد جديدة ثم يختم هذا الفصل التفسيري المركز بالكلام عن الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف[3] ويجعل من حديثه هذا منطلقا لبدء المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة التأييد والإثبات، وتقديم المبرهنات والمؤيدات.

---

(1) – التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص 170، وكذلك "النكت في إعجاز القرآن"، الرماني،ص75 ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 73، راجع في هذا كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص 296، 299، ط3، دار المعارف، مصر.

(3) – المصدر نفسه،ص 75.

مرحلة التأييد والإثبات:

لقد ذكر الباقلاني مجموعة من العناصر التي جعلت من نظم القرآن وجها من وجوه الإعجاز منها: "أنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم، ومن أدعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ولا الكلام الموزون غير المقفى وهنا نجده يشير إلى نقطة الإنطلاق التي سيبدأ منها الدفاع فيقول: "لأن قوما من كفار قريش ادّعوا أنه شعر، ومن الملحدة من يزعم أنه فيه شعرا، ومن أهل الملة من يقول أنه كلام مسجّع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ومنهم من يدّعي أنه كلام موزون، فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب"[1].

إذن فخطة الباقلاني في المرحلة الثالثة، أن ينفي الشعر عن القرآن، ثم ينفي السجع عن القرآن، ثم يذكر الصور البيانية والعناصر الجمالية التي يمكن أن يقع بها إعجاز القرآن وهذا ما فعله الباقلاني تدعيما لوجوه الإعجاز وتأييدا لما ذهب إليه من آراء أثناء ردّه على المزاعم التي قيلت حول القرآن.

وفي الحقيقة لم يكن نفي السجع عن القرآن من بنات أفكاره ولكنه ردّد ما ذكره الرمّاني من أن فواصله تباين السجع مباينة تامة، إذ الفواصل تتبع المعنى، أما السجع فيتبعه المعنى، ومن أجل ذلك يتضح فيه التكلف والثقل[2].

والحقيقة أن الباقلاني لم يوفق في تناوله للسجع حين راح ينفيه من القرآن. كما أنه أجهد نفسه في نفي الشعر منه لما راح يناقش البيت والبيتين وهل هما شعر ويناقش الرجز ولا يراه أيضا شعرا ويناقش القصد والنية... وكان يغني في الفرق بين القرآن والشعر أن ينظر في مضمون هذا وذاك فأحدهما حق صراح وثانيهما باطل أو فيه من الباطل كثير[3].

بعد أن انتهى الباقلاني من دفاعه عن القرآن. انتقل إلى موضوع آخر وهو الطريق إلى معرفة الإعجاز أو كيفية الوقوف على إعجاز القرآن. وهو كعادته حين يتصدى لموضوع ما يتساءل: هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع؟[4]

---

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 75.

[2] – النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ص 97، "الفواصل".

[3] – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن عبد الرؤوف مخلوف ص 535.

[4] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص92.

وهنا نلاحظ أنه لا يقصد بالبديع المعنى الاصطلاحي المعروف إنما يقصد ما جاء في القرآن من ألوان الجمال المعنوي التي تشملها علوم البلاغة.

وهو في هذا الفصل يحدد الأبواب والفصول التي ذكرها أهل الصنعة، ومن صنف في هذا المعنى، يقصد الإعجاز القرآني ثم يبين ما عجزوا عن فهمه أو الوصول إلى كنهه، ليكون الكلام على حد تعبيره "وارداً على أمر مبين، وباب مقرر، وباب مصور"[1].

ثم يستعرض العناصر البلاغية التي تناولها القوم. وذكروها بوصفها، النوافذ التي يمكن من خلالها أن يطلّوا على آيات الإعجاز القرآني. فنراه يتحدث كما تحدث البلاغيون السابقون من أمثال ابن المعتز وأبي هلال العسكري عن الإستعارة، والتشبيه، والإرداف والمماثلة ويذكر المطابقة والجناس ويذكر ضربا يسميه "الموازنة"[2]. ويذكر الباقلاني أيضا "المساواة" على أنها ضرب من البديع. مقتديا بمن سبقه في هذا الصنيع، وتأثره في حديثه عقب ذلك عن "الإشارة" و"المبالغة" و"الغلو" و"الايغال" و"التوشيح" و"صحة التقسيم" و"صحة التفسير" و"التتميم" و"الترصيع" ويظل ينقلنا الباقلاني من موضوع بلاغي إلى آخر، ومن صورة شعرية فنية إلى أخرى، ملقيا الضوء على ما فيها من أبعاد وظلال فنية، حتى يأتي على كل العناصر البلاغية التي تناولها العلماء وظنوا أنها السبيل إلى معرفة أسرار الإعجاز القرآني بيد أنه في آخر المطاف يضع أمام الأذهان سؤالا هاماً: هل لأبواب البديع فائدة في معرفة الإعجاز؟ ويجيب على هذا السؤال إجابة صريحة فيقول : ليس كذلك عندنا لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتصنع لها"[3].

ويمضي فيقول: "إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووضعوه فيه وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له، أما شأو نظم القرآن فليس له مثال يحتذى عليه ولا إمام يقتدى به ولا يصح وقوع مثله اتفاقا"[4].

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص92.

(2) – وهي مما زاده قدامة بن جعفر في كتابه جواهر الألفاظ من حسن البلاغة وقد سماها "اعتدال الوزن" ص3 ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1405هـ – 1985م.

(3) – إعجاز القرآن للباقلاني ص 128.

(4) – المصدر نفسه، ص131.

فالإعجاز عند الباقلاني قائم في النظم بمعنى العلاقات القائمة بين أجزاء السورة، وليس للبديع دخل في ذلك، إذ الصور البديعية كثيرة في كلام العرب كثرتها في القرآن الكريم ومع ذلك فإنه لم يثبت بها لهذا الكلام فضل على غيره ولم يرق شيء منه إلى مستوى القرآن، فبقي ألا يكون الإعجاز راجعًا إليها.

وإذا كان الباقلاني قد أدرك هذه الحقيقة، ولفت الأنظار إلى ضرورة النظر في العلاقات العامة وهون من أمر الجزئيات المتمثلة في صور البديع وأبوابه، فإنه تبقى كلمة الدكتور شوقي ضيف، تلك التي يقول فيها "ولعل من الواجب أن نشير إلى أن النقد العربي كان في جملته نقدا عمليا يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها قليلا، فقد كان محوره غالبا البيت والعبارة ولم ينظروا في الأدب أو الشعر نظرة عامة، فقد شغلتهم النظرة الجزئية، بحيث يمكن أن نقول أن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص"[1] وهذا يؤكد أن الباقلاني رفض أن ينظر عند نقد الكلام، في الجزئيات، ونفى أن يستفاد منها حكم اجمالي على القرآن، وصرف همه في معظم كتابه إعجاز القرآن إلى دراسة نظرية النظم، وقد ردّها إلى روح جمالية تسرى في النص الأدبي جميعه، وحذر من الوقوف عند الجزئيات والعناصر[2].

وعلى هذا يمكن أن نقول أنه قد دار بخلد أبي بكر الباقلاني ما تمنى الدكتور شوقي ضيف لو أنه دار بخلد نقاد العرب حين قال "وكيف نحكم على نماذج الأدب أحكامًا عامة بالجودة والرداءة وكيف نقارن بعضها ببعض، وكيف نقومها ونعرف قيمتها النفسية والاجتماعية، والأخرى الفلسفية الأدبية، فكل ذلك لم يدر بخلدهم، وإنما الذي كان يدور هو الملاحظات الجزئية الكثيرة على الألفاظ والعبارات والأبيات المفردة".

إن الباقلاني لم يشغل نفسه بالنظر في الملاحظات الجزئية، وإنما أدرك الرجل أن الكلام: "إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس، التي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها، فما كان أقرب في تصويرها، وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد، وأشدّ تحقيقا في الإيضاح عن الطلب وأعجب في وضعه، وأرشق في تصرفه، وأبرع في نظمه كان أولى وأحق بأن يكون شريفا"[3] شريطة "ألا يكون مستكره المطلع على الأذن ومستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الأفهام أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة"[4].

---

(1) – في النقد الأدبي، شوقي ضيف، ص31، دار المعارف، مصر.

(2) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص 309 بتصرف.

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص138.

(4) – المصدر نفسه، ص 137.

ويقول صاحب تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع "وقد حاول بعض النقاد أن يخلصوا للنثر خصائصه ويفردوه عن الشعر بها كما فعل صاحب كتاب "نقد النثر" وكما حاول الباقلاني في إعجاز القرآن إذ رأى مقاييس البديع لا تنصرف إلى القرآن ولا يصح قياس إعجازه بها"[1] نقول إن الباقلاني لم يجعل البديع خصيصة يستأثر بها النثر دون الشعر، وإنما جعل البديع خصيصة تشيع في سائر كلام العرب نثرهم وشعرهم على السواء، ومن ثم فإنها ليست من الخصائص التي يتميز بها القرآن، أو يمكن أن يردّ إليها إعجازه.

وإذا صحّ ذلك كله للباقلاني فإنه يكون أكثر تهديا لمحور الإعجاز في القرآن، والجمال في فن القول من صاحبه عبد القاهر الجرجاني الذي جاء بعده وكتب كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" يعالج فيهما قضية الإعجاز في القرآن الكريم وقضية الجمال في الكلام.

ذلك أنه أي عبد القاهر صرف كل جهوده إلى الحديث عن العناصر الجزئية وما يمكن أن يكون فيها من جمال الصياغة وحسن الحبكة واتقان الصنعة فتحدث عن الاستعارة وعن التشبيه وعن الحصر والقصر، وعن المساواة والاطناب والإيجاز وعن الأسجاع والتجنيس والطباق وغيرها وإن لم يفته أن يتحدث عن الفصل والوصل وهما من حديث العلاقات في كثير.

وإذا كان عبد القاهر قد قال بالنظم كما قال سلفه الباقلاني ففرق ما بينهما أنه اهتم ببيان البلاغة في الآية[2] وفي البيت[3] أو في الجملة[4] أكثر مما اهتم بتناول الموضوع الأدبي ككل وكأن ذلك هو النظم في حين تحدث الباقلاني عن النظم على أنه روح تسري في جملة الكلام أما ما قد يكون في البيت أو الآية أو الجملة من صور فنية فإنه لا يفيد في قضيتنا كثيرا[5].

يتضح لنا مما سبق أن الباقلاني لا ينظر إلى الصورة الجزئية ولا يعتبرها هي وحدها أساس الإعجاز إذا لم ننظر إليها من خلال ما تتصل به من صور أخرى في الكلام، أي أن النظر يجب أن يكون إلى الصورة الكلية على أساس الصورة الجزئية المكونة لها.

---

(1) – تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، ص23. دار المعارف 1964م

(2) – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص170.

(3) – المصدر نفسه، ص71.

(4) – المصدر نفسه، ص23.

(5) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف ص310.

وهذا ما يؤكده الإمام الغزالي حين قال "ألا ترى الزخرفة في فن الرسم تتكون من "وحدة" معينة لو رأيت صورتها مفردة ما لفتت نظرك. فإذا كرّرها الرسام بطرق مختلفة برزت معالم الجمال في أنواع من الزخارف تسحر الألباب"[1].

ويقول في هذا أيضا الدكتور محمد عبد الله دراز: "فعندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيق منها حيث لا نجد إلا ألوانا متنوعة تتجاوز أو تتنافر أحيانا بل يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء، ليتسع مجال الرؤية وتحيط بالكل في نظرة شاملة تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب فبمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن الكريم لنقدر أبعادها الحقيقية. ولقد قمنا..بتطبيق هذه القاعدة في دراسة لإحدى السور المدنية "هي سورة البقرة".. فالواقع أننا وجدنا أكثر مما كنا نطلب من بحثنا. فقد كنّا نبحث عما إذا كان هناك نوعًا من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة. فتوضح الآيات الإفتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتدخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة"[2].

إذن النظرة الجزئية إلى صور البديع لا يعتمدها الباقلاني كأساس منفرد للإعجاز بل يعتمد الكل المترابط الأجزاء المنتظم مع غيره في وحدة متكاملة وهو في هذا يكون أوسع نظرة إلى مفهوم النظم من الذين سبقوه، ويفتح أعين الباحثين والعلماء على الدراسة الشمولية لا الجزئية سواء في ميدان النقد أو في ميدان الإعجاز القرآني إلا أننا نقول مع هذا إن النظر إلى الصور الجزئية في القرآن يفيد أيضا، ولا نستطيع أن ننطلق إلى دراسة الكل إذا لم نضع في حسباننا الأجزاء الصغرى المكونة لهذا الكل العام، وعلى كل فهو يرفض استقلالية الألوان البلاغية عن النظم القرآني والنظر إليها منفردة على أنها هي الإعجاز وهو في رفضه هذا كان يقصد الرماني عندما تحدث عن الأقسام البلاغية العشرة وراح يدرسها ويبين سرّ الإعجاز القرآني فيها.

فما السبيل إذن إلى معرفة إعجاز القرآن ؟

هذا هو محور الفصل الثامن الذي خصصه الباقلاني لتحديد كيفية الوقوف على إعجاز القرآن يقول فيه "إنه لا يقف عليه إلا من عرف معرفة بيّنة وجوه البلاغة العربية، وتكونت له فيها ملكة يقيس بها الجودة

---

(1) – نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص126، ط6، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر.

(2) – مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص 119، دار القلم.

والرداءة في الكلام بحيث يميز بين نمط شاعر وشاعر ونمط كاتب وكاتب وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة وهذا كما يميز أهل كل صناعة صنعتهم"[1] "ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة لم تخف عليه هذه الوجوه، ولم تشتبه عنده هذه الطرق، فهو يميز قدر كل متكلم بكلامه، وقدر كل كلام في نفسه ويحله محله، ويعتقد فيه ما هو عليه، ويحكم فيه بما يستحق من الحكم وإن كان المتكلم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعم إحسانه عرف"[2].

وبهذا المفهوم نستطيع أن نعرف أن الباقلاني يرد المسألة إلى الذوق وحسن تدّربه على تمييز أصناف الكلام. ولقد دفعه هذا الفهم إلى أن يسوق طائفة من خطب الرسول -صلى الله عليه وسلم- ورسائله ومن خطب الصحابة وغيرهم ليلمس القارئ فرق ما بين ذلك كله وبين القرآن[3].

ولا يقف عند حدود النثر بل ينطلق إلى آفاق الشعر فيدرس معلقة امرئ القيس -إمام الشعراء- ويبين ما فيها من تكلف وحشو، وخلل وتطويل ولفظ غريب، وكيف تتفاوت أبياتها بين الجودة والرداءة والسلاسة والغرابة، والسلامة والانحلال والاسترسال والتوحش والاستكراه "مع أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتبع فيها"[4].

يقول الأستاذ محمود شاكر: "ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني فقد جمع في كتابه خيرا كثيرا، واستفتح بسليم فطرته أبوابا كانت قبله مغلقة وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة، وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت إليها.

كان الباقلاني حقيقا أن ينهج النهج الذي أدانا إليه تمحيص مسألة الإعجاز، فيجعل الشعر الجاهلي أصلا في دراسة بيان عرب الجاهلية من ناحية تمثيله لخصائص بيان البشر والباقلاني رضي الله عنه، طرح بين يديك هذه القصيدة - المعلقة - وجعل يفصلها وينقدها، ويمحو من محاسنها ويثبت، ويقف على مواضع خللها، ويفضي بك إلى مكامن ضعفها، ولم يزل يعربها حتى كشف الغطاء عن عوارها"[5].

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص133، بتصرف.

(2) - المصدر نفسه، ص139.

(3) - المصدر نفسه، ص147.

(4) - المصدر نفسه، ص174.

(5) - مقدمة الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ص40، 41، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار العروبة.

وهو في جميع ذلك يستهدف تحقيق فكرته التي عقد عليها العزم منذ استفتح كتابه وهي أن القرآن يسمو على كل بيان، وهذا حق ولكنه سلك إلى ذلك طريق الاستدلال العكسي فوضع القرآن في كفة والمعلقة على أنها المثل الأعلى لشعر العرب وكلامهم في كفة وأخذ يسقطها أو يسقط أبياتها واحدا في اثر واحد، متوهما أنه حين تخف كفة الشعر تثقل كفة القرآن، وكان سلوك غير هذا السبيل أولى، كان أولى أن يأخذ بيدنا نحو آيات القرآن فيقفنا على مواطن الروعة والجمال فيها، إذن لكان أدى للقضية قضية الإعجاز الشيء الذي مازلنا بحاجة إليه في تناولها.

إن غلبة روح المنطق طغت على الباقلاني وجعلته يذهب في الاستدلال مذهب علماء الكلام ولا يغفر له سلوك هذا السبيل إلا أنه ذكر له "عن بعض جهالهم أنه جعل يعدل القرآن ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه" وان سائلا سأله أن يذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال" فكان الذي فعل في كتابه إعجاز القرآن(1).

فقد قارن الباقلاني بين كلام الله وكلام البشر ليبرهن على أن القرآن لا يتفاوت نسجه ولا تختلف درجة البلاغة فيه وإنما يجري على مستوى واحد من أوله إلى آخره. وإنه يسمو على كل بيان.

بعد ذلك يعود بنا ليتحدث عن جمال نظم القرآن وحسن تأليفه ورصفه وكيف أنه وزّع على كل آياته بقسطاس سواء منها القصص وغير القصص.

بعد أن فرغ من مناقشة قصيدة امرئ القيس نقل الحديث إلى القرآن الكريم لأنه يقول لم يرد أن يستمر في إيراد قصائد كثيرة "فنتكلم عليها وندلّ على معانيها ومحاسنها، ونذكر لك من فضائلها ونبسط لك القول في هذا الجنس ونفتح عليك في هذا النهج. لأن هذا خارجا عن غرض كتابنا، والكلام فيه يتصل بنقد الشعر وعياره، ووزنه بميزانه ومعياره ولذلك كتب وإن لم تكن مستوفاة وتصانيف وإن لم تكن مستقصاة"(2).

ثم يقول الباقلاني "فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره، وتضلّ دون وصفه".

ويذكر الباقلاني في مقدمة هذا الباب أنه سيقول في تفصيل ذلك "ما تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد، وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر، وأقرب عليك الغامض وأسهل لك العسير.

---

(1) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص412.

(2) –إعجاز القرآن، للباقلاني، ص196.

وهذه تقدمة طيبة لو كان الباقلاني قد حقق ما جاء فيها بكتابه إعجاز القرآن لكان قد أدى لقضية الإعجاز مالم يؤده أحد قبله فلننظر ماذا صنع:

إنه استفتح كلامه "بأن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا أهل عصمة تفطن لما فيه وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر.

ثم قرر حقيقة "فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها وتراها في مظانها وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ومرمى شراد ونابية عن استقرار"[1].

وتلك حقيقة مسلمة أدركها الباقلاني، وتحدث بها النقاد، بل إن الكلمة الواحدة لتجمل في موضع وهي هي ينبو بها مكانها في موضع آخر، وقد ضرب الباقلاني لذلك المثل بكلمة الصبح "في موضع الفجر".

ويقول الباقلاني: "ولكل شيء سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه ولا بلوغ غايته من غير سبيله."

خذ الآن هداك الله في تفريغ الفكر وتخليه البال وأنظر فيما نعرض عليك ونهديه إليك متوكلا على الله ومعتصما به، ومستعيذا به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم"[2].

هذا والباقلاني يسلك في إثبات إعجاز القرآن أحد الطريقين:

أ- أن يختار من الآيات المتفرقة في السور شواهده على القضية.

ب- أن يختار سورا متكاملة.

وفي كلا الحالين، فإنه يأخذ نفسه ببيان علو موقع ذلك وسمو بلاغته ونظمه، وهو بذكره سورا متكاملة يفتح بابا جديدا في تناول إعجاز القرآن الفني وكنا نود لو أن الناس، والنقاد اتبعوه فيها فنظروا في القرآن سورة سورة، ولكن أكثرهم على النظر فيه آية آية، وحين يقارنون بينه وبين كلام العرب فإنهم يقيمون الموازنة ويديرونها على آية وجملة من كلامهم أو على آية وبيت من الشعر[3].

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص197.

(2) - المصدر نفسه، ص197، 198.

(3) - الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص433.

لقد اختار الباقلاني كثيرا من الآيات القرآنية وراح يقفنا على الأغراب في الصنعة والابداع في التأليف، والتهدي لوضع الكلم موضعا لا يدخل فيه تغيير أو تبديل إلا دخل عليه من ضيم كثير.

وإن الذي ينعم النظر في تعليق الباقلاني على الآيات القرآنية يلمح فيه بذور البلاغة المقننة التي انقسمت على أيدي المتأخرين إلى معان وبيان وبديع.

"والذي نقف عنده من عرض الباقلاني للسور والآيات أنه مس أبوابًا كثيرةً من الأبواب التي لها دخل في علو شأن الكلام من حيث الصنعة الفنية. وذكر أصولا ومبادئ لو استوفت حقها من التوضيح والتجلية ووضعت اليد على سر تأثيرها في الكلام لانتهت بنا إلى بلاغة جديدة، بلاغة لا يكون قوامها التعجب من حسن الكلام في صورة الجزئية، ولكن يكون قوامها الوقوف على أسرار الحسن فيه من حيث وحدته واتساق أجزائه باعتباره أسلوبا"[1].

إن الباقلاني حاول في ذلك محاولات لا يسعنا إلا أن نشير إليها في فصل خاص بالتفصيل ثم بعد ذلك يعود بنا ليتحدث عن الشعر فيقول: "ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سرّ المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة"[2].

ويريد الباقلاني بذلك أن يبين تفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة ويتناول قصيدة بديعة للبحتري الذي اشتهر بجمال ديباجته وحلاوة أنغامه وعذوبة ألفاظه، وهي لاميته المشهورة:

أَهْلاً بِذلِكُم الخَيَالِ المُقْبِلِ ٭ فَعَلَ الذِي نَهْوَاهُ أَوْ لَمْ يَفْعَلِ

ويشرح أبياته تشريحا، مبينا ما يجري فيها من ثقل وتطويل وحشو وتكلف وألفاظ وحشية جافية، ومن تناقض وكزازة وتعسف ورداءة صوغ وسبك[3].

ولكن الباقلاني كان ينقد شعر البحتري على نحو ما نقد شعر امرئ القيس وغايته أن يثبت أن جميع شعر العرب نازل في الفنية عن القرآن ويثبت له أنه فائق في صنعته لجميع كلامهم فيكون معجزا.

---

(1) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص515.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص230.

(3) – المصدر نفسه، ص231.

"وإذ ليس من الرسالة أن ننقل أكثر الذي قال الباقلاني وإنما نقف على اتجاهاته فيما كتب في إعجاز القرآن فحسبنا مما قال في امرئ القيس والبحتري وبعض الحديث يغني عن بعض. ولكن الباقلاني أراد أن يسقط الشعر ليستدل بذلك على إعجاز القرآن فركب مركبا صعبا. سلك فيه مسلك التحامل والعصبية ورفع فيه عصا الشناعة على كثير مما قال الشاعران ويرحم الله الدكتور زكي مبارك إذ يقول: "وقد بلغ بالباقلاني التحامل أن طعن في قول البحتري:

مَا الحُسْنُ عنـدكِ ياسُعَادُ بمُحْسِنٍ • فيمـا أَتَـاهُ ولا الجَمـال بمُجْمِـل

ورغم أن أسلم منه، وأبعد من الخلل قول كشاجم:

بحياة حُسنكِ أَحْسِنِي وبحقِّ مَنْ • جَعَلَ الجَمَـال عليـكِ وَقْفـًا أَجْمِلِي

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم أن بيت كشاجم هذا لا يصلح أن يقارن ببيت البحتري إلا عند غلف القلوب.

ثم يقول الدكتور: وأغرب من هذا في الشطط أن نرى الباقلاني يأخذ في نقد البحتري فيقول قوله: "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة، والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهييج وجده وفي تهييم قلبه، وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه القلب. يقول الدكتور: وهذا كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق، وعلى هذا النمط أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن. وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه أن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب أن يكون مستعدا للحكم بالعدل وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها، أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها"[1].

وهكذا حملنا الباقلاني بما صنع في القصيدتين على أن نخلص فيه إلى رأي لا أظن أحدا درس الكتاب ينكره علينا، ذلك أنه تحيف الشاعرين والشعر كله، كما تنقص القصيدتين بالباطل في كثير مما قال، وكان الذي حمله على ذلك عقده القلب على حط الشعر وانتقاصه ليسلم له أن القرآن معجز في نظمه وأسلوبه وتأليفه.[2]

---

[1] - النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، جـ2، ص62، دار الكتب للعربية.

[2] - الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص 427، 428.

ولعل ذلك ما جعل الدكتور مندور يقول فيه: "وأما نقد الشعر للاستدلال من ذلك على إعجاز القرآن من طريق الاستدلال العكسي فذلك نقد لا غناء فيه ولا استقامة لمقاييسه.

والناظر في هذا النقد – يريد نقد الباقلاني للشاعرين – يرى التحمل والفهاهة وتكلف العيب مع عجز عن إدراك جمال الشعر ونزوع إلى الإعجاب بالبديع وانتقاد خلو الشعر منه[1].

على أنه لا يفوتنا في هذا الموطن أن نشير إلى راي يخالف ما قدمنا وذلك هو رأي المرحوم الدكتور أحمد بدوي، ففي حين نرى الدكتور زكي مبارك والدكتور أحمد مندور يريان معنا الباقلاني وما تحيف شعر امرئ القيس والبحتري نجد الدكتور ينقل عدة صفحات مما قال الرجل في قصيدة امرئ القيس ثم يعقب عليها بقوله: " وعلى هذا المنوال يجري الباقلاني في نقد معلقة امرئ القيس، ثم يتجاوزها إلى نقد غيرها من شعر الشعراء المشهورين - يقول – ويطول بي المقام إذا أنا عرضت نماذج أخرى من النقد لنقاد العرب، وحسبي ما عرضته هنا، وهو يدل على أن هؤلاء النقاد وصلوا في النقد إلى مرحلة كبيرة من حسن التذوق وحسن العرض لما يتذوقونه"[2].

وهكذا يدخل الباقلاني -من وجهة نظر الدكتور - في جملة النقاد الذين وصلوا إلى مرحلة كبيرة من حسن التذوق، وكأنه راض عنه كل الرضا، ولو أنه أدخله في جملة هؤلاء النقاد بآرائه التي قدمنا عند حديثه في البديع لكان ذلك جديرا بأن يتقبل، فأما أن يدخله في جملة المجيدين من النقاد بما صنع في قصيدة امرئ القيس وما صنع في قصيدة البحتري فمسألة لا نوافق عليها[3].

ويهاجم بعد ذلك الباقلاني ما يقال من بلاغة الجاحظ مبينا أنه دائما "يستعين بكلام غيره ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ومثل نادر وحكمة ممهّدة منقولة، وقصة عجيبة مأثورة"[4].

"فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في "نظم القرآن" وفي "الردّ على النصارى" وفي "خبر الواحد" وغير ذلك مما يجري هذا المجرى"[5].

---

(1) – النقد المنهجي، ص327، 328، محمد مندور، دار نهضة مصر، 1972م.

(2) – أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد بدوي ص570، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر.

(3) – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص429.

(4) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص254.

(5) – المصدر نفسه، ص 255.

كل ذلك ليدل الباقلاني على أن بلاغة القرآن لا تسمو إليها أي بلاغة لشاعر أو كاتب وكأنه في كل ذلك يشرح ما ذكره الرماني في رسالته. من أن للكلام ثلاث طبقات. عليا وهي طبقة القرآن ووسطى ودنيا وهما طبقتا البلغاء على اختلاف بلاغتهم. وما ينظمونه أو يخطبون به أو يكتبونه ونسمعه دائما يردد أن كلام البلغاء يتفاوت. بينما القرآن لا تتفاوت آيه وإن العبارة لتجلب منه إلى كلام البليغ. فإذا هي تتلألأ كأنها الدرة الواسطة في العقد.

ثم يمضي الباقلاني قائلا إن القرآن ليس معجزا لأهل العصر الأول الذي نزل فيهم فحسب بل هو أيضا معجز لأهل كل العصور.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نقد وتقييم:

يمثل الباقلاني بمفهومه للإعجاز القرآني، وبمؤلفه "إعجاز القرآن" وجهة نظر جماعة المسلمين ويعدّ كتابه هذا أول كتاب يصنفه عالم من علماء السلف في الرد على مزاعم الملحدين والمخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم. منكري الإعجاز في عصره وقبل عصره.

ولقد وهب الباقلاني حياته وعلمه للدفاع عن عقيدة السلف، وتعد آراءه الترجمة العملية لما جال في خاطره، ولما اعتمل في ذهنه من أمور حيث وجد أن أنسب ما يمكن أن يقال، هو التأليف حول إعجاز القرآن وما يرتبط بهذا الإعجاز من مفاهيم ومضامين. فجاء كتابه من أفضل الكتب العلمية التي تناولت هذا الموضوع، معبرا عن آراء السلف من علماء القرن الرابع الهجري.

وهكذا يكون الباقلاني مسبوقا إلى القول في إعجاز القرآن ومفهومه الذي بلغ في عصره قمة التجريد العقلي المنطقي، ومحاولته الجادة في شرحه لما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآني وما قاله الرماني من أنه في المرتبة الرفيعة من البلاغة والبيان.

"ولكن هذا السبق لا ينفي الاعتراف للباقلاني بأنه وسع مفهوم النظم، ورده إلى جملة أمور عرض لها في كتابه، فمن ذلك وعلى رأس جميع ماله في هذه القضية أن في القرآن وحدة ونظامًا يجعلان منه عملا أدبيا رائعًا متكاملاً، ذلك هو اتساقه في جملته، وائتلاف السورة منه ائتلافا يبين فيه ترابط أجزائها. وأن إعجازه لا يتوقف ولا يبين من الصور الجزئية التي نراها في استعارة أو تشبيه أو كناية، فإن ذلك مما يمكن أن نراه فعلا في كثير من شعر العرب ونثرها. وأما الذي يستأثر به القرآن. ولا نجد نظيره في غيره من الكلام فهو التحام أجزائه على تباين الموضوعات التي تعرض لها بحيث تطلع كل سورة علينا وهي خلق متكامل متناسق، فيه من جميع صفات الشيء الجميل المتكامل، ولعل القرآن قصد ذلك لما قال "**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**"[1].

وبهذا يعتبر الباقلاني أول من دعا إلى النظرة النقدية الشاملة، وأول من اعتمد السورة القرآنية جزءا للانطلاق إلى دراسة القرآن كله أي الانطلاق من الصورة الجزئية إلى الصورة الكلية، وعندما رفض استقلالية الألوان البديعية لم يكن يقصد الرمان بذلك لأنه قد ركز على الألوان البديعية مع النظم والتأليف ولم ينظر إليها مستقلة منفردة.

---

(1) - الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص502.

ثم جعل الباقلاني للنظم القرآني عشر خصائص تمثل الوجه الثالث الذي انطلق منه وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه. وهو تصور لم يستغرقه أحد قبله وإن كانت الفكرة الأساسية مما قيل به قبله. وذلك في الحقيقة يجعل الباقلاني وبحق من أوائل من حاولوا تبيين الإعجاز في القرآن من ناحية النظم على هذا النحو العريض يقول:

"ولولا هذه الوجوه التي بيناها، لم يتحير فيه أهل الفصاحة. ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة والتصنع للمعارضة، وكانوا ينظرون في أمرهم ويراجعون أنفسهم، أو كان يراجع بعضهم بعضا في معارضته ويتوقفون لها. فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك. علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور؛ لعلمهم بعجزهم عنه. وقصور فصاحتهم دونه"[1].

وهكذا يكون الرجل بإتيانه على هذه الوجوه بالبيان والشرح قد حقق ما وعد به في مقدمة الكتاب من أنه "سيصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام... ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه... ونشير إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق، ليعرف عظيم محل القرآن وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه."[2]

ومن هنا تأتي أهمية الباقلاني، إذا أعدّ للبحث عن أسرار في نظم القرآن من شأنها حين توضح توضيحًا دقيقا أن تقف الناس على إعجازه.

ولذلك فقد بلغ الباقلاني بهذا الكتاب مكانة مرموقة وشهرة ذائعة لم يصل إليها أحد غيره وهذا مما يؤكد أن عصره قد كان متميزا بخصب التأليف وبكثرة الرجال الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن الذي يكمن في الروح التي تسري في جملة القرآن تلك الروح التي يمكن أن نسميها الأسلوب أو العلاقات بين السور والآيات أو وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب.

ولكن أكثرهم حاكي أقوال الأقدمين، وكان عمل الباقلاني واجبًا مقدّسًا حيث أنه كان يسعى إلى التوفيق بين علم الكلام ومبادئ الدين الإسلامي.

---

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص67.

[2] – المصدر نفسه، ص 28.

وقد أكد الباقلاني أن ما جاء به من وجوه الإعجاز. لا يناقض بعضه مع بعض، ويوجز ذلك جدا في ذكر هذه الوجوه ولا يفيض في ذكر الاعتراضات والاختلافات والأدلة والترجيحات ويقدم للقارئ ما استقر عليه رأيه وقلبه وإيمانه. من أن القرآن معجز بأسلوبه ونظمه البديع وألفاظه واثره في النفوس.(1)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) – الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، ص32، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978م.

الفصل الثاني

عبد الله دراز ومنهجه في كتاب النبأ العظيم

- نبذة عن حياته
- منهجه في كتاب النبأ العظيم
  - مرحلة التمهيد
  - مرحلة التفنيد
  - مرحلة التحديد
  - مرحلة التأييد والإثبات
- نقد وتقييم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نبذة عن حياته

هو محمد عبد الله دراز، قد كان علما شامخا، من أعلام الدعـوة الإسـلامية، في مصـر خـلال القـرن الرابع عشر الهجري[1].

ولد في قرية صغيرة تدعى "محلة دياي" بمحافظة كفر الشيخ في عام 1894م، 1312 هـ في بيت علم ودين، واتصف في حياته بالفطنة، والذكاء، والتواضع، والجرأة، ومحبة الناس، حفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، وانتسب إلى معهد الإسكندرية الديني في عـام 1905م وعـين مدرسـا - عقـب تخرجـه - بالمعـهد الديني، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية في عام 1912م، وعلـى شـهادة العالميـة في عـام 1916م، تعلـم اللغة الفرنسية في المدارس الليلية ونبغ فيها، بمجهوده الخاص، وكان أول الناجحين في شهادة القسم العـالي منها، ولم يكن إقباله على تعلم هذه اللغة حبا في المظهر، بل ليستخدمها فيما يعود على قضية بـلاده ودينـه بالنفع. حيث اختير للتدريس بالقسم العربي بالأزهر الشريف، ثم بقسم التخصص ثم بالكليـات الأزهريـة في عام 1928م و 1929م و 1930م.

كما كان يطوف مع الشباب على السفارات الأجنبية ليعرض قضية بلاده، كما كان أيضا يدافع عـن الإسلام ضد مهاجميه في جريدة الطان الفرنسية.

اختير مبعوثا من الأزهر إلى جامعة السوربون في باريس، فأمضى هناك اثني عشر عامًا حاز فيها على شهادة الليسانس، ثم الدكتوراه، وكانت له رسالتان، الأولى بعنوان "القرآن" وهي باللغة الفرنسية لم تـترجم إلى العربية بعد. أما الرسالة الثانية، فقد ترجمها المؤلف في كتابه النبأ العظيم تحت عنوان "دسـتور الأخـلاق في القرآن" أما الترجمة الحرفية لها فهي "أخلاق القرآن"[2].

وعلى إثر عودته إلى الوطن - مصر - اعتلى منابرها في التوجيه والإرشاد الديني والتدريس في مختلف الجامعات والكليات، حيث انتدب لتدريس تاريخ الأديان بجامعة القاهرة، وحصل على عضوية جماعة كبار العلماء في عام 1949م، ثم ندب لتدريس التفسير بكلية دار العلـوم، واللغـة العربيـة بـالأزهر وتدريـس فلسـفة الأخلاق في كلية اللغة العربية، أتاه الله تعالى الحظ الأوفر في علوم الإسلام؛ فكان فيها العلم الذي يشار إليـه

---

[1] - ترجمته كاملة موجودة في كتابه: المختار من كنوز السنة النبوية الذي طبع على نفقة سمو أمير دولة قطر.

[2] - هذه الترجمة مأخوذة من كتابه "نخبة الأزهار وروضة الأفكار" وهو عنوان اختاره خادم العلم عبد الله ابراهيم الأنصاري لسلسلة أحاديث إذاعية للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز - بتصرف -.

وأوتي مثل هذا الحظ من علم أوربا، ولكن لم يبهره زخرف المدنية الغربية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية.

وفي عام 1935م اختير عضوًا في اللجنة العليا لسياسة التعليم كما اختير عضوا في المجلس الأعلى للإذاعة، إلى جانب اختياره في المؤتمرات الدولية والعلمية ممثلا لمصر والأزهر وفي اللجنة الاستشارية للثقافة بالأزهر.

وكانت آخر رحلة له رحلته إلى باكستان لحضور المؤتمر الإسلامي في مدينة "لاهور" في يناير عام 1958م وقد ألقى هناك بحثا عن "موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها" ثم وافاه الأجل المحتوم في أثناء انعقاد المؤتمر، ففقد العالم الإسلامي بوفاته مثلا فاضلا للعالم الأزهري، الغيور على دينه المحافظ على كرامته، المتصوف في مظهره وسمعته الداعي إلى صراط ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[1].

وقد عرف عنه أنه كان يقرأ كل يوم سدس القرآن وما ترك هذه العادة يومًا واحدًا حتى في إبان محنة الحرب التي عاصرها في فرنسا، وما كنت تراه إذا اختلى بنفسه إلا مصليا أو قارئا للقرآن[2].

وإذا كانت إقامته الطويلة في الخارج قد مكنته من علوم الغرب ومعارفه ومناهج البحث العلمي فإنها مع ذلك لم تصرفه لحظة واحدة عن دينه وإيمانه ولم تغير من خلقه، بل قد ازداد استمساكا بدينه وتشددًا فيه، فزاد بذلك وقارًا وجلالا.

والدكتور عبد الله دراز - رحمه الله - علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث آتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام، كما نهل من علوم أوربا الشيء الكثير واتصل بحضارتها اتصالا وثيقا دام سنوات طويلة.

وقد امتازت كتاباته - رحمه الله - بعمق وأصالة، وأفكار نابضة بالحياة، جمعت في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا، كل ذلك في أسلوب سلس رصين.

وتشتمل أعمال[3] الدكتور عبد الله دراز على مجموعة قيمة من الكتب والبحوث دينية وفلسفية:

---

[1] - النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن الكريم)، لمحة عن حياة المؤلف، ص6.

[2] - كتاب "نخبة الأزهار وروضة الأفكار" ترجمة السيد محمد بدوي.

[3] - الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان - تقديم الناشر - دار القلم.

أولا - الكتب:

1-التعريف بالقرآن (باللغة الفرنسية ويترجم إلى اللغة العربية).

2-الأخلاق في القرآن (باللغة الفرنسية ويترجم إلى اللغة العربية).

3-الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان).

4-النبأ العظيم (دراسات في القرآن).

ثانيا - البحوث:

1-أصل الإسلام.

2-الربا في نظر القانون الإسلامي.

3-مبادئ القانون الدولي العام في الإسلام.

4-رأي الإسلام في القتال.

5-العبادات: الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج.

6-بين المثالية والواقعية.

7-المسؤولية في الإسلام.

8-الأزهر الجامعة القديمة والحديثة.

9-كلمات في مبادئ الفلسفة والأخلاق.

10-مجموعة أحاديث إذاعية في الدين والأخلاق.

11-المختار في الحديث.

12-ونظرات في الإسلام.

13-وتفسير بعض سور وأجزاء من القرآن الكريم.

14- سلسلة أحاديث إذاعية مجموعة في كتاب "نخبة الأزهار وروضة الأفكار".

ومن الأجدر بأن نأخذ عنه هذه الدروس الممتعة، والأفكار الحية النابضة والمثل العليا الخالدة من أستاذ جليل من السلف الصالح. كرّس حياته للدرس والتدريس، وجمع في توازن عجيب بين علوم الدين

ومعارف الدنيا، واستطاع أن يجمع هذه العلوم والمعارف في ذهنه الجبار وعقله المتفتح المستنير، ويخرجها لنا مصفاة من الشوائب. محلاة بذلك الأسلوب الرصين الذي يبرز الفكرة في سهولة ويسر. فتأخذ طريقها إلى العقول والأفئدة.

لا يسعني تفصيل ذلك الآن، فلست بالمؤرخ لهذا الداعية العظيم.. بقدر ما يهمني إظهار ناحية خافية من نواحي حياته العلمية. إن الناحية التي تهمنا هي مجالسه الخاصة. التي كان يؤمها القوم من طلاب العلم والمعرفة فيتحدث فيهم ويوجههم وينصحهم ويعلمهم[1].

[1] – من كتاب "نخبة الأزهار وروضة الأفكار" ترجمة عبد الله إبراهيم الأنصاري – بتصرف –.

منهجه في كتاب النبأ العظيم:

لقد اعتبر الدكتور محمد عبد الله دراز تأليفه لهذا الكتاب النبأ العظيم واجبا دينيا في الدرجة الأولى إلى جانب كونه واجبا علميا لذلك لم يدخر وسعا وهو بصدد تحليلاته العلمية الموضوعية. من أن يعمق البحث. ويكثر من المناقشة. ويتطرق إلى الكثير من المسائل التي تهمه وتهم الناس. وفي الوقت نفسه ترد على مظان الظانين. وتبطل أقوال الطاعنين في القرآن الكريم شكلا ومضمونا.

لقد حدد الدكتور عبد الله دراز في فاتحة كتابه "نظرات جديدة في القرآن الكريم" منهجه في البحث وغايته منه. بأنه يرمي من وراء ذلك إلى عدة أمور: فيقول: "فإن هذه بحوثا من القرآن الكريم قدمتها بين يدي دروس التفسير.. أردت بها:

- أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه. وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته.

وقد راعيت في أكثر هذه البحوث شيئا من التفصيل والتحليل. وشيئا من التطبيق والتمثيل فلم اكتف بالإشارة حيث تكمن العبارة. ولا بالبرهان إذا أمكن العيان راجيا بذلك أن تنفتح لها عيون الغافلين فيجدوا نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.."[1].

فإذا ما انتهى من تحديد منهجه وعناصر بحثه. انتقل إلى تفصيل دقائقها حتى يمكنه إحكام القول في هذا الشأن. لذلك قسم الدكتور دراز بحثه في إعجاز القرآن. إلى أربع مراحل أساسية. كل مرحلة توصل إلى ما بعدها وترتبط بها. حتى يتسم عمله بطابع الوضوح. والتكامل الموضوعي والعلمي في آن واحد.

1-مرحلة التمهيد. 2-مرحلة التفنيد. 3-مرحلة التحديد. 4-مرحلة التأييد.

---

[1] - النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز. ص9. 10.

مرحلة التمهيد:

جعل هدفه تنشيط الهمم وتحفيزها على تدارك كتاب الله، ثم الدفاع عنه ورد كل ما أذيع حوله من أباطيل وأكاذيب، ثم التعريض بما ألف حول إعجاز القرآن وأكد ما عليه السلف عامة.

لقد رأيناه يصدر كتابه النبأ العظيم بمقدمة تمهيدية يحث فيها المسلمين الدارسين على تدارك كتاب ربهم وفهم مضمونه، ومشموله للوقوف في وجه الملحدين والمضللين الذين خاضوا في أصول الدين وشككوا ضعاف الإيمان واليقين في هذا العصر واتخذ سبيلا لذلك، إبراز أهمية القرآن الكريم من حيث هو حجة النبوة ودليل على صدق الدعوة، وصدق النبوة.

وبدأ هذا الأمر بتنشيط الهمم وتحفيزها على النهوض بواجبهم المقدس نحو الله عز وجل والناس بقوله: "أن كتاب النبأ العظيم مولود جديد.. قديم.. جديد في مقطعه ونهايته وقديم في مطلعه وبدايته.. أخذ بها أهبته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية إلى فضاء الثقافة العالمية لكي يتحدث إلى كل عقل واع ناقد، لا يأخذ ما يأخذ إلا على بصيرة وبينة ولا يذر ما يذر إلا على بصيرة وبينة وإلى كل وجدان تجريبي ذائق لا يكتفي بالخبر عن المعاينة ولا يستغنى بالوزن عن الموازنة إنه حديث يبدأ من نقطة البدء... فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معينة، ولا اعتناقا لمذهب معين ولا يفترض فيه تخصصا في ثقافة معينة: ولا حصولا على مؤهل معين بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء؛ إلا من فطرة سليمة؛ وحاسة مرهفة، ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن... وإنه إذا لواصل إن شاء الله"[1].

وهكذا فقد خص الدكتور دراز كتابه بالصفوة المختارة من الباحثين والمتأدبين والعلماء والمثقفين وليس للعامة أو الجهال، وهذا هو محور بحثه - الدكتور - إنه يخاطب فئة معينة من الواعين.

فإذا ما انتهى الدكتور دراز من هذه المرحلة التمهيدية، وبين هدفه ومبتغاه انتقل إلى المرحلة التالية.

---

[1] -النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص7، 8.

مرحلة التفنيد:

فقسم كتابه إلى بحوث متوالية. كل بحث يرتبط بما بعده، ويوصل إليه أيضا وفي الوقت نفسه يتصل بما قبله، تناول في كل بحث منها ناحية من النواحي التي وعد ببحثها تمهيدا لإبراز نظرات جديدة في القرآن الكريم، وتمكن الدارس من معرفة وجوه الإعجاز القرآني.

فافتتح هذه البحوث ببحثين تحدث فيهما عن تحديد القرآن[1] وبيان مصدره[2] تحديدا منطقيا وكذلك عن سر اختصاص القرآن بالخلود، وعدم التحريف دون الكتب السابقة..

ويذكر المؤلف أنه ما خص هذين المبحثين ولا ألفهما إلا للرد على مطاعن المضللين وتفنيد مزاعمهم حيث يبين في مقدمته "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم ينسب القرآن إلى نفسه، وأن هذا كان كافيا لتصديقه في ذلك، وقد عهد عنه الصدق، وما كان ليضره لو نسبه إلى نفسه شيئا، لولا صدقه وصدق رسالته ويدل على صدقه فرق ما بين القرآن وحديثه، وفرق ما بين الحديث القدسي والقرآن، وما بين الحديث القدسي و حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -"[3].

فالقرآن إذاً صريح في أنه "لا صنعة فيه لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولا لأحد من الخلق وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه"[4].

ويبين الدكتور دراز أيضا خطأ هذا الزعم، ويستدل على ذلك من سيرته المطهرة[5] قبل النبوة وبعدها، ثم يبين أن الأخبار الغيبية التي يأتي بها عن الماضين لا يمكن أن تأتي من التأمل الذاتي ومن الفطنة، وقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - أميا لم يقرأ في كتاب، ولم يتعلم على أحد ولا سمع ذلك من إنسان.

ومما يؤكد ذلك أكثر هو أن مجمل أخبار القرآن كان معروفا، ولكن التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب لم يكن ليعرفها مثله: "كلبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وبقاء أهل الكهف

---

(1) -النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص12.

(2) - المصدر نفسه، ص20.

(3) - فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص368.

(4) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص21.

(5) - المصدر نفسه، ص23.

ثلاثمائة سنة شمسية تزيد تسعا قمرية[1] هذا فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية، أما فيما يتعلق بالمعلومات الدينية[2] فهناك تفصيلات عن الجنة والنار وافقت ما في الكتب السماوية الأخرى، ولا يعقل أن يدركها - إذا لم يكن نبيا - إلا بالتعليم ولكنّ هذا التعليم لم يحصل له.

وأما النبوءات الغيبية[3] فلا يمكن أن يجزم بها إلا من كان لا يخشى الفضيحة إذا كان كاذبا أو من كان قد اتخذ عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده، وتلك سنة الأنبياء والمرسلين.

ولا يترك الدكتور عبد الله دراز إثبات أن نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - مبنية على دلالة معجزة القرآن دون أن يبين ويحدد وجه هذه الدلالة لذلك أعقب هذين المبحثين في الدلالة على أن القرآن معجزة في ذاته وأنه من عند الله تعالى.

وقد اعتمد الدكتور دراز في تبين وجه الدلالة على بيان أن طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء، وصدق الفراسة، والحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها ودليله على ذلك هو أن أخباره كانت كلها صادقة، ولم تكن خليطا من الصدق والكذب كما يفعل الخراصون أو المتكهنون[4].

وقد عني المؤلف بذكر ثلاثة أنواع من النبوءات:

أ - ما يتعلق بالإسلام

ب - ما يتعلق بمستقبل حزب الله.

جـ - وما يتعلق بمستقبل حزب الشيطان.

أ - وقد ضرب الدكتور دراز أمثلة على النبوءات المتعلقة بالإسلام آيات كثيرة منها: قوله تعالى: "كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ"[5] وقوله

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز،ص36، 37، 38.

(2) -المصدر نفسه، ص40.

(3) -المصدر نفسه، ص41.

(4) - فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص 369.

(5) - الرعد: 17.

تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا"[1] وقوله تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[2].

ويقول الدكتور دراز: إن هذه الآيات مكية نزلت في فترة ضعف النبي وغموض مستقبل أمره، ومعروف أنه لم يكن يطمع في النبوة قبل نبوّته: "وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ"[3] ولم يكن يضمن لنفسه أن يستمر له الوحي: "وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً، إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا"[4][5] فلا بد من كفيل لهذا الجزم ببقاء الإسلام ونجاحه وخلوده على الزمن خارج عن نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الله الذي بيده زمام الحوادث كلها.

وبرهان آخر: وهو أن جميع الحروب التي قامت لمحو القرآن (والإسلام) وجميع الأموال التي تنفق لمحوه في الصحافة وغيرها اليوم من أعدائه، لم يظفر أهلها بسوى الخيبة:

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ"[6].

وبرهان آخر: هو التحدي في القرآن لمن يأتي بمثله: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ..."[7] فكيف يأمن النبي - صلى الله عليه وسلم - لنفسه أن يتحدى قومه وسائر معاصريه، ثم يتحدى الأجيال القادمة إلى يوم القيامة لو لم يكن صادقا.

---

(1) - إبراهيم: 24، 25.

(2) - الحجر: 9.

(3) - القصص: 86.

(4) - الإسراء 86، 87.

(5) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص42، 43، 44.

(6) - الأنفال: 36.

(7) - الإسراء: 88.

وبرهان آخر: هو الآية التي تضمن للنبي - صلى الله عليه وسلم - حماية شخصه "يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ"[1] وقد وثق النبي بقول ربه[2].

روى الترميذي والحاكم عن عائشة، وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي يحرس بالليل، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: "يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله" ثم ذكر المؤلف حادثة الذي سلّ السيف على النبي، وثباته عليه السلام في عزوة حنين[3].

ب - وضرب الدكتور دراز أمثلة على مستقبل المسلمين، الآيات: "وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْنًا"[4] وقد نزلت هذه الآية، وأعداء المسلمين يحيطون بهم من كل جانب في المدينة، وهم في خوف شديد[5].

وبرهان آخر: وهو قوله تعالى: "لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ"[6] وهذه الآية تتعلق بعمرة القضاء بعد صلح الحديبية.

وكذلك آية نصر الروم على الفرس، وقد تراهن المسلمون والمشركون عليه وهي: "الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ" وقد ربط به نصر المؤمنين، فأكمل الآية: "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللهِ" فجمع بين نصرين بعيدين عن تصديق الناس حينئذ، وأكد ذلك أعظم التأكيد: "وَّعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[7].

---

(1) - المائدة: 67.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص44، 45.

(3) - المصدر نفسه، ص46.

(4) - النور: 55.

(5) - المصدر السابق، ص 47.

(6) - الفتح: 27.

(7) - الروم: 1، 6.

وقد وقع النصران في يوم واحد بعد تسع سنين: نصر الروم على الفرس، ونصر المسلمين على المشركين في بدر، كما رواه الترمذي عن أبي سعيد، والطبري عن ابن عباس[1].

جـ - وقال الدكتور دراز في النوع الثالث، وهو مستقبل المشركين:

استعصى المشركون على النبي - صلى الله عليه وسلم - فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، ونزل قوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ" إلى قوله: "إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ"[2] وقد تحقق ما نصت عليه الآية: وقع فيهم قحط حتى أكلوا العظام، ورأوا ما هو كهيئة الدخان بين السماء والأرض، ثم خفف الله عنهم، ثم عادوا إلى المكر، فانتقم الله منهم[3].

وتارة يعيّن القرآن العذاب بأنه الهزيمة الحربية: ""سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ"[4] حتى إن عمر نفسه قال: أي جمع هذا؟ ثم سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يكررها يوم بدر[5].

وقال في اليهود: "ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ"[6] وقد جاؤوا الآن إلى فلسطين فهل جاؤوا إلا بحبل من الناس، وماذا يفعلون حين ينقطع بهم هذا الحبل؟

فأنظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريبا وبعيدا، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتا وتأبيدا، وكيف يكون الدهر مصداقا لها فيما قلّ وكثر وفيما قرب وبعد.

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 49.

(2) - الدخان: 10، 16.

(3) - المصدر السابق، ص50.

(4) - القمر: 45.

(5) - المصدر السابق، ص51.

(6) - آل عمران: 112.

أترى هذا النبي الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه؟ لا بد أنه جاء به من مصدر وثيق. والأنبياء - عليهم السلام - ومنهم محمد - صلى الله عليه وسلم - في أحاديثهم مع الناس يخطئون، وليس كذلك ما ينبئ به القرآن: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا"[1][2].

هكذا استدل الدكتور دراز على ذلك بأدلة من القرآن نفسه تثبت أن الله سبحانه وتعالى حين ابتعث نبيه - صلى الله عليه وسلم - جعل معجزته القرآن، وبنى أمر نبوته عليه.

ثم أكد المؤلف أمية النبي - صلى الله عليه وسلم - وجهل البيئة العربية التي عاش فيها وأن النبي لم يكن له معلم بما يلي:

1 - أن القرآن وقف من المسيحيين واليهود موقف المصحح لأخطائهم لا موقف المتعلم منهم[3].

2 - أن المعلم الذي زعموه للنبي حداد رومي، كان في مكة، عرفته حوانيتها وأسواقها ولم تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير، ولكنه لم يكن أميا ولا وثنيا مثلهم، بل كان نصرانيا يقرأ ويكتب، ولذلك جعلوه أستاذًا لمحمد - عليه الصلاة والسلام -[4].

ثم يبين المؤلف ضعف قولهم، ويستحمقه، ثم يرى أن اتهام المشركين النبي بأنه "معلم مجنون"[5] هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم (الوحي النفسي)، وهو أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذو خيال واسع، وإحساس عميق، فهو إذا شاعر فجعلوا وجدانه يطغى على حواسه كثيرًا حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصا يكلمه فهو إذا الجنون وأضغاث الأحلام، ثم أضربوا عن الوحي النفسي إلى أنه علمه معلم خلال أسفاره للتجارة: "كَذَلِكَ قَالَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ"[6] وهم يظهرون الاعتقاد بصدقه، وأمانته فكيف يتوافق هذا مع تصريح القرآن بأنه لم يعلمه أحد. وإذا كان قد علمه أحد فهو يكذب،

---

(1) - النساء: 82.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص52، 55.

(3) - المصدر نفسه، ص56، 63.

(4) - المصدر نفسه، ص64.

(5) - الدخان: 14.

(6) - البقرة: 118.

ومحور التعليم أنباء الماضي والحاضر، ومثل هذا الموقف وصف الله بـه المشركين "فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ"[1][2].

ويرى الدكتور دراز أن الدافع الحقيقي إلى تكذيب الوحي هو الإستكبار عن أتباعه والتمسك بتقاليد المكذبين وأهوائهم: "بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ"[3] ويستدعي ذلك أن يتحدث عن ظاهرة الوحي وكيف كان يظهر حين يأتيه على نفسه ووجهه وجسمه، ويستنتج انها لم تكن متكلفة أو اختيارية، ويصفها بأنها عارض غير عادي ولا مرضي، وأنها مصدر علم لا جهالة. وأنها لم تكن من طبيعة محمد - عليه الصلاة والسلام - ، ولو كانت كذلك لظهرت في حالة اليقظة العادية أكثر منها في حالة الغيبوبة عن النفس، (ولكان كلام القرآن متساويا مع الحديث النبوي) ومن أين يجئ النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه المادة الفكرية الخصبة إلا من مصدر الألوهية؟ "عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ"[4]. ولو كانت هذه الظاهرة شريرة لنسبت إلى الجن والسماء مرصودة بشهب تحول دون استماعهم، ولا يتناسب الشر مع طهر النبي وسمّوه[5].

ويرى المؤلف أنه إنما يصدّق النبوة من يؤمن بالغيب، وينكرها من أوتي بعض العلم فظن أنه أوتي كل شيء، ويقول"إنه لا يسوغ اليوم الشك، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية.

ومن هذه الآيات العلمية في نظره "الهاتف" الذي يتخاطب به دون رؤية ويتساءل أيفسّر أزيزه الأزيز الذي يشبه أزيز النحل حين الوحي؟

---

(1) – الأنعام: 33.

(2) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 67.

(3) – المؤمنون: 70.

(4) – النجم: 5 ، 6.

(5) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص70، 73.

ومنها أعجوبة التنويم المغناطيسي الذي لا يمكن أن يقوم به المرء مع نفسه، وإنما يكون بين اقوى واضعف إرادة. وقد فطن لأعجوبة التنويم في الوحي الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (مجلة الهداية الإسلامية ربيع الأول 1352 هـ). ويذكر أن المنوم من البشر يبقى في حدود القدرة الإنسانية ولا يتجاوزها[1].

ويرى أنّ ما يتجاوز طاقة البشر يدل على أنهم ليسوا مصدره، ولا يخالف ذلك إلا المكابرون المعاندون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، وإلا الشاكون المضطربون[2].

وهكذا إذن. لقد فند الدكتور دراز ما أذاعه الملحدون والمغرضون حول القرآن من أباطيل وافتراءات سبق أن وردت على ألسنة مشركي قريش منذ أن أنزل الله القرآن على قلب نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فنراه يسفه آراء هؤلاء الملحدين ويصفهم بالجهل والبعد عن الرشد... وأنه ما خصص هذه البحوث ولا ألفها إلا للرد على المتكلمين في القرآن الكريم وتفنيد مزاعمهم.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 75.

[2] - فكرة إعجاز القرآن الكريم، نعيم الحمصي، ص373، 374.

مرحلة التحديد:

فإذا ما أثبت عبد الله دراز معجزة النبوة، وإذا ما أصل الأصول التي أعتمدها في بيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز في ذاته، انتقل إلى صلب موضوعه وهو تحديد وجوه إعجاز القرآن الكريم وهنا تبدأ المرحلة الثالثة مرحلة التحديد بعد أن أجتاز مرحلي التمهيد والتفنيد.

يقرر الدكتور عبد الله دراز في هذه المرحلة من البحث من كتابه "النبأ العظيم" وجوه الإعجاز[1] فرأى أنه في أسلوب القرآن وعلومه، وفي الأثر الذي أحدثه في العالم وغيّر وجه التاريخ، مع السّماح للمختبر أن يفترض مختلف البيئات ومختلف القدرات البشرية التي أحاطت بالنبي - صلى الله عليه وسلم -.

يبدأ المؤلف بأن القرآن "معجزة لغوية"[2] فيناقش عدة افتراضات:

أ - أن يظهر المنكر في نفسه أنه يحسن مثل القرآن.

ب - أن يعرف قصوره هو، دون أن يعرف قصور غيره من الناس.

جـ - أن يعرف أن الناس سكتوا عن معارضته، ولكنّ سكوتهم ليس عن عجز وأنه ليس من ناحية القرآن ذاته.

د - أن يعرف أنهم عجزوا عنه ولكنّه لم يعلم أن أسلوبه سبب إعجازه.

هـ - أن يعرف أن القرآن كان ولا يزال معجزة بيانية، ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزا لمن جاء به، أي: للنبي نفسه - صلى الله عليه وسلم -.

و - أن يؤمن بإعجازه ولكنّه لا يعرف أسراره وأسبابه.

ويرد على هذه الافتراضات واحدًا واحدًا، ونوجز رده بما يلي:

يتحدث عن ابن المقفع، وأبي الطيب المتنبي، وأبي العلاء المعرّي، الذين نسبت إليهم معارضة القرآن من القدماء، وعن زعماء القاديانية والبهائية، الذين حاولوا أن يضعوا دستورا دينيا كالقرآن، ويتحدث عن آيات

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص79.

[2] - المصدر نفسه، ص80.

التحدي ويجعلها مرتبة بحسب الكم المتحدى به من جميع القرآن إلى سورة منه. ويذكر آية سورة البقرة من بينها، وينتهي إلى أنه لم يستطع أحد معارضة القرآن[1].

ويتعرض للصرفة[2] ويذكر أن القرآن يستعمل ألفاظ العرب. ولكنه يكيّف هذه المادة الخام تكييفا لم يستطعوه. كالمادة البنائية يستعملها المهندسون، ولكنهم يتفاوتون في مدى الإجادة. فالقرآن يضع الشيء واللفظ في مواضعه. ولا بد لمن يريد أن يتذوق إعجاز القرآن البلاغي من أن يكون في مستوى كاف من الذوق والفهم الأدبيين. وناقش قضية اختلاف الأساليب وخصوصيتها الذي يجعل كل كاتب عاجزا عن مجاراة الآخر في أسلوبه. بين أن المقصود في التحدي ليس الإتيان بمثل أسلوب القرآن، بل الإتيان بكلام يساويه في البلاغة مهما كان الأسلوب. وقال: إن المسابقات الأدبية لا تشترط أسلوبا واحدًا [3] [4].

ثم يبين أنّ الكلام المحمدي على بلاغته لا يقارب القرآن بلاغة فضلا عن أن يساويه وأن الفرق بين القرآن وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يمكن أن يكون الفرق بين القول على البديهة والقول على الرّويّة، لأن كلاً من القرآن والحديث كانت تتناوبه المفاجأة والتريث. ومع ذلك فهما متفاوتان..

وأسلوب المتكلم يختلف جودة بين الرّويّة والبديهة. ولكن بعضه يبقى من بعض ويقرر المؤلف أن "الأسلوب القرآني يحمل طابعا لا يلتبس معه بغيره، وأن العلم والفهم والذوق تشهد أن أسلوب القرآن لا يدانيه أي أسلوب آخر، فهو صنعة ليس كمثلها شيء لصانع ليس كمثله شيء[5].

وينص المؤلف أنه سيأتي بأمثلة يبرز منها سرّ الإعجاز، ولكنه يقرّ بأنه كأسلافه ومعاصريه، عاجز عن الاستقصاء، وأنه يأتي بأمثلة.

ويتحدث عن أسلوب القرآن، فيرى أن الظاهرة الأولى: فيه تأليفه الصوتي في شكله وجوهره. ففيه لحن عجيب لا يوجد في كلام آخر، وفي هذا اللحن اتساق وائتلاف يشبه أثر الموسيقى والشعر، ويزيد عنهما

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص81، 85.

(2) – المصدر نفسه، ص86.

(3) – المصدر نفسه، ص94.

(4) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص375.

(5) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص100، بتصرف.

أنه دائما في لحن متنوع متجدد يطرد الملالة مهما تكررت التلاوة. وهذا الجمال التوقيعي يدركه الأعاجم الذين لا يعرفون لغة العرب.

والظاهرة الثانية في أسلوب القرآن لدى المؤلف أنه استوفى فصاحة الكلام في النطق من حيث تآلف الحروف وتفاوتها، والجمع بين جزالة البادية وفخامتها ورقة الحاضرة وسلاستها، وامتزاجهما فيه امتجازا عجيبا. هذا الجمال التنسيقي.

وتتألف من هاتين الظاهرتين القشرة السطحية للجمال القرآني، وهما كالأصداف التي تحتوي اللآلئ وهي في الوقت نفسه تصونها. "الجمال التوقيعي والجمال التنسيقي معا"[1].

وذكر المؤلف أن في نظم القرآن عزة وغرابة جعلاه فوق محاولة تقليده. وعدّ ذلك منعة طبيعية فيه، وأرجع ذلك إلى غريب تأليفه في بنيته. والنظام الفريدي الذي اتخذه في رصف حروفه وكلماته. وجمله وآياته، وخرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه. ولو أدخل فيه كلام آخر لتكشف للناس ضعفه: "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لاَّ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[2][3].

وقد ترك المؤلف هنا الحديث عمّا حواه القرآن من العلوم الخارجة عن متناول البشر: لأنه سيبحثه في الإعجاز العلمي إلى النظام المعنوي[4] وفيه ما هو أروع وأبدع من التآلف اللفظي. ويريد به النظر إلى دلالة الألفاظ من حيث هي أداة لتصوير المعاني. ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس السامع، ويرى أنها أعظم الناحيتين أثرا في الإعجاز اللغوي، فاللغة في نظر المؤلف إنما هي ألفاظ تتفاضل من حيث هي بيان أكثر مما هي أجراس وأنغام.

وتعتمد الفضيلة البيانية دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء أكان من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لم يكن، وسواءً أكان حقيقة أم خيالا وهدىً أم ضلالاً والفضيلة البيانية في هذه الأمور عكس الفضيلة العلمية التي تعود إلى المعنى بغض النظر عن الأسلوب واللغة.

وقد جعل الدكتور دراز كلامه على خصائص القرآن البيانية أربعة مراتب:

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 101، 104.

(2) – فصلت: 41، 42.

(3) – المصدر السابق، ص105.

(4) – تحدث عن الإعجاز العلمي في كتابيه "الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان" وكذا "مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن".

1 – القرآن في قطعة قطعة منه.

2 – القرآن في سورة سورة منه.

3 – القرآن فيما بين بعض السور بعض.

4 – القرآن في جملته[1].

ويحمل المؤلف على القول الذي نقله الآلوسي عن مجهول يذهب بـه إلى أن التحـدي لم يقـع بمطلـق سورة، بل بسورة (تبلغ مبلغا يتبين فيه رتب ذوي البلاغة): لأن هذا القول كأنه ينفي أن يتبـين الإعجـاز في مقدار ثلاث آيات. وعلى أنه يعترف أن هذا القول ليس قادحا في إعجاز القرآن، فإنه يـرى قصـور قائلـه عـن فهم بلاغة القرآن المعجزة في كل سورة منه مهما قصرت[2].

القرآن في قطعة قطعة منه: يرى الدكتور دراز أن أسلوب القـرآن معجـز في وصفه كمـا هـو معجـز في نفسه وأنه تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها، على تباعد ما بين أطرافها، وأنه يمتاز بما يلي[3]:

أ – القصد في اللفظ.

ب – الوفاء بالمعنى واطراد ذلك فيه جميعه على صعوبة الجمع بين الصفتين.

جـ – خطاب العامة وخطاب الخاصة معًا على اختلاف الخطابين.

د – إقناع العقل وإمتاع العاطفة معًا على اختلافهما وتكافؤ القوتين وانسجامهما.

ففي فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة كما يرى في سـورة القصـص وسـورة يوسف، وفي معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب فإذا نظرنا إلى البرهان: "لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَـةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ"[4] نجـد أنـه عقلـي خطـابي شـعوري. وإذا نظرنـا إلى الحكـم: "يَـٰأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالاُنثَىٰ بِـالاُنثَىٰ فَمَنْ عُفِـيَ لَهُ مِنَ اخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِـكَ

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص106، 107.

(2) – المصدر نفسه، ص107.

(3) – المصدر نفسه، ص108.

(4) – الأنبياء: 22.

﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] ففي هذه الآية استدراج إلى الطاعة: يا أيها الذين آمنوا، وترقيق للعاطفة بين الواترين والموتورين: أخيه بالمعروف. بإحسان. وامتنان: تخفيف من ربكم ورحمة، ثم تهديد في ختام الآية.

ز – البيان.

ح – الإجمال: وهو يجمع بينهما على اختلاف وتناقض في طبيعتيهما[2].

فأنت تكشف معاني جديدة كلما عدت إليه. وكأن الجملة فص ماس بهرك بمنظره العام وكل وجه منه له إشعاعه، وهو يوحي بمعاني كثيرة، ويضرب المؤلف مثلا على ذلك الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[3] وانظر هل ترى كلامًا أبين من هذا في عقول الناس. ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة فإنك لو قلت في معناها: انه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ولا سائل يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره على هؤلاء، أصبت.

ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف النفاد أصبت

ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب أصبت.

ولو قلت: إنه يرزق بغير معاتبة ومناقشة له على علمه أصبت.

ولو قلت يرزقه رزقا كثيرًا لا يدخل تحت حصر وحساب أصبت. فعلى الأول يكون الكلام تقريرا لقاعدة الأرزاق في الدنيا وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق من استحقاق بعلمه أو عمله، بل تجري وفقا لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين. ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين.

وعلى الثاني يكون تنبيها على سعة خزائنه وبسطه يده جل شأنه. وعلى الثالث يكون تلويحًا للمؤمنين بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسرا وفقرهم غنى من حيث لا يظنون. وعلى الرابع والخامس يكون وعدًا للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب، وإما بمضاعفة

---

[1] – البقرة: 178.

[2] – النبأ المظيم، عبد الله دراز، ص109، 117.

[3] – البقرة: 212.

أجورهم أضعافا كثيرة لا يحصرها العد. ومن وقف على علم التأويل واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب[1].

ويرى الدكتور دراز أن النص القرآني وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع، والآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: "كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا"[2].

ويقول الأستاذ نعيم الحمصي: وأعتقد أن في هذا الكلام نظرًا ولست أسلم به ولا سيما في أوجه الخلاف الشديد إذا وقعت. فالحق يكون في جانب منها ما دام دقيق الأداء، وقولي هذا لا يخالف مميزة الإيحاء؛ لأن الوجوه المختلفة في العبارة الموحية تصدر من معين واحد[3].

وأخذ الدكتور دراز في ضرب الأمثلة على الخاصتين الأوليين: دقة التعبير القرآني، ومتانة نظمه وتأدية المعنى الوافر في اللفظ القاصد من عرض القرآن - ولو لم يأخذه من الأمثلة التي اختارها البلغاء منذ القديم وهي: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ"[4] وهو: "وإذا قيل لهم ءامنو بمآ أنزل الله قالوا نومن بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ"[5] هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل. والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

1 – مقالة ينصح بها الناصح لليهود، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

2 – إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين.

3 – الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه.

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص118.

(2) – الإسراء. 84.

(3) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص378.

(4) – البقرة: 179.

(5) – البقرة: 91.

وقد أحسن حقا في بيان مراده وهو يفسر الآية[1].

ثم ذكر خاصة مهمة وهي أن القرآن يعرض الآية دون انفعال، كما يكون في كلام البشر عادة، وإنما تظهر فيه قوة أعلى من أن تنفعل، فهي تؤثر ولا تتأثر وفي كبرياء وعظمة وعزة.

ويستوي في الدقة وفي الاقتصاد باللفظ مقام الإيجاز ومقام الإطناب فيه على حد سواء ولذلك يجعله إيجازا كلّه.

وقد ضرب مثلا آخر على دقة التعبير القرآني الآية: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"[2] وخطأ من قال بأن الكاف فيها زائدة أو مؤكدة، ولم يكتف بتفضيل بقائها على أصلها بل أعطاها وظيفة هامة في الآية، وأتى إلى ذلك من طريقين[3]:

الأول: لو قلنا: ليس مثله شيء بحذف الكاف لنفينا وجود المثل الكامل، وقد يخطر في الذهن وجود المثل المقارب، فدخول الكاف نفى وجود المماثلة أصلا، نفى المثل المماثل تمامًا ونفى المقارب.

الثاني: ليس كمثله شيء: يريد بالمثل الثانية، مثل فلان (في كمال صفاته) قياسا على قولك: مثل فلان لا يكذب ولا يبخل، ويكون الأداء: لا مثل لمثل فلان: فمثل الثانية أدت معنى كمال الصفة، ونفي المماثلة جاء بمثل الأولى المنفية، أي إنّ هذا المثل الأعلى في صفاته لا يوجد له مثل[4].

وفي هذه الآية برهان على إثبات الصانع لم يقم على إبطال التعدد بإبطال لوازمه كما في الآية: "لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا"[5] وإنما قام على نقض فرض التعدد من أساسه، وقرر استحالته الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار. فهو يقوم على أن حقيقة الإله ليست من الحقائق التي تقبل التعدد

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص119، 127.

(2) – الشورى: 11.

(3) – المصدر السابق، ص132، 134.

(4) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص379.

(5) – الأنبياء: 22.

والتماثل لأنها الكمال التام المطلق (لا الإضافي الناقص). المتقدم على كل شيء المبدع (الخالق) المستعلى ذو السلطان على كل شيء[1].

وقد يحذف القرآن في إيجازه بعض الأصول (إيجاز حذف)، ثم يجعل باقيها دالاً عليها موهمًا القارئ أو السّامع أنّ اللفظ يفيض عن المعنى.

وقد عرف العرب إيجاز الحذف قبل ولكن لا في مستوى القرآن. وضرب المؤلف على ذلك مثلا الآية: "وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ"[2] وقد جاءت هذه الآية في جواب قولهم: "اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"[3] ثم طغيانهم واستعجالهم بالعذاب غرورًا وتحديا.

وقد حذف في الآية جملة (ولكنه قد جرت سنته التي لا تتبدل بأن يمهل الظالمين ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمّى وعلى وفق هذا النظام المسنون نذر...إلخ).

والذي ساعد على هذا الحذف مع بقاء مفهومه (لو) الإمتناعية في صدر الآية و(فاء) التفريع التي جاءت قبل الفعل (نذر) لكي تنّم عن أنّ لهذا الفرع أصلا من جنسه.

وقد عزز الفاء بقوتين أخريين خوفا من أن تلتبس بالعاطفة، فقد استعمل بعدها المضارع بعد استعماله الماضي (قضى)، ثم الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم (نذر) بعد أن قال (يعجل الله)، ليشعر بالانقطاع عن العطف. وكان مع ذلك الافتنان في الأسلوب تجديدًا لنشاط السامع، وإيراد الوعيد إرهابا.

ولما حذف طرفين من الأطراف الأربعة في الآية أبقى من كل منهما واحدًا هو نظير ما حذفه من صاحبه لينبه بالمذكور على المحذوف: فكانت كلمة التعجيل منبهة على نظيرتها في المشبه به، وكلمة الاستعجال منبهة على مقابلتها في المشبه[4].

وبيّن سر الإمهال، وهو عدم استجابته للاستفزاز وإجراؤه الأمور كما يريد ويقدر وقد استعمل المضارع بعد (لو) مكان الماضي ليدل على التكرار والاستمرار.

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص134.

(2) – يونس: 11.

(3) – الأنفال: 32.

(4) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص137 – 139.

ولم يستعمل (لعجّله) في جواب لو (أي: لو عجل الشر) ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول أي: لعجّل منه نوعا خاصًا هم له أهل، وهو العذاب المستأصل الذي تقضى به آجالهم.

ولم يقل (فنذرهم) بل قال: "فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا" لغرضين:

1 – بيان أنّ سبب استعجالهم هو عدم إيمانهم بالبعث.

2 – بيان أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة[1].

القرآن في سورة سورة منه[2] انتقل المؤلف من الحديث عن القطعة من القرآن التي قد تكون آية واحدة، وقد تكون مجموعة آيات في موضوع واحد إلى الحديث عن السورة الكاملة وهي التي تكوّن وحدة من كثرة من الآيات.

وهو يرى أن الثروة المعنوية، على وجازة لفظها، يزيّنها ويجمّلها تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

ويرى كذلك أن حسن النظم كالمرآة للمعنى، وانه لا بد لإبراز الوحدة الطبيعية من إحكام الوحدة البيانية، فحسن النظم ضروريّ في أداء المعنى الواحد وضروري في أداء المعاني المتعددة: حتى لا تكون مجموعا متنافر الأجزاء، فإنه لا يكفي جودة الأجزاء ولابد من إجادة ترابطها.

ويزداد الأمر صعوبة إذا كانت الأغراض المختلفة ترجع إلى ظروف مختلفة وأزمان متطاولة. وقد عرض قبل نظام تأليف القرآن البياني في القطعة منه، ويريد الآن بيان حسن تأليفه في السورة التي تتنوع فيها الموضوعات وتتفاوت الظروف[3].

ويذكر أن القرآن لا يستمر على نمط واحد من التعبير كما لا يستمر على هدف واحد من المعاني وأنه في أداء المعنى الواحد ينتقل بين أساليب متعددة دون أن يضطرب أو يتعثر، بل يكون منظرًا مؤتلفا متسقًا،

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص140.

[2] – المصدر نفسه، ص142.

[3] – المصدر نفسه، ص143.

مما يجعل فيه طراوة وتجديدًا للنشاط، وطردًا للملل. وسبب ذلك خاصة القرآن الصوتية، وأهم منها: الافتنان في الأساليب والأغراض. بحيث يكون القارئ أمام سلسلة من المناظر الرائعة لا أمام منظر واحد[1].

ثم ذكر أن القرآن كان يتنزل آحادًا مفرقة على حسب الوقائع والدّواعي المتجددة. وأنّ هذا الانفصال الزماني بينها والاختلاف الذاتي بين دواعيها داعيان إلى ضرب من الاستقلال وعدم التواصل والترابط. فكيف اجتمعت في سورة واحدة سردا وكوّنت حديثا واحدًا متّصلا.

هذا لا يتأتى في الحديث النبوي ولا في غيره من الكلام[2].

ثم يقول: وشيء آخر عجيب يدل على أن القرآن معجز وأنه من لدن الله ذلك هو طريقة نزول القرآن وطريقة جمعه فقد نزل القرآن نجوما بحسب الحوادث وكان النجم منها يوضع في مكان كذا من سورة كذا، ولا يراعى فيه التتالي التاريخي للنزول. فقد ينزل نجم متأخر يوضع قبل نجم متقدم، ولم تكن الحوادث إلا طارئة ولم تكن مرسومة. ولا مخططًا لها إلا من قبل الله خالق كل شيء. فكيف تكوّن من المجموع على هذه الصورة سور متكاملة في المعاني منسجمة في المباني دون أن يكون فيها خلل، ودون أن تغير فيها المواقع أو يعاد فيها النظر. لولا أن يكون الذي أنزل القرآن وحدد لكل نجم مكانه هو خالق الأكوان ومقدر الأحداث[3].

وهذه هي المعضلة الإنسانية الكبرى في الاهتداء إلى تحديد وضع كل من جزء من أجزاء المركب قبل تمام أجزائه بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء.

ثم يقول: أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم. وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ولا يتمكث؛ كان قد أعدّ لهذه المواد المبعثرة نظامها وهداها في إبان تشتيتها إلى ما قدّره لها حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم، وسرى بينها هذا المزاج العجيب سبحان الله! هل يمترى عاقل في أن هذا العلم البشري؛ وأن هذا الرأي الأنف البدائي الذي يقول في الشيء: "لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت، ولقدمت أو أخرت" لم يك أهلا لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير؟ أليس ذلك وحده آية بينة

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ، ص144.

(2) – المصدر نفسه، ص145.

(3) – المصدر نفسه، ص 146، 153، وفكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص382.

على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخير؟ بلى؟"وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"[1] [2].

[1] - النساء: 82.

[2] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص157.

مرحلة التأييد والإثبات:

وهي مرحلة تقديم المبرهنات والمؤيدات.

لقد ذكر الدكتور دراز أن ترابط القرآن الموضوعي الأسلوبي معًا، مع نزوله في فترات متباعدة بحسب الوقائع والمناسبات، وكون المتأخر منه نزولا في الزمن قد يأتي في الترتيب قبل ما نزل قبله، مع تحقيق الانسجام في الموضوع والمعاني والأسلوب وكون ذلك الترتيب كله توقيفيا.

ويرى أيضا أن اجتماع ذلك كله معجزة في حد ذاته، ويعلله بأن الذي رتب الأحداث في القدر هو نفسه الذي رتب سور القرآن وآياته في هذه الصورة الكاملة.

وقد اختار المؤلف سورة البقرة على طولها وكثرة نجومها، وعدم توالي هذه النجوم في النزول بحسب تسلسلها في الترتيب ليجعلها شاهدًا على حسن الانسجام والارتباط برغم أنها بلغت نيفا وثمانين نجما، بحسب ما اطلع عليه من أسباب النزول، وأنها أطول سورة، وقد بلغت بضعا وثمانين ومائتي آية، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددا، وفيها تذكر أحداث هامة، كتحويل القبلة، وصوم رمضان وأول قتال وقع في الإسلام وفي الشهر الحرام، وقد نزل ذلك في السنة الثانية للهجرة على حين نزلت آية الخاتمة، وهي آخر آية، نزلت من القرآن على الإطلاق في السنة الثامنة، وهي قوله تعالى: "واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله..."[1] وكان المفروض بحسب الطاقة الإنسانية ألا يأتلف الكلام، وبين بعضه وبعض هذه الفترات الطويلة.

وهو يرى بين أجزاء هذه السورة وشائج وصلات قوية: فكل جزء يرتبط بما قبله وما بعده ارتباطا وثيقا، ولذا نراه يعرض السورة عرضا واحدًا يبين فيه خط سيرها إلى غايتها، ويبرز وحدة نظامها المعنوي في جملتها، ويظهر كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى[2].

وقد استنار برأي الإمام الشاطبي في "الموافقات"، وذلك بصدد عرض سورة "المؤمنون" في المسألة الثالثة من الكلام على الأدلة تفصيلا: (إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوّله وأوّله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استفتاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية)[3].

---

(1) – البقرة: 281.

(2) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص157، 158، وفكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص383.

(3) – المصدر نفسه، ص159.

يقرر الدكتور دراز أن من الخطأ أن ينظر الناظر إلى الصلات الجزئية بين قضيتين منها دون النظرة الكلية، فإن ذلك يؤدي إلى رؤيات وأحكام خاطئة.

ويرى أن الباحث يجب أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية وقد خطأ بعضهم كأبي العلاء محمد بن غانم. وعز الدين بن عبد السلام حين زعما أن في القرآن اقتضابا بني عليه أنه ينتقل من موضوع إلى آخر غير ملائم؛ لأنه نزل نجوما في فترات مختلفة وفي موضوعات متباينة[1].

ويذكر أن من خصائص القرآن الأولى أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالا يرده إلى الإطالة الملة. كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟ وأنه لا ينتقل في حديثه انتقالا طفريا يخرجه إلى حد المفارقات - الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام كيف وهو القول الرصين المحكم؛ كلا، بل الحديث فيه كما علمت ذو شجون. ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواما لائتلافها.

وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو العقدة التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسا وأشد عناء منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد[2].

وعلى هذا نرى القرآن يجمع بين الأضداد أحيانا فيبرز محاسنها ومساويها، أو يجمع الأمور المختلفة من غير تضاد، فيجعلها تتعاون في أحكامها فتتكامل، أو يجمع بين النظم في معنيين لاقترانهما في الوقوع التاريخي أو في الوضع المكاني، فيظن غير الملم بأسباب النزول وطبيعة المكان أنه خروج وليس بذلك، وإنما هو استجابة لحاجات النفوس.

وقد لا يكون بين المعنيين نسب فيتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر، إما بحسن التخلص والتمهيد وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان[3].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 160.

(2) - المصدر نفسه، ص161.

(3) - المصدر نفسه، ص162.

ويقول الدكتور دراز: ولابد لتذوق البلاغة القرآنية من مستوى رفيع ومن وجد مالا يعجبه فليتهم ذوقه، شأن علماء التشريح الذين رأوا كمال الخلق في البدن فلما لم يهتدوا إلى وظائف بعض الأعضاء قالوا: لابدّ من أن يكون له حكمة لم يكشفها العلم بعد على أنّ روعة النظم القرآني لا تقوم على حسن التجاور بين الآحاد، فقد يتم طائفة من المعاني، ثم ينتقل إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن التجاور بين الطائفتين مستدعيا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما أو بين الأواخر كذلك لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

ثم يبين المؤلف نظام عقد المعاني في سورة البقرة: تتألف وحدتها من مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة:

فالمقدمة: في التعريف بشأن هذا القرآن. وأنه لا يصد عنه إلا من في قلبه مرض.

والمقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

والمقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب بخاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الإسلام.

والمقصد الثالث: في عرض شرائع هذا الدين تفصيلا.

والمقصد الرابع: في ذكر الوازع الديني الذي يبعث على العمل بتلك الشرائع ويعصم من مخالفتها.

والخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة للمقاصد المذكورة وبيان ما يرجى لهم في الدنيا والآخرة[1].

ثم يبين المؤلف ترابط الآيات في كل قسم من هذه الأقسام على حدة، وترابط كل قسم مع الذي يليه وترابط المقدمة بالخاتمة.

وختم حديثه بالعبارة التالية: لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات، فلعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزة[2].

وقد لخص المؤلف بهذه الخاتمة مجمل رأيه في الإعجاز ووجوهه المتعددة عنده وخص بالذكر ترتيب آية في كل سورة وفق وحدة موضوعية منسجمة منطقية منسقة، وهو ما كسر من أجله هذا المؤلف كلّه.

وفي الجزء الثاني "الدين" يتحدث عن بقية خطته في إثبات إعجاز القرآن العلمي، والتشريعي.

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 163.

[2] – المصدر نفسه، ص 211.

نقد وتقييم:

يتبين لنا من تلخيص ما جاء في كتاب "النبأ العظيم" أن الدكتور دراز قد وفّى هـذا المجـال حقـه وأفـاض في الحديث. كأنما يتدفق من ينبوع لا يغيض أبدا. لقد شرح الدكتور في تفصيل طويل المعاني التي احتواها القرآن والتي يستحيل بالبراهين الحاسمة، أن تصدر عن بشر، وأحصى جملة الشبه التي يمكن أن تخطـر ببـال أي متردد مرتاب، ثم أجهز عليها.

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصي في طلب الحقيقة وبسط الإجابة في أدب وفقـه. في إيـراد الوجـوه المقبولة من الإعجاز عقلا ومنطقا مما أورده الأقدمون ولم يقبل المؤلف وجه الصرفـة، لأنـه لا يسـتقيم في ذاتـه للتفكير المنطقي، كما أنه ينتهي في حقيقته إلى إنكار الإعجاز القرآني.

وللمؤلف مميزتان وهو يذكر هذه الوجوه:

الأولى: حسن عرضها وتفصيل أجزائها ومناقشتها وجـودة تقسـيمها وترتيبـها علميـا بـين إعجـاز أسـلوبي، وإعجاز علمي، وإعجاز تأثيري... ثم تفصيل كل منها وفق ترابط منطقي قوي.

والثانية: هي كثرة الشواهد القرآنية على كل فكرة من أفكاره مهما دق حتى ليكاد يسـتو في هـذه الشـواهد، مع غزارة العلم وحرارة الدفاع عن الرأي.

ولا يعيب الكتاب لهاتين المميزتين، أن تكـون أفكـاره في أصولهـا مسـبوقا إليـها لأنـه يفصـل فيـها تفصيلا يجعلها ملائمة لعصرنا: كجعله النظريات العلمية الحديثـة وجـها مـن وجـوه الإعجـاز القرآنـي، ثـم تفصيله في حسن تأليف القرآن، في الآية منه وفي السورة، وفي عدة سور فيما بينها وفي القرآن كله.

وغرضه من ذلك الدفاع عن القرآن وتقوية الإيمان به فقد هوجم القرآن في عصرنا أكثر من قبل في أنـه يفقد وحدة الموضوع في مجموعه، وفي كل سورة منه، وفي ترابط هـذه السـور بعضـها ببعـض، وبرهـن علـى أن حسن تأليفه معجزة قرآنية أعظم من سائر المعجزات، وأنها ظاهرة بالبرهان بحيث لا ينكرها إلا مكابر.

فعلى أن الآيات في أكثر السور قد نزلـت في أزمـان متفاوتـة وفي مناسـبات مختلفـة، وفي موضوعـات متباينة وعلى أنها لم ترتب بحسب تتالي نزولها زمنا، فإننا نجد السورة منسجمة مترابطـة، فكيـف تم ذلـك لولا أن منزل القرآن هو نفسه مقدر الحوادث؟ !

لقد اهتم عبد الله دراز بجميع ما قيل في الإعجاز القرآني من أقوال السـابقين وخصوصـا "البـاقلاني" بطريقـة فذة في التناول والعرض والبرهنة والاحتجاج والجدة في المناقشة فقد جمع بين الدراسة النظرية وبـين الدراسـة

التطبيقية باستعراض آيات الذكر الحكيم وتحليلها واستخرج عناصر الجمال الفني فيها. وكل جهوده جمعت بين النقد والبلاغة بإيضاح أسرار القرآن البلاغية وإدامة النظر في وحدة القرآن الفنية.

ولا يعيب المؤلف أن يكون الشاطبي قد سبقه إلى ذلك في "الموافقات" فقد أوجز الشاطبي حيث فصل هو فأحسن التفصيل والإقناع.

وقد أحسن المؤلف حين اختار لإثبات رأيه هذا سورة البقرة، لأنها أكثر السور تعرضا لمهاجمة الخصوم لطولها، وتباعد أوقات النزول بين أول آية نزلت منها وآخرها، وقد حدّد المؤلف ذلك بثماني سنوات، وذكر كذلك كيف تختلف في مناسباتها وموضوعاتها ولكنه بين لنا بيانا منطقيا واضحا كيف تنقسم إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة.

وأوضح ترابط هذه الأقسام كلها، وأنكر رأي من يجدون في القرآن اقتضابا وانقطاعا وبذلك أسهم في دفع تهمة كبيرة وجهت إلى القرآن وهي فقدانه الوحدة الموضوعية في كل سورة منه وفيه جميعه.

ويمثل عبد الله دراز بمفهومه للإعجاز القرآني وبمؤلفه "النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن الكريم وكتبه الأخرى وجهة نظر جماعة المسلمين في العصر الحديث، وتعد مؤلفاته جملة وبخاصة هذا المصنف "النبأ العظيم" من بين مصنفات علماء الخلف في الرد على مزاعم الملحدين والمخالفين من أصحاب الإيديولوجيات والنظريات الخاطئة وغيرهم. لذلك بلغ بهذا الكتاب مكانة مرموقة وشهرة ذائعة، لم يصل إليها أحد غيره من أهل النظر الصحيح.

الفصل الثالث

أسس الإعجاز بين الباقلاني وعبد الله دراز

- أسس الإعجاز عند الباقلاني
- أسس الإعجاز عند عبد الله دراز
- الموازنة بينهما من خلال أسس الإعجاز

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أسس الإعجاز عند الباقلاني:

لقد كانت حياة الباقلاني تدور في فلكين هما التدريس والتأليف، وكلاهما شغل عليه وقته وملك كيانه، وغرضه من ذلك الدفاع عن القرآن الكريم من وجهة نظر جماعة المسلمين في الرد على مزاعم الملحدين والمخالفين، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن ذلك من واجبه أن يؤلف في إعجاز القرآن ومحاولة إقامة الأدلة العقلية والأدبية واستخدامها لنصرة الدين والدفاع عنه، وذلك ما انعكس في محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة، وفي الجهود الكلامية التي سعت إلى إقامة بناء نظري منطقي شيد من أجل حماية العقيدة من الفلسفات الضالة والمذاهب الفكرية المنحرفة.

وللتعرف على الأسس والمنطلقات التي تدعم موقف الباقلاني في تأليفه لهذا الكتاب ينبغي الإحاطة بكل أشكال المعارف السائدة في زمانه، لأن كل نشاط علمي أو عملي من قبل الإنسان في الحياة الإسلامية كان يسعى على الدوام إلى اتخاذ موقف يبرره النص القرآني.

فالباقلاني بعد أن تتبع المحاولات السابقة للوصول في تجلية الإعجاز القرآني، ومن بينها محاولة الجاحظ ذلك الرجل الواسع الثقافة والجدل، وتفريط بعضهم فيما يمكن إحكامه بعد التقدم في "أمور شريفة المحل عظيمة القدار دقيقة المسلك لطيفة المأخذ" لعدم اقتناعهم بأسس الإعجاز القرآني كما يظهرها الدفاع الكلامي آنئذ ينص في مقدمة كتابه أن إدراك الإعجاز متوقف "على جمل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين[1]. أي جملة المعارف النصوصية والعقلية السائدة. والتي كانت تشكل المجال التقليدي الوحيد للثقافة الإسلامية في تلك الفترة "مجالي اللغة والمنطق".

فالإعجاز عند الباقلاني كان مبنيا على أساس ذوقي تأثري، وعقلي كلامي لا غير. وهما الأساسان اللذان شيد عليهما الإعجاز القرآني، مع ميل كبير للناحية الاستدلالية العقلية - علم الكلام - مما يدل على امتلاكه ناصية الجدل مستخلصا أيهما من طبيعة الثقافة السائدة، والواقع المعرفي القائم كما تعكسه نهاية القرن الرابع الهجري.

فجاء كتابه مضمنا روح عصره، كما قال الرافعي: "وما زاد الباقلاني - رحمه الله - على أن ضمن كتابه روح عصره..."[2].

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص29.

[2] - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص153.

1 – الروافد الثقافية للباقلاني:

إن ثقافة الباقلاني تميزت بطابع فقهي كلامي يسانده رافد أدبي نقدي. واتضح هذا الطابع فيما ألف من كتب فله "التمهيد" و"نكت الإنتصار" وهما من أهم الكتب الكلامية التي تعلق بها أهل السنة تعلقا شديدا، وخصوصا كتاب "التمهيد" لأنه يبصرهم بمسائل الخلاف بينهم وبين مخالفيهم في الرأي والعقيدة وغيرهما مما ألف[1].

أما كتابه الشهير "إعجاز القرآن" ففيه علم الكلام وفقه السنة، وفيه ثقافة أدبية نقدية تعتمد على ذوق فني استطاع أن يبرز من خلال الجدل المنطقي والحجاج الفقهي.

2 – أسس التحليل عند الباقلاني:

أ – الإلتزام بالمنهج الكلامي: المتكلمون بارعون في الجدل يقرعون الحجة بالحجة في سبيل نشر آرائهم، ويحرصون على تجريد خصومهم من أسلحتهم، وتراهم يعمدون إلى تحرير العبارة والبعد عن الإشتراك اللفظي ويحرصون على دقة العرض وحسن التنسيق وإشراك القارئ معهم يخاطبون عقله وينقضون له ما أعجبه من آراء خصومهم وكتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني الأشعري يزخر بهذا: عرض لرأي الأشاعرة في قضية الإعجاز وفند آراء المعارضين، وخاطب عقل القارئ ليصل به إلى شاطئ الأمان شاطئ الأشاعرة بعدما تخطفته إغراءات المعتزلة والخوارج والجهمية وغيرهم[2].

1 – عرض الباقلاني لأراء الأشاعرة في الإعجاز: وعرض الباقلاني لأراء الأشاعرة ذو أهمية لأنه يصدر عن أحد الأعلام المبكرين، الذين دافعوا عن المذهب وأثروا فيه بشخصيتهم، وخرجوا به من التنظير الجدلي إلى التطبيق العملي على القرآن الكريم فضمن لأراء الأشاعرة الذيوع والانتشار، إن قبولا وإن رفضا، وليس هذا بالقليل[3].

2 – تفنيد آراء المخالفين: وتفنيد آرائهم ركن أساسي في المنهج الكلامي، فبقدر نجاح المتكلم في تهوين آراء خصومه، بقدر ما يسمح له المقام أن يعرض بدائله فتأخذ شكل الحل الأمثل لموضوع الخلاف، وأعفى

---

(1) – مقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن التي كتبها الأستاذ أحمد صقر، ومقدمة تحقيق كتاب إعجاز القرآن التي كتبها السيد أحمد حيدر، وكتاب الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف.

(2) – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص53، ط، منشأة المعارف بالإسكندرية.

(3) – المرجع نفسه، ص54.

الباقلاني نفسه من الرد على الملحدة. فالمتكلمون السابقون قد أتوا على ما وقع إليهم "فشفوا ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا"[1] وألتفت إلى كثير من آراء المعتزلة ليفندها[2].

3 – دقة العرض وحسن التنسيق: الناظر في كتاب "إعجاز القرآن" يجده بني على محورين هما: ركنا قضية الإعجاز فجانب منها يقوم على الحديث عن العلم الضروري والعلم بالاستدلال، وخلق القرآن وقدمه، والمعجزات الخارقة للعادة، ومكانة القرآن من هذه المعجزات واعتبارها أصلا في إثبات النبوة لا فرعا، ثم عن قدر المعجز منه والقول بالصرفة في الإعجاز.

ويأتي الجانب الفني فيتمم الكلامي. ولم يجعل الباقلاني كتابه قسمة متتابعة كلامًا فبلاغة أو موضوعات كلامية فأخرى بلاغية. بل جعل عرض الموضوع يقتطع من الركنين قدر ما يحتاج، فوقع الكتاب في مقدمة وستة عشر فصلا. والفصل السابع عشر كان خلاصة للفصول السابقة ثم خاتمة[3].

4 – مخاطبة عقل القارئ: القراء عند الباقلاني كما ذكر في مقدمته "بين رجلين ذاهب عن الحق وذاهل عن الرشد وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته" والباقلاني يدرك أن قضية الإعجاز ليست هينة وأن الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري تحتاج إلى فطنة من القارئ واستعداد خاص[4].

هكذا المتكلم يدرك قيمة مشاركة القارئ لما يعرض عليه. لأن المحك هنا الاقتناع الذي يولد التحمس والانتقال من صفوف الخصوم إلى صفوف المدافعين، ومن ثم قام منهج الباقلاني على احترام عقل ووجدان القارئ بعدما حدد مواصفاته ورفض ماعداه من المتعلمين البسطاء أو الجهال والأعاجم[5].

---

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، ص253.

(2) – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص55.

(3) – المرجع نفسه، ص57.

(4) – المرجع نفسه، ص60، 61.

(5) – المرجع نفسه، ص62.

ب – الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري:

الموازنة لا تصلح عاملا للوصول إلى نتيجة مسبقة، بل تجري لتصل إلى نتائج متوقعة وأخرى غير متوقعة. ولكي يتحقق هذا لابد من توافر أركان المقارنة من اشتراك طرفيها في أكثر من جانب كأن تكون بين شاعرين أو كاتبين معاصرين ولهما اتجاه فني واحد أو قريب وظروف فنية متشابهة...إلخ[1].

ولا ما صنع الباقلاني في الموازنة غير المتكافئة بين النظم القرآني والنظم البشري وهذا جعل الباقلاني يضطرب في أحكامه، ويزيغ بصره عن الحق بالرغم من اعترافه بهذه الحقيقة "**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**"[2] يدرك هذا ويندفع في موازنة أدت به إلى الاستعانة بكل ما يتصور أنه يؤدي إلى النتيجة التي افترضها قبلا، فيستعين بالتراث وبالجدل العقيم وبمختلف المقاييس النقدية[3].

1 – الإستعانة بالتراث: ففي فصل "ذكر البديع من الكلام" يبدؤه بسؤال مفترض. هو في حقيقته رأي الرماني من المعتزلة في الإعجاز. "هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟" ويجيب عن السؤال أو يرد عليهم: "ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها...".

وقد استعان الباقلاني بالرماني ونقل عن كتابه "النكت في إعجاز القرآن" ولم يشأ أن يذكر اسمه والباقلاني أذكى من أن يجعل قارئه يحس بأنه يراوغ أو يخشى التعرض للرماني وقد انتهى به الموقف إلى الاتفاق مع الرماني لا الاختلاف كما يظن[4].

2 – الزج بالجدل العقيم في تحليل الصورة الفنية: لقصيدتي امرئ القيس والبحتري.

3 – تطبيق مقاييس نقدية مختلفة على نص أدبي واحد: منها

---

(1) – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص62.

(2) – فصلت: 42.

(3) – المرجع السابق، ص63.

(4) – المرجع السابق، ص65.

- **المقياس اللغوي**: وهو يدور حول صحة معنى الكلمة، ودقة اختيارها، وسلامتها من التكلف والتعقيد، وصحة المعنى للبيت ومساوقته للمألوف عند العرب نص امرئ القيس[1].

- **المقياس الأخلاقي**: فامرؤ القيس معيب في وصفه طعامه. نقد أخلاقي للقصيدة.

- **المقياس الفني**: وهذا أضعف المقاييس وأوهاها لأنه فرض على نفسه أن يوقف القارئ على مواضع الخلل في القصيدة وعلى تفاوت نظمها. والباقلاني موكل بالبحث عن العجز البشري الذي يصيب الصورة الشعرية الجميلة، فما من حسن إلا وبه نقص ومهمته أن يصل إلى النقص لا أن يعلل الحسن[2].

وتراه يصف الأبيات بمصطلحات نقدية لا يحدد المقصود بها، وبالرغم من ذلك فقد أثار في هجومه هذا العديد من المشكلات النقدية والمصطلحات البلاغية التي لو أنصف لأضاف إليها ما بلورها ودفع بها إلى الأمام[3].

جـ - الإحتكام إلى التذوق الفني:

ونقصد به التذوق البصير لفن القول، الذي يعدو المعرفة ويتعدى الصفة بهذا التذوق البصير..

ويدرك الباقلاني أن التذوق البصير مرتبة تأتي بعد المعرفة والمعرفة تحتاج إلى إرشاد وتوجيه ليتسنى للذوق أن يستثار، فآل على نفسه أن يضئ السبيل للقارئ على أن يتصف بالإستعداد الفطري من ثم صارحه "وإن كنت في الصنعة مرمدًا، و في المعرفة بها متوسطا فلا بد لك من التقليد ولا غنى بك عن التسليم"[4].

ومن تمهيد السبيل إلى المعرفة وتسهيل الطريق إلى التذوق البصير، تسرب ذوق الباقلاني إلى تحليله للنظم القرآني وكشف عن ذات نفسه، فاستطعنا أن ندرك التزامه وتحرره انطلاقه وتأثره وهو يحتكم إليه في تحليله الفني فظهر في:

1 - إدراكه سمة "الوحدة" في النظم القرآني.

---

(1) - مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان،ص66. راجع في هذا المنهج النقدي كما عرضه الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن وأنظر كتاب أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص285، 291، محمد زغلول سلام.

(2) - المرجع نفسه، ص69، 71.

(3) - المرجع نفسه، ص72.

(4) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص144.

2 – تأثره بالجدل المنطقي، والوعي الديني في تحليله الفني.

1 – إدراك سمة "الوحدة" في النظم القرآني:

إدراك سمة الوحدة من الإنجازات الطيبة التي تحسب للباقلاني بعد أن سيطرت المعالجات الجزئية على العمل الفني من جراء المنهج اللغوي فظهر البيت الشاهد، والعبارة الشاهد، أو الآية القرآنية التي تثبت قاعدة أو تنفي قاعدة وضاعت النظرة الكلية إلى العمل الفني، فافتقد أخص مقوماته وأهم مميزاته وإدراكه لهذه السمة برز في معالجته للشعر وللنظم القرآني موضوعيا وفنيا[1].

– **الوحدة الموضوعية**: يقول في فصل "نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- "معجزاتها القرآن":

"وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة إلا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه... وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته"[2]

ففي كل سورة وحدة موضوعية مترابطة وهناك وحدة موضوعية من لون آخر هي وحدة الموضوع على مدى القرآن كله كموضوع القصص القرآني وكيف ذكرت بضروب شتى ليعلموا عجزهم عن جميع طرق ذلك يقول: "ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها تأمل السورة التي يذكر فيها النمل.."[3].

– **الوحدة الفنية**: إذا تأملنا نظم القرآن وجدنا أنه كما يقول الباقلاني "عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد. ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور"[4] وكان ذلك وجها من وجوه اعجازه البلاغي عنده.

هذا بالنسبة للبناء العام ومنه ينتقل الباقلاني إلى المكونات الجزئية إلى الكلمة والعبارة إلى الأسلوب، فالكلمة القرآنية المفردة لها إشعاعها الخاص بها وطاقاتها في ذاتها "وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة

---

(1) – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص73، 75.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص32.

(3) – المصدر نفسه، ص202.

(4) – المصدر نفسه، ص60، 61.

مضمنة بين أضعاف كلام كثير أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قرن بها لعلو جنسها، فإذا ضمت إلى أخواتها وجاءت في ذواتها أرتك القلائد منظومة كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة. ولولا ما أكره من تضمين القرآن في الشعر لأنشدتك ألفاظا وقعت مضمنة لتعلم كيف تلوح عليه، وكيف ترى بهجتها في أثنائه... ثم تناسبها في البلاغة والإبداع وتماثلها في السلاسة والإغراب ثم انفرادها بذلك الأسلوب، وتخصصها بذلك الترتيب"[1].

ويستشهد على تجانس المعنى بكلمة "قمطرير" والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة: "**يُوْمًا عَبُوْسًا قَمْطَرِيرًا**"[2] فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع فهي مكروهة مذمومة بحسب ما تحمد في موضعها[3].

والكلمة الشريفة هي التي تقع في الموقع الحسن ككلمة "ليأخذوه" في قوله تعالى "**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوه**"[4] يقول: وهل تقع في الحسن موقع قوله "ليأخذوه" كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو "ليرجموه" أو لينفوه" أو "ليطردوه" أو ليهلكوه" أو ليذلوه" ونحو هذا ما كان ذلك بديعا ولا بارعا، ولا عجيبا ولا بالغا[5].

- **معنى النظم وملاءمته للموضوع:** ويلتفت الباقلاني إلى النظم وهو عنده بمعنى "الضم" فالكلمة إذا ضمت إلى اخواتها وجاءت في ذواتها..[6].

ويعني به "التأليف" فالقرآن بديع النظم عجيب التأليف.

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص218.

(2) - الإنسان: 10.

(3) - المصدر السابق، ص191.

(4) - غافر: 5.

(5) - المصدر السابق، ص210.

(6) - المصدر السابق، ص218.

ويعني به "**الأسلوب**" القرآن مباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتادة[1].

كما يعني به **السبك أو النسج**: ولا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة، سبك أبي نواس من سبك مسلم، ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري...[2].

وقد توقف الباقلاني عدة مرات أمام ملائمة النظم للموضوع واتساقه معه مشركا القارئ معه عند تحليل بعض الآيات والسور القرآنية[3].

النظرة التكاملية لقد كانت موجودة عند الباقلاني - تحليل العمل الفني كلّه ملاحظة التحام الكلمة بالمعنى والعبارة بالمضمون والفكر بالأسلوب - لكنها كانت تتوه في ركام من الجدل المنطقي وسيطرة من الأفكار المسبقة. فلم يكن مفرّ من أن يتسرب إلى تذوق الباقلاني الجدل المنطقي، وهو المتكلم الأشعري وأن يسيطر عليه الوعي الديني وقد لقب "بسيف السنة ولسان الأمة، فيتشتت ذوقه الفني ويحرم الخلوص إلى عمق النص ويتوزع في خضم المعارك الجانبية[4].

2 - تأثر تذوق الباقلاني بالجدل المنطقي:

حدد الباقلاني أوجها ثلاثة لإعجاز القرآن:

أحدها: الإخبار بالغيوب

ثانيها: أمية الرسول - صلى الله عليه وسلم -

ثالثها: نظمه الخارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، والمباين لأساليب خطابهم ولكي يخلص له الوجه الثالث: دخل في جدل مع من ادّعى أن القرآن من قبيل الشعر "فمن الملحدة من يزعم أن فيه شعرًا".

ومع من ادّعى أن فيه سجعا: "فمن أهل الملة من يقول: إنه كلام مسجّع"

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص59.

(2) - المصدر نفسه، ص140.

(3) - المصدر نفسه، ص202، 207.

(4) - مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص80، 81.

ومع من ادّعى أنه كلام موزون: "فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب"[1].

ومن ثم أفرد فصلا في "نفي الشعر من القرآن"[2] وثانيا في "نفي السجع من القرآن"[3] ثم فصلا ثالثا في "ذكر البديع من الكلام"[4].

والمجادل المحنك لا يقبل رأي الخصم كله، ولا يرده كله. فليس هناك خطأ مطلق، ولا صواب مطلق، إنما هي مهارة في الإقناع، ولباقة في العرض تتخذ سبلا في الوصول إلى الهدف منها: التسليم برأي مرفوض لكشف خطأ في رأي الخصم[5].

ففي فصل: بيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز يقول: "فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصحات؟ وهلا قلتم إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعية وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرًا، وإنما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة؛ لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر الآية والسور؟

فالجواب: أنه لو صحّ ذلك صحّ لكل من أمكنه ربع بيت، أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد، ويقول الأشعار... على أن ذلك لو لم يكن معجزا على ما وصفناه من جهة نظمه المتنع لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب"[6].

---

(1) – إعجاز القرآن للباقلاني، ص75.

(2) – المصدر نفسه، ص76.

(3) – المصدر نفسه، ص83.

(4) – المصدر نفسه، ص92.

(5) – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص81.

(6) – إعجاز القرآن للباقلاني، ص52، 53.

فهو يرفض الشق الأول من الرأي، ويستخدم الشق الآخر، القول بالصرفة، ويتخذه سببا من أسباب الإعجاز بالرغم من رفضه صراحة مبدأ الصرفة "ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع معجزا، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه"[1].

ومن سبل المجادل المحنك: تقليب الرأي على عدة أوجه للخروج بما يوافقه منها في فصل "نفي الشعر عن القرآن" يقول:.."وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار من قولهم: إنه شاعر وإن هذا شعر لابد من أن يكون محمولا على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة، أو يكون محمولا على... أو يكون على... فإن حُمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا.."[2] ومثلما فعل مع الرماني بعد عرض ملخص لرسالته[3].

وهو في فصل "نفي السجع من القرآن" يدير سجالا طويلا مع المخالفين الذين يذهبون إلى إثبات السجع في القرآن وفيه يستخدم مهارته الكلامية وثقافته الأدبية ليكسب معركة أقامها هو بالتزامه برأي الأشاعرة فقد "ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري - رضي الله عنه - في غير موضع من كتبه"[4].

ويتذوق صنعة أبي تمام من خلال منظور جدلي، وحكم عقلي.. كما صنع أبو تمام في لاميته:

مَتَى أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةِ الحَيِّ ذَاهِلُ ٭ وصدرُك منها مُدَّةَ الدَّهْرِ آهِلُ

ولما قد أولع به من الصنعة ربما غطّى على بصره حتى يبدع في القبيح، وهو يريد أن يبدع في الحسن كقوله...إلخ[5]

---

(1) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص54.

(2) - المصدر نفسه، ص76.

(3) - المصدر نفسه، ص77.

(4) - المصدر نفسه، ص83.

(5) - المصدر نفسه، ص128

"فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوه في محبة الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب وربما أسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها حتى استثقل نظمه. واستوخم رصعه وكان التكلف باردا والتصرف جامدا، وربما اتفق مع ذلك في كلامه النادر المليح كما يتفق البارد القبيح"[1].

كل ظاهرة لابد لها من علة جدلية ولو كانت صنعة أبي تمام الفنية. وأقصى ما يسفر به هذا الجدل المنطقي عن أثره في التذوق. يبرز في تحليل الباقلاني للبيتين الأولين من معلقة "قفا نبك" يقول"تأمل أرشدك الله وانظر هداك أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرًا، ولا تقدّم به صانعا وفي لفظه ومعناه خلل"[2].

فأول ذلك: أنه استوقف من يبكي لذكر الحبيب، وذكراه لا تقتضي بكاء الخَلِيّ، وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه ويرقَّ لصديقه في شدة بُرَحَائِهِ فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه فأمر محال.

فإن كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضا عاشقا، صح الكلام من وجه وفسد المعنى من وجه آخر لأنه من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه والتواجد معه فيه. ثم في البيتين ما لا يفيد، من ذكر هذه المواضع... ثم إن قوله...إلخ ثم في هذه الكلمة خلل آخر..."[3]

ويؤدي به هذا الجدل العقيم إلى السطحية والتبسيط. وقلب الفن إلى مسائل رياضية يقول في بيت امرئ القيس:

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً * على النَّحر حتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحْمَلِي

"قوله: "ففاضت دموع العين "ثم استعانته بقوله "مني" استعانة ضعيفة عند المتأخرين في الصنعة وهو حشو غير مليح ولا بديع. وقوله "على النحر" حشو آخر لأن قوله "بل دمعي محملي" يغني عنه، ويدل عليه، وليس بحشو حسن ثم قوله "حتى بل محملي" إعادة ذكره الدمع حشو آخر، وكان يكفيه أن يقول: حتى

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص130.

[2] – المصدر نفسه، ص175.

[3] – المصدر نفسه، ص176.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بلت محملي، فاحتاج إلى إقامة الوزن إلى هذا كله. ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حتى بل محمله، تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول: حتى بلّ دمعي مغانيهم وعراصهم"[1].

وتتجلى سيطرة هذا المنهج الكلامي على تذوقه عند وقوفه على بيتي البحتري:

مَـاذَا علَيْـك مـن انتظَـار مُتيَّـم * بَـلْ مـا يَضـرُّكَ وَقفـةٌ في مَـنزِل
إن سِيل عَـيَّ عَـنَ الجواب فلم يُطِق * رجعـا فكيـف يكـون إنْ لم يُسْـئل

يقول: "لست أنكر حسن البيتين وظرفهما، ورشاقتهما ولطفهما، وماءهما[2] وبهجتهما، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع، لأنه لم يجر لمشافهة العاذل ذكر وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائمه.

ثم الذي ذكره من الانتظار وإن كان مليحا في اللفظ فهو في المعنى متكلف؛ لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرًا وإنما يقف تحسرًا وتذللاً وتحيرًا".

والشطر الأخير من البيت واقع والأول مُسْتَجْلَب، وفيه تعليق على أمر لم يجر له ذكر؛ لأن وضع البيت يقتضي تقدم عذل على الوقوف، ولم يحصل ذلك مذكورا في شعره من قبل، وأما البيت الثاني فإنه معلق بالأول لا يستقل إلا به، وهم يعيبون وقوف البيت على غيره...إلخ[3].

وهكذا خنق الجدل المنطقي لحظات الاستجابة الفطرية السليمة لنغمات الفن الجميل وكان من الممكن أن ينطلق، ولكن كيف؟ والمنطق الجدلي يحاصره؟!

ومع النظم القرآني يتحول الجدل إلى إقناع للقارئ، وتتحول السخرية من الشعر الركيك إلى انبهار من روعة القرآن، وإلى حث العقل على التفكير، فإعجاز القرآن مرتبط بالعقل وأدلته، والكشف ووجدانيته يقول الباقلاني للقارئ: "وانظر بعين عقلك وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك، وعرضناه عليك، ثم فيما ينتظم من الكلمات ثم إلى أن يتكامل فصلا وقصة، أو يتم حديثا وسورة"[4].

---

(1) -إعجاز القرآن، للباقلاني، ص178، 179.

(2) - المصدر نفسه، ص234.

(3) - المصدر نفسه، ص235.

(4) - المصدر نفسه، ص215.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو يضع للقارئ منهاجا[1] للوصول إلى سر إعجاز القرآن يقوم على الفهم والتأمل والتواصل الوجداني بين القرآن وقارئه[2] والتجريب جزء من المنهاج. فيتيح للقارئ فرصة إعادة صياغة النظم القرآني بأسلوبه الخاص ليتأكد من وجود النقص بنفسه ويحكم على النظم القرآني بذوقه[3].

تأثر تذوق الباقلاني بالوعي الديني:

ولا غبار في أن يتذوق العالم الفقيه فن الشعر. ولكن عليه أن يدرك أنه أمام قول شاعر يصور ما أحسّ به ويميز بين الواقع والخيال، والممكن والمستحيل ويستخرج من المعطيات الملموسة صورًا غير ملموسة، فيها شفافية وطرافة، بل وغرابة فلا علينا أن نحكم عليه بالصدق الأخلاقي أو نطالبه بالوعظ والإرشاد عن طريق قصيدته طالما أنه لا يدعو إلى رذيلة، ولا يقلل من شأن فضيلة.

وامرئ القيس حين قال:

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له • بشّق وتحتي شّقُها لم يُحوّل

لم يقصد إغراء الشباب، ولا إفساد أخلاقهم، فالشعراء والشباب في عصره يعلمون أنه منساق وراء مبالغة أقرب إلى الجنون لأنها نادرة الوقوع ولكنه أراد أن يصور مدى تأثيره على النساء وفروسيته وفحولته. ،وكأني بهم كانوا يبتسمون وهم يستمعون إليه، ويعجبون كيف توصل إلى هذه الصورة العجيبة[4].

ويأتي الباقلاني ويتسرب وعيه الديني إلى تذوقه فيقول: "فالبيت الأول غاية في الفحش ونهاية في السخف، وأي فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب ويرد هذه الموارد؟ !.

إن هذا ليبغضه كل من سمع كلامه، ويوجب له المقت وهو لو صدق لكان قبيحا، فكيف؟ ويجوز أن يكون كاذبا. ثم ليس في البيت لفظ بديع ولا معنى حسن"[5].

ويقول البحتري في وصف السيف:

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص217.

[2] - المصدر نفسه، ص206.

[3] - المصدر نفسه، ص203.

[4] - مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان، ص86، 87.

[5] - إعجاز القرآن للباقلاني، ص182.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويميل إلى الاعتدال في الصنعة بين الإفراط والتفريط – وإنما فضلت العربية على غيرها، لاعتدالها في الوضع.."[1].

هذا هو الباقلاني المتكلم، الملتزم الذي وازن بين النظم القرآني والنظم البشري ليثبت إعجاز الأول وتفاوت الآخر من حيث السبك واللفظ والفكرة والذي احتكم إلى الذوق الفني، لكنه لم يكن خالصا لوجه الفن بقدر ما كان مستخدما للدفاع عن قضية الإعجاز القرآني.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص137.

أسس الإعجاز عند عبد الله دراز:

1 – الروافد الثقافية للدكتور عبد الله دراز:

إن ثقافة الدكتور عبد الله دراز تعتبر ثقافة عالمية. وذلك لأنه علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث. آتاه الله الحظ الأوفر في علوم الإسلام. كما نهل من علوم أوربا الشيء الكثير. واتصل بحضارتها اتصالا وثيقا دام سنوات طويلة حيث تميزت بطابع علمي موضوعي يتسم بالشمولية في معرفة علوم الدين والزمان التي تحقق النفع العام لبني الإنسان قاطبة وهو العلم الذي تدعو إليه شريعة الإسلام.

ومن هذا المنطلق استخدم دراز كل ما لديه من الملكات الفطرية في فهم النظم القرآني من التأمل والتفكير العقلي والتعمق أكثر في المفاهيم والحقائق والكشف عنها مع محاولة ربطها بدلالات الإيمان والجمال والإعجاز القرآني البياني. والعلمي والتشريعي.. فيما ألف من كتب فله: "التعريف بالقرآن" و"الأخلاق في القرآن" و"الدين" و"النبأ العظيم" وهم من أهم الكتب التي امتازت بعمق. وأصالة. وأفكار نابضة بالحياة جمعت في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا كل ذلك في أسلوب سلس رصين وغيرها مما ألف.

أما كتابه الشهير "النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن الكريم. ففيه فقه كلامي موضوعي. وفيه ثقافة نقدية أدبية رائعة تعتمد على ذوق فني فطري سليم استطاع أن يبرز من خلال التحليل العلمي الموضوعي النير والجدل المنطقي المقنع. والحجاج الفقهي الفريد من نوعه.

2 – أسس التحليل عند الدكتور دراز:

أ – الإلتزام بالمنهج الكلامي الموضوعي: لقد اعتمد الدكتور دراز المنهج الكلامي الموضوعي في التصدي للطا عينين في القرآن الكريم من الملحدين والمخالفين. وتفنيد آرائهم. تماما كما فعل ذلك الباقلاني من قبل مع خصومه من المعتزلة والخوارج والجهمية وغيرهم وكتاب "النبأ العظيم" يزخر بهذا. حيث عرض لأراء الملحدين والمخالفين في قضية الإعجاز وفنّد آرائهم. وخاطب عقل القارئ الواع الناقد ليصل به إلى حقيقة القرآن الكريم وإعجازه وتقوية إيمانه بالله تعالى.

1 – عرض دراز لآراء الطاعنين في القرآن وتفنيد آرائهم:

ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دورانا على ألسنتهم وأن أكثرها ورودا في جدلهم هي نسبته إلى نفس صاحبه على اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن: أشعر هي، أم جنون، أم أضغاث أحلام...

وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم "الوحي النفسي"..زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم[1].

فانظر: كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن، وفي عقل رصين كعقل صاحبه. بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين.. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من محال وناب ونافر، ليثيروا بها غبارا من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة، وليلقوا بها أشواكا من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين، وهكذا دواليك ما يستقرون على حال من القلق.

ثم يفند آراءهم فيقول: فإن شئت أن تطلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفها في القرآن: "بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلِ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ"[2] فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه: كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال "انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الامْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً"[3][4].

ثم يقول: وأن كل من حاول أن يجعل هذا القرآن "عملا إنسانيا" أعياه أمره وأقام الحجة على فشله باضطرابه ولجاجته وإحالته ومكابرته.

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص67.

[2] – الأنبياء: 5.

[3] – الإسراء: 48، والفرقان: 09.

[4] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص68.

ثم يقول: فقد وجب علينا أن ننتقل إلى المرحلة التالية لنبحث عن ذلك المصدر في أفق خارج عن الأفق الإنساني جملة، وألا نقف بالقرآن حيث وقف به الملحدون قديما وحديثا مذبذبين فيه بين هذين الطرفين يأخذون بأحدهما تارة وبالثاني تارة وبهما مجتمعين تارة أخرى، منتقلين هكذا من فاسد إلى فاسد إلى مركب منهما أشد فسادا من كليهما. كلا فإن العقل يقضي علينا أن نبطل ما أبطله البرهان غير مكابرين، وأن نتابعه في سيره حتى نصل إلى الحق المبين.

أما هؤلاء الملحدون فإنهم ما قعد بهم عن متابعة البحث - زعموا - إلا رعايتهم لحرمة السنن الكونية، ومحافظتهم على الأسباب العادية التي يصدر عنها كلام الناس في معقولهم ومنقولهم... فجمعوا المتناقضات وغيروا معالم التاريخ وأرهقوا طبائع الأشياء فحملوها ما لا تطيق. فأي عاقل يرضى أن يقف موقفا كهذا ينصر فيه عادته بإهدار عقله !!

بل الحق أن هناك مانعا آخر يعوقهم عن متابعة السير معنا ولكنهم يكتمونه عنا: كبر في صدورهم..."بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ"[1] فلنذرهم قاعدين حيث رضوا لأنفسهم القعود"[2].

- دقة العرض وحسن التنسيق:

الناظر في كتاب "النبأ العظيم" يجده بني على محورين هما ركنا قضية الإعجاز في النصف الأول من الكتاب "تحديد النظم" يتكلم على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد نفى نسبة القرآن إلى تأليفه، وأن طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء والفراسة والنظم القرآني لا يكون متلقى عن معلم، بل أوحي إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - به.

وفي المرحلة الأخيرة من الكتاب البحث عن مصدر النظم القرآني من جوهره، وهو يتناول إعجازه اللغوي والعلمي والتشريعي. وانتقل إلى أن الجمال التوقيعي في توزيع الحركات والسكنات والجمال التنسيقي في رصف الحروف وتأليف الكلمات، مما يتعلق بالقشرة السطحية للفظ القرآني، أما فقرات النظم القرآني أو سوره أو النظم القرآني كله، فإنه في هذه النواحي قد امتاز عن سائر الكلام.

ومن هنا يبدأ النصف الثاني من الكتاب فيه يتكلم عن فقرات النظم القرآني وأن أسلوبه في قطعة قطعة منه معجز في وصفه وتلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها بسبب القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى.. وغيره.

---

[1] - المؤمنون: 70.

[2] النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص69، 70.

وينتقل إلى القرآن في سورة سورة منه وأن الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه يضاف إليها أمر آخر هو زينة تلك الثروة وجمالها، وذلك هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها وأخذ بعضها بحجز بعض حتى أنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

لقد جعل الدكتور دراز كتابه قسمة متتابعة موضوعات كلامية موضوعية وأخرى بلاغية ، وفي بعض الحالات نجده يقتطع من الركنيين قدر ما يحتاج فوقع الكتاب في مقدمة وأربع مراحل من البحث ثم خاتمة جامعة لرأيه في الإعجاز القرآني.

- **مخاطبة عقل القارئ**: القراء عند الدكتور دراز كما ذكر في مقدمته: بين عقل واع ناقد، يسعى إلى معرفة الحقيقة ليزداد إيمانا وبين غافل ذاهل عن الرشد. ينشده دراز أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء إلى فطرة سليمة، وحاسة مرهفة ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن.

والدكتور دراز يدرك أن قضية الإعجاز ليست هينة وأنها تحتاج إلى فطنة من القارئ واستعداد خاص. ومن ثم قام منهج دراز - العلمي الموضوعي - على احترام عقل ووجدان القارئ احتراما كبيرًا.

ب - الموازنة بين النظم القرآني والنظم البشري:

لقد اعتمد الدكتور دراز طريقة الموازنة التي أدت به إلى الاستعانة بكل ما يتصور أنه يؤدي إلى نتيجة في الكشف عن أسرار الإعجاز.

- **الإستعانة بالتراث**: وقد استعان الدكتور دراز بالباقلاني ونقل عن كتابه "إعجاز القرآن" وذكر اسمه أكثر من مرة في كتابه: "هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه بل كان أجدر أن يغريهم به ذلك أن الناس كما يقول الباقلاني إذا استحسنوا شيئا اتبعوه وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة... في النثر والشعر إلا مناهل مورودة ومسالك معبدة تؤخذ بالتعليم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات"[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص105.

ويقول أيضا: سل العلماء بنقد الشعر والكلام: هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع، ولفظ جامع، ونظم رائع؟ لقد أجمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة، من قصائد معدودة... فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانا قد قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية، نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه.

ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جمله، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه وبالجملة ترى كما يقول الباقلاني: "محاسن متوالية، وبدائع تترا"[1].

ويقول أيضا: "إن حكمة البيان القرآني لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع، ولو ذكرت هاهنا لكان مثلها مثل من يسأل: لم ضربت عبدك؟ فيقول: لأنه ضرب غلامًا اسمه كذا واسم أبيه كذا وحليته كذا وولد في عام كذا. ألا ترى أن هذا زائد وكثير. ومن هنا عيب على امرئ القيس تفصيله في غير موضع التفصيل، وذلك فيما هو معدود من أجود شعره قوله:

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل ٭ بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ٭ لما نسجتها من جنوب وشمأل

لم يقنع في وصف المنزل بقوله "بسقط اللوى" حتى حده بحدود أربعة، قال الباقلاني: "...كأنه يريد بيع المنزل، فيخشى إن أخل بحد منه أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا!"[2].

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص111، 112.

[2] – المصدر نفسه، ص126.

جـ - الإحتكام إلى التذوق الفني:

اعتمد الدكتور دراز في تحليله النظم القرآني المنهج الفني الذي يعتمد على الذوق الفني البصير لفن القول وهي مرتبة تأتي بعد المعرفة العلمية الموضوعية. فآل على نفسه أن يضئ السبيل للقارئ على أن يتصف بالاستعداد الفطري ومن ثم صارحه بقوله: " دع عنك هذا وذاك... وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون، ولكن قل قولا سديدا هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف قل: الله أعلم بأسرار كلامه ولا علم لنا إلا بتعليمه ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلا: أين أنا من فلان وفلان؟... كلا فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبير الفاضل"[1].

ومن تمهيد السبيل إلى المعرفة وتسهيل الطريق إلى التذوق البصير تسرب ذوق الدكتور دراز إلى تحليله للنظم القرآني والكشف عن ذاته. وعن جانب من خصائص النظم القرآني الذي امتاز به عن سواه من المؤلفات الوضعية.

- إدراكه سمة "الوحدة" و"الكثرة" في النظم القرآني.
- تأثر تذوق دراز بالتحليل الموضوعي.
- تأثر تذوق دراز بالمنهج الأدبي.

1 - إدراكه سمة "الوحدة" و"الكثرة" في النظم القرآني:

في الحقيقة هذه السمة تعتبر من الانجازات الطيبة التي تحسب للباقلاني إلا أن الدكتور دراز استطاع أن يكشف النقاب عنها وذلك بتحليلها تحليلا علميا منطقيا ويبرز أهم خصائصها ويجعلها نظريته في إعجاز القرآن وطبقها على أطول سورة في القرآن الكريم حيث يقول: "هذا الذي حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه يضاف إليه أمر آخر هو زينة تلك الثروة وجمالها ذلك هو تناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها"[2].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص131.

[2] - المصدر نفسه، ص142.

ثم يقول: "ففي الشأن الواحد راعى القرآن حسن الموقع للأجزاء، أنها أحق بالتقديم أو التأخير وأيها أحق بأن يجعل أصلا أو تكميلا. وفي الشؤون المختلفة - مع وجازة الألفاظ - قد جعله أكثر الكلام تناولا لشؤون القول وأسرعه تنقلا بينها من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى ضروب شتى، وهو مع ذلك يدور الأسلوب في الأمر الواحد ولا يستمر طويلا على نمط واحد من التعبير كما لا يستمر على هدف واحد من المعاني أضف إلى ذلك أن النظم القرآني نزل على ضروب شتى وآحاد مفرقة على حسب الوقائع والدواعي"[1].

"ولو أنك نظرت إلى نجومه عند تنزيلها نظرت إلى ما مهد لها من أسبابها فرأيت كل نجم رهينا بنزول حاجة ملمة أو حدوث سبب عام أو خاص. إذن لرأيت في كل واحد منها ذكرًا محدثا لوقته وقولا مرتجلا عند باعثته، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه ولرأيت فيه كذلك كلا قائما بنفسه لا يترسم نظاما معينا يجمعه وغيره في نسق واحد.

ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ساعة نزوله بسياج خاص يأوي إليه سابقا أو لاحقا وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدما أو متأخرا، إذن لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدود أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها بل من قبل أن تبدأ الأطوار المهدة لحدوث أسبابها، وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل، قد أبرمت بآكد العزم والتصميم، فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخرا وأولا ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفا ولا متحولا"[2].

وإدراكه لهذه السمة برز في معالجته للنظم القرآني موضوعيا وفنيا. وكما ذكرنا من قبل لقد استنار برأي الإمام الشاطبي في الموافقات، وذلك بصدد عرض سورة "المؤمنون" في المسألة الثالثة من الكلام على الأدلة تفصيلا: "إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره..." وكثير من العلماء الذين تناولوا هذه الوحدة في القرآن الكريم منهم: أبو بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبي بكر بن العربي وبرهان الدين البقاعي[3] والفضل في ذلك يعود إلى أبي بكر الباقلاني الذي مهد الطريق للذين جاءوا من بعده.

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص143، 145، بتصرف.

(2) - المصدر نفسه، ص150.

(3) - المصدر نفسه، ص159.

- الوحدة الموضوعية:

ولو عمدت إلى سورة تتناول أكثر من معنى. وتنقلت بفكرة معها مرحلة مرحلة ونظرت كيف بدئت وكيف ختمت وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها لأخراها؟ لن تجد في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به إن كانت السورة نزلت في نجم أو أكثر [1] تقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني والمباني جمعت وحشيت كيفما اتفق، فإذا هي لو تدبرت قد بنيت من مقاصد كلية على أسس وأصول. وكل أصل يتشعب إلى فصول، وكل فصل إلى فروع تقصر أو تطول فالمعاني تتسق وتلتحم في السورة كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان. وتؤدي بمجموعها غرضا واحدا، كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد[2].

وينتهي إلى نتيجة: "هي أن النظم القرآني ليس من عمل محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا علمه إياه مخلوق "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"[3]... أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى، ولا يتردد ولا يتمكث، كان قد أعد لهذه المواد المبعثر نظامها وهداها في إبان تشتيتها إلى ما قدره لها حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟.. أليس ذلك وحده آية بينة على هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر وإنما هو صنع العليم الخبير؟"[4].

ثم يستشهد - رحمه الله - على صحة كلامه هذا بسورة البقرة وهي "أطول سورة في القرآن وأكثرها جمعا للمعاني المختلفة، وأكثرها نجوما، وأبعدها في التنجيم تراخيا. فقد حوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفا وثمانين نجما. وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددا ويبين أنها حوت تحويل القبلة وصيام رمضان وذكر أول قتال في الإسلام وكان هذا في السنة الثانية. ثم فيها الاية الخاتمة وهي نزلت في آخر السنة العاشرة وفيها ما بين ذلك"[5].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص154.

(2) - المصدر نفسه، ص155.

(3) - النساء: 82.

(4) - المصدر السابق، ص157.

(5) - المصدر السابق، ص158.

- الوحدة الفنية:

إذا تأملنا نظم القرآن وجدنا أنه - كما يقول الدكتور دراز - القرآن إيجاز كله سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله والوحدة في الكثرة بمعنى جمع الأحاديث المختلفة المعاني المتباعدة الأزمنة المتنوعة الملابسات في حديث واحد مسترسل هو منظنة التفكك والاقتضاب ومنظنة المفارقة والتفاوت، فإن صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معنى أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد، تلك هي المعضلة الإنسانية الكبرى في الإهتداء إلى تحديد وضع كل جزء من أجزاء المركب قبل تمام أجزائه بل قبل معرفة طبيعة تلك الأجزاء، واجتماع هذه الأسباب كلها في كل سورة قرآنية متفرقة النجوم دون أن تغض من إحكام وحدتها ولا من استقامة نظمها هو بالتحقيق معجزة المعجزات.

وكان ذلك وجها من وجوه الإعجاز البياني عنده هذا بالنسبة للبناء العام ومنه ينتقل الدكتور دراز إلى المكونات الجزئية إلى الكلمة والعبارة إلى الأسلوب فالكلمة المفردة لها إشعاعها الخاص بها وطاقاتها في ذاتها. القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعنى "فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بيانا قدّر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية: نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولواحقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه..." ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدًا. ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجا تجدها قد جمعت بكلمتي الإحكام والتفصيل وأي إحكام وتفصيل؟ "إحكام" من حكيم متقن لا خلل في صناعته، وتفصيل من "خبير" عالم بدقائق الأمور وتفاصيلها على ما هي عليه"[1].

خطاب العامة وخطاب الخاصة: "فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم. ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو متعة العامة والخاصة على السواء ميسر لكل من أراد "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ"[2][3].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص111، 112.

(2) - المصدر نفسه، ص113.

(3) - القمر: 17.

إقناع العقل وإمتاع العاطفة: "وفي النفس الإنسانية قوتان، قوة تفكير وقوة وجدان وحاجة كل واحد منهما غير حاجة أختها. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته. وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام هو الذي يوَفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين. فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معًا. فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس. لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوًا في جانب. وقصورا في جانب فأما الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك.. وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك... هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعا لها حين قال أو كتب.

وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع في يديك هذين الطرفين معا... ذلك الله رب العالمين. فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن. وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معًا بلسان وأن يمزج الحق والجمال معًا يلتقيان ولا يبغيان... يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها "تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ"[1] و"إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ"[2][3].

البيان والإجمال: يتميز البيان القرآني بميزة هي جمعه بين البيان والإجمال تقرأ القطعة من القرآن فيتبادر معناها إلى ذهنك واضحًا محددا حتى تظن ولكأن لا معنى آخر لها، فإذا أعدت النظر فيها بدت لك وجوه أخرى كلها صحيحة أو محتملة الصحة، كأنما هي فصّ من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع، اقرأ قوله تعالى. "وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"[4][5].

ثم يقول: قد عرضنا لك جانبا من تلك العجائب البيانية التي لا تنال مثلها أيدي الناس. وتمثل دقة التعبير القرآني ومتانة نظمه، وعجيب تصرفه حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري في اللفظ القاصد النقي. في

---

(1) – الزمر: 23.

(2) – الطارق: 13، 14.

(3) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص113، 116.

(4) – البقرة: 212.

(5) – المصدر السابق، ص 117 وما بعدها.

أسلوب معجز في وصفه كما هو معجز في نفسه غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه وهي أنه تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها.

2 – تأثر تذوق دراز بالجدل المنطقي. الموضوعي.

لقد حدد الدكتور دراز أوجها عديدة لإعجاز القرآن من خلال تحليله لأوجه الإعجاز الثلاثة عند الباقلاني يلمس ذلك أي قارئ من خلال فهرست كتابه وهي:

1 – في المرحلة الأولى من البحث تطرق إلى شرح مفصل للوجه الأول - عند الباقلاني - من الإعجاز القرآني وهو الإخبار بالغيوب: فنجده يذكر الأخبار الغيبية الدينية التي لا سبيل للعقل إليها ثم يذكر الأخبار الماضية والمستقبلية.

2 – في المرحلة الثانية من البحث تطرق إلى شرح مفصل للوجه الثاني من الإعجاز القرآني وهو أمية النبي – صلى الله عليه وسلم - فنجده يذكر البحث عن محمد - صلى الله عليه وسلم - بين الأمين وأهل العلم ويخصص مرحلة ثالثة من البحث في ظروف الوحي وملابساته الخاصة عن مصدر القرآن، وكذلك ظاهرة الوحي وتحليل عوارضها. والاستئناس بما كشفه العلم في العصور الحاضرة كل ذلك من أجل إثبات أمية النبي – صلى الله عليه وسلم –

3 – وفي المرحلة الرابعة من البحث تطرق إلى شرح مفصل للوجه الثالث من الإعجاز القرآني وهو أنه بديع النظم عجيب التأليف. متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه فنجده يبحث في جوهر القرآن نفسه عن حقيقة مصدره، ويؤكد على أن طبيعة القرآن حجة على سماويته: حدود القدرة البشرية وحدة الإعجاز.

ولكي تخلص له هذه الأوجه الإعجازية دخل في جدل منطقي موضوعي مع من ادّعى أن القرآن من عمل محمد - صلى الله عليه وسلم - بمعنى إيحاء ذاتيا من نفسه.

وهكذا فتح الجدل المنطقي الموضوعي لحظات الاستجابة الفطرية السليمة لنغمات الفن الجميل وأثمرت لنا بحثا أصيلا في مجال الدراسة القرآنية بصفة عامة.

وهو بهذا يضع للقارئ منهاجا للوصول إلى سر إعجاز القرآن البياني يقوم على الفهم والتأمل والتواصل بين القرآن وقارئه... ليحكم على النظم القرآني بذوقه.

تأثر تذوق دراز بالمنهج الأدبي:

يقول الدكتور دراز: "إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شهادة حسبك من شهادة وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم، بل شهادة الأعداء لعدوهم.

وَإِذَا لَمْ تَـرَ الهِـلَالَ فَسَـلِّمْ ۞ لِأُنَـاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَـارِ

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والميز بين أساليبه فاقرأ ما شئت من خطب العرب وأشعارها وحكمها وأمثالها ورسائلها ومحاوراتها، متتبعا في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى؟

أسلوب عجب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول وكأن بينها على حدّ قول بعض الأدباء "وضع مرتجل" لا ترى سابقا جاء بمثاله ولا لاحقا طبع على غراره. فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها واستمازت من بينها. كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان أو الفاكهة الجديدة بين الوان الطعام"[1].

ويقول أيضا: "سل العلماء بنقد الشعر والكلام: هل رأيت قصيدة، أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ولفظ جامع ونظم رائع؟"[2].

ويقول أيضا: " لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئا من الحذف في كلامها، وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟ قال: في الدار. وإذا قيل له: من في الدار؟ قال: أخي. ولو قال أخي في الدار، لعدّ ذلك منه ضربا من اللغو والحشو. لكن الشأو الذي بلغه القرآن في هذا الباب - كغيره من أبواب البلاغة - ليس في متناول الألسنة والأقلام، ولا في متناول الأماني والأحلام"[3].

ومن خلال هذه النماذج التي تدل على ذوق دراز الرفيع يبقى للمنهج الأدبي سيادته وشرعيته في تناول النظم القرآني بالتحليل الفني - الذي يعتمد التذوق الفني - لأن النظم القرآني في حقيقته أثر لغوي

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص93، 94.

(2) - المصدر نفسه، ص111.

(3) - المصدر نفسه، ص137.

أدبي له طابعه الخاص ولا يفتق أكمامه إلا الخاصة من الأدباء الموهوبين من أمثاله. لقد وفّى هذا المجال حقه وأفاض في الحديث كأنما يتدفق من ينبوع لا يغيض أبدا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموازنة بينهما من خلال أسس الإعجاز:

ليس من السهل أن نقول: إنهما يمثلان طريقة واحدة في الأداء على الرغم من أن هدفهما واحد، فإن لكل منهما أداءه الخاص، وطريقته الفذة التي عرفته بها الجماهير المسلمة وحسبنا أن نقرأ لكل واحد منهما، لندرك أنه يمثل عقلا وثقافة، ومنهجا يختلف بها عن الآخر ومما لا شك فيه أن هناك اتجاهات متعددة في دراسة فكرة إعجاز القرآن لكل منها منهجه الخاص الذي يميزه عن المناهج الأخرى، دون أن يفقد الصلة القوية التي تربطه بالإطار العام للدراسات القرآنية.

ومن بين أهم هذه المناهج ما يأتي:

منهج القاضي الباقلاني في مفهومه للإعجاز القرآني من خلال كتابه الشهير "إعجاز القرآن".

منهج الدكتور عبد الله دراز في مفهومه للإعجاز القرآني من خلال كتابه الشهير "النبأ العظيم"

-خصائص المنهجين:

-**منهج الباقلاني**: إن "ما كتبه الباقلاني في "إعجاز القرآن" وفي "الانتصار لصحة نقل القرآن" وما كتبه في "التمهيد" يشكل دراسة تامة لبيان القرآن، وأثره وصلته بالبيان العربي إلى جانب النواحي الأخرى الكلامية في الإعجاز، وتوضح هذه الدراسة موقف الباقلاني من الدرس البلاغي ومن النظم، وصور التعبير المختلفة، في دراسة ضافية يتضح منها منهج جديد في معالجة النص القرآني، والكشف عن أسرار الجمال فيه وتعليلها"[1].

وبعض الدارسين يتناول موضوع تلك الدراسة في الكتب الثلاثة بالترتيب الآتي:

أولا: كتاب التمهيد.

ثانيا: كتاب الانتصار.

ثالثا كتاب الإعجاز.

وقد يكون هذا الترتيب غير دقيق من وجهة النظر التاريخية، ولكن الذين أخذوا بهذا الترتيب - وقد أعوزتهم الأدلة - أخذوا به لغرضين:

أولهما: احتمال قرب الترتيب السابق من الترتيب الزمني.

---

[1] - أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص268.

ثانيهما: التسلسل في قيمة الموضوع الذي نحن بصدده "إعجاز القرآن" تسلسلا تصاعديا.

في الترتيب السابق؛ فالتمهيد كتاب في العقيدة بوجه عام يدخل إعجاز القرآن فصلا فيه والانتصار خاص بعلوم القرآن يبحث تاريخه ونقله، وسوره ولغاته، ومن بينها إعجاز القرآن ويستغرق جزءا هاما فيه.

أما إعجاز القرآن فهو دراسة تامة وشاملة لموضوع الإعجاز وهناك سمتان واضحتان في نظرية إعجاز القرآن عند الباقلاني:

السمة الأولى: المنهج الكلامي المنظم. فقد اهتم بوضع المقدمات التي تنبئ عن الفكرة، ثم شرح ما جاء فيها من مسائل، ومناقشاته، وهذا المنهج متبع بوضوح في "إعجاز القرآن" ويدل ترتيبه وتناوله للموضوع على امتلاكه ناصية الجدل[1].

ويصطنع في كلامه أسلوب الحوار ليتدرج بالسامع في فهم ما يريد، متابعا ما قد يوجه إلى الرأي من حجج معارضة فيفندها واحدة واحدة في ترتيب ووضوح.

السمة الثانية: المنهج الأسلوبي والمعاني العامة التي تصورها الألفاظ والعبارات، وما فيها من جانب بلاغي مستفيدا بما كتبه السابقون.

ويمكن تلخيص نظرية الإعجاز عند الباقلاني في خطوات.

1 – يبدأ بعرض الفكرة في كتاب "التمهيد" عرضا بسيطا، فيثبت صحة ما بين أيدينا من نص القرآن، وأنه هو حقا كتاب الله المنزل على نبيه، وأنه آية محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعجزته الخالدة[2].

2 – يثبت عجز العرب عن الإتيان بمثله على الرغم من تحديه لهم مرارًا[3].

3 – ينتهي من المقدمات السابقة إلى نتيجة عامة هي خلاصة نظريته في الإعجاز التي عرضها في كتبه في صور مختلفة وهي "خروج نظم القرآن عن سائر" كلام العرب ونظومهم"[4].

ومما يحتج به على ذلك قوله: "إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق في الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله، ولا يعجز أصل الصناعة، ولا المتقدمون فيها عنه مع التحدي والتقريع بالعجز والقصور؛ لأن

---

(1) – كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، ص156.

(2) – المصدر نفسه، ص160.

(3) – المصدر نفسه، ص167، 168.

(4) – المصدر نفسه، ص169.

العادية جارية بجمع الدواعي والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم في الصناعة وما أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم - من القرآن قد خرج عن حد ما يكتسب بالحذق، وعجز القوم عن معارضته دليل خروجه على نمط كلامهم"[1].

وتمتاز دراسة الباقلاني للإعجاز في كتاب الانتصار "بأنها جاءت ضمن دراسته العامة للقرآن في تاريخه وقراءته ويبدأ الكتاب ببحث كلمة "قرآن" ثم ينتقل إلى أقسام القرآن فيبحث في معنى كلمة سورة، وآية ويتعرض فيما يتعرض له لمقارنة الناس بين الآية وبيت الشعر، ومقابلتهم القصيدة بالسورة[2].

ويرفض هذه المقابلة لأنه يرى أن لا صلة بين الآية وبيت الشعر أو بين القصيدة والسورة، وهذا الرأي جزء من نظريته العامة التي لا يرى فيها ثمة تشابها بين القرآن وسائر كلام العرب ونظوم كلامهم.

وإذا كان كتاب الباقلاني بعد ذلك "إعجاز القرآن" هو الدراسة الناضجة لآرائه مجتمعة في نظم القرآن فإن آراءه في إعجاز القرآن هي آراءه في "التمهيد"، و"نكت الانتصار" ونظريته في الإعجاز وجهوده التي جاهد طويلا في تعميقها تأتي بينة ناضجة في كتابه "إعجاز القرآن".

ويمكن تقسيم كتاب "إعجاز القرآن" إلى قسمين أساسين هما:

1 – قسم استدلالي برهاني: التزم فيه بالمنهج الكلامي المنظم، والبرهنة العقلية دون الحسية وهذا يدل على أنه كان متأثرا بعلم المنطق - الفلسفة اليونانية - هذا في الحقيقة يجعلنا نلمس في وضوح ملامح الإدراك التاريخي للإعجاز القرآني بمعنى تخليص الإعجاز القرآني من السمة الساكنة المستقرة، وربطه بالتطور التاريخي للمعرفة الإنسانية التي لا يدرك الإعجاز القرآني إلا على ضوءها وانطلاقا منها في كل مرحلة تاريخية وعصر من العصور، فمعرفتنا وعلومنا التي ننطلق منها في تفسير النص القرآني، وكشف حقائقه هي التي تطلعنا على إعجازه وليس العكس.

ففي أوائل كتابه يتكلم عن أهمية الإعجاز، وأنه أساس تبنى عليه نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم- ذاته "في أن نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - معجزتها القرآن" وبواسطته يعرف أنه صادق في دعواه.

---

(1) – كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، ص170.

(2) – كتاب نكت الانتصار للباقلاني، ص1، 3.

ولكنه لا يضع تعريفات محددة ومميزة لمصطلح الإعجاز والمعجزة، والفرق بينهما، فهما عنده بمعنى واحد؛ غير أنه ينص على خصوصية المعجزة الحسية الخارقة في الزمان والمكان وعدم استمرارها وانحسار حجيتها بمن شهدها فقط.

أما الإعجاز أو ما يسميه "دلالة القرآن" فهي معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت ببقاء العصرين ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة.

وربما يقصد "بدلالة القرآن" المعجزة، أو الإعجاز الذي يدل عليه النص ذاته، وتستقى منه بعكس المعجزة بمعناها الحسي الخارق التي لا تستقى من النص، أو يدل عليها وإنما يجريها الله عز وجل بين يدي رسوله تصديقا لنبوته، ودعواه، بعيدا عن النص ودلالته، غير أنه بقى محكومًا بمقولة "التحدي" وهو"العجز عن الإتيان بالمثل" كعنصرين أساسين في المفهوم التقليدي للإعجاز القرآني، فقد يستدل على الإعجاز بعجز الأولين عن الإتيان بمثله، و يستغنى بذلك عن نظر مجدد، أو قد نستدل بعجزنا الحالي على عجز المتقدمين - من أهل الصنعة اللغوية - وهذه نظرة غير صائبة للإعجاز فزيادة عما تؤدي إليه من تعطيل للنشاط العلمي حول النص واستكناه لأبعاده وخفاياه إكتفاء بعجز الأولين، فإن النص القرآني لا يهدف إلى نزع الاعتراف منا لعجزنا عن الاتيان بمثله، وإنما يحدثنا أن نبحث فيه ذاته عن دلائل كونه من عند الله. والبحث عن الدلائل والامارات كما نعلم نشاط فكري لا يتوقف على مرّ الزمن، لأنه يقوم على كشف دلالات القرآن ضمن أشكال الوعي مثل النظريات العلمية ومذاهب فكرية وفلسفية، وأنماط المعرفة الانسانية المتغيرة في التاريخ.

والحقيقة أن الباقلاني اعتمد المنهج الكلامي الجدلي في الدفاع عن إعجاز القرآن، وهو في جميع استدلالاته النظرية ينتقل بين تحدي النص، وغياب الإستجابة في التاريخ، لذلك توقف الإعجاز في القرن الرابع الهجري على فن القول، لأن الثقافة اللغوية كانت غير متطورة عكس الثقافة الفكرية التي كانت سائدة وفي تطور مستمر.

إذن انعدام المثيل للنص القرآني دليل حاسم عند الباقلاني على الإعجاز، هذا هو المفهوم التقليدي للإعجاز القرآني، والذي ما يزال التمسك به قائما من قبل المعاصرين على الرغم من عدم انطباقه على تحققات الإعجاز القرآني في العصر الحديث.

والباقلاني كان مدافعا بالأدلة العقلية المنطقية عن قضايا العقيدة يحسن تقليب المسائل وتفتيتها وتقديم أجوبة عن كل تساؤلات وافتراضات يقوم هو نفسه بإثارتها والرد عليها.

كاد الباقلاني أن يهتدي إلى مفهوم الإعجاز الصحيح من خلال مناقشاته لمواضيع مختلفة من فصول الكتاب، لكن اقتصار النشاط الثقافي في توضيح النص القرآني وكشف دلالاته على المجالات اللغوية دون غيرها. وفهم مصطلح الإعجاز بمعنى نفي القدرة على الإتيان بالمثل كانا عائقين من طبيعة معرفية من الصعب جدًا تجاوزهما، لذا تبقى وسائل كشف الإعجاز وإدراكه منحصرة في "فنون القول ووجوه المنطق".

والحق أننا نعجب لماذا يصّر الباقلاني على أن الإعجاز لا يتحقق إلا بعد الإقرار الفردي بالعجز عن الإتيان بالمثل.

ألا يمكننا الاستدلال على المصدر الإلهي للقرآن بنتائج معرفتنا، وخبرتنا التي نتعامل بها مع النص دون الحاجة إلى الاقرار منا بالعجز؟ فالله سبحانه يريد منا أن نستدل على مصدر النص لا على عجزنا، ولكن الذي جرّ الباقلاني إلى هذا المفهوم إلا أنه كان في موقف الرد على الملحدين والطاعنين في القرآن، ولم يكن يبين رأيا محكم الجوانب متسق الأجزاء في الإعجاز فاستدرجته تلك الطعون إلى تقرير - وضع - مفاهيم الإعجاز التي لا تتماشى مع تحققاته في التاريخ.

والواقع أن الباقلاني ينطلق في اعتبار العجز عن "الإتيان بالمثل" أهم دليل على كون النص من عند الله تعالى لقوله "فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ"[1] غير أن الآية خاصة بمن كان منطلقه الاعتقاد ببشرية مصدر النص وأولها "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" لكن ما معنى الإبقاء على مفهومي "العجز والإعجاز" مع العقول المؤمنة والمصدقة التي تبحث فقط عن الدلائل القاطعة، بالمصدر الإلهي للنص، فصاحب المنطلق الإيماني في حاجة إلى إثبات دليل إيمانه من القرآن الكريم في كل عصر ومرحلة، أما المنكر فهو الذي يستخدم معه دليل إثبات العجز ودليل الإيمان فقط.

ولقد استطاع الباقلاني أن يتدرج بالسامع في فهم ما يريد بأسلوب حواري يلائم طبيعة المنهج الجدلي الكلامي ويؤكد حقا أنه يمتلك ناصية الجدل، كما ركز الباقلاني على المعاني العامة التي تصورها الألفاظ والعبارات وما فيها من جانب بلاغي.

فحقيقة إعجاز القرآن عند الباقلاني أنه لا يقدر عليه العباد، لأنهم لو قدروا عليه لبطل الإعجاز، وقد جعل دراسته تنحصر في جملة وجوه، يمكن اعتبارها لب كتابه، إذ أنه يتحدث عن أدلة كون القرآن من عند الله، وبما أنه ليس هناك دليل واحد أو وجه واحد فإعجاز القرآن يعتبر مجمل ينطوي على أدلة متعددة،منطقية فنية تاريخية وعلمية... ومجمل هذه الأدلة هو إعجاز القرآن "إعجاز مطلق".

---

[1] - هود: 14.

ويذكر الباقلاني للإعجاز ثلاثة أوجه رئيسية بترتيب في غاية الأهمية وهي:

1 – **الإخبار عن الغيوب**: وهو في ذلك يشير إلى موافقات النصوص مع وقائع التاريخ الإسلامي..وهذا الوجه ليس أساسه نفي الشبه والمثيل كما هو الحال مع الوجه البلاغي، وإنما هو أساسه المماثلة والمطابقة بين النص ووقائع التاريخ – كما في رأي الباقلاني – أو بين النص القرآني ونتائج المعرفة الإنسانية المؤكدة كما هو السائد اليوم في ميادين الإعجاز الكوني.

من العجيب تصدير الباقلاني هذا الفصل الهام بالحديث عن هذا الوجه من الإعجاز بالذات هل يدل هذا منه على تقديمه لهذا الوجه وتفضيله على الوجوه الأخرى نعتقد ذلك؟.

كلن الباقلاني في تقريره هذا الوجه الهام من الإعجاز منغمسا في فضاء الثقافة التقليدية التي يسودها الاعتقاد الراسخ بنجاعة الاقتصار على الأداة اللغوية وحدها. في تفسير النص وإظهار إعجازه.

إن الغيب الذي يقصده الباقلاني هو كل معنى قرآني يتحقق في واقع إنساني، ونعلم جيدا أن الغيب بهذا المعنى لا ينتهي لأن دلالات القرآن ومعانيه التي لا تعرف النفاد يكشف عنها تطور التاريخ الدائم، ومن ثم إعجاز القرآن متجدد وغير نافد أو متوقف.

ولكن هل كان الباقلاني يقصد في الإخبار عن المغيبات هو موافقات القرآن مع حقائق التاريخ أم يمد المعنى ليشمل موفقاته مع حقائق الكون وخبرات الإنسان؟

إن اللحظة التاريخية التي عاشها الباقلاني وطبيعة النشاط الثقافي السائد هو الذي يهدي إلى الجواب الصحيح.

2 – **أمية النبي** – صلى الله عيه وسلم – يقارن الباقلاني بين أمية النبي – صلى الله عليه وسلم – وبين القيمة المعرفية الهائلة التي ينطوي عليها النص القرآني خصوصا مطابقات دلالاته لوقائع التاريخ الماضي للإنسان – قصص الأنبياء والرسل – ليستدل بذلك على سبيل الاقتضاء المنطقي، أنه – صلى الله عليه وسلم – كان معلمًا بوحي، وأن القرآن ذو مصدر إلهي، وهو يجلب لهذا الوجه الإعجازي ما يدع مشروعيته كدليل ينفي كل شك عن المصدر الإلهي للنص في قوله تعالى: "**وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**"[1].

---

[1] – العنكبوت: 48.

فحكمته تعالى اقتضت أميته – صلى الله عليه وسلم – دفعا لأي شك أو ارتياب، قد يحصل حول المساهمة البشرية في إنتاج النص القرآني.

من الرائع جدًا ملائمة فكرة الباقلاني عن وجوه الإعجاز وترتيبها بالشكل الذي يتحقق في أيامنا المعاصرة، إذ صار في كل عملية إعجازية تؤكد المطابقة بين النص وحقيقة كونية يعقب دومًا بالإشارة إلى أمية النبي – صلى الله عليه وسلم – التي تعتبر جزء تدعيمي لإعجاز النص القرآني.

والملاحظ أن الباقلاني لم يأت بجديد، سوى أنه أشار إلى أهم نقطة، والتي يمكن اعتبارها من ابتكاره، وهي أمية النبي – صلى الله عليه وسلم – وهذا وجه الإبداع لديه، حينما تحدث عن وجوه الاعجاز، وفق ترتيب معين، مما يدل أن لهذا الترتيب معنى عند الباقلاني، حيث بدأ بذكر الإخبار عن الغيوب، ثم أمية النبي – صلى الله عليه وسلم – المعلوم من حاله أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ.

2-و قسم فني بلاغي: وقد بذل الباقلاني جهدًا كبيرا في سبيل إظهار الجانب الفني في القرآن، وهو يرى أن الإعجاز القرآني، لا يعرف إلا من جهة العربي الفصيح العارف للسان العربي، أما الذي لا يعرف الفصاحة وأساليب الكلام ووجوه تصرف اللغة، فهو كالأعجمي فلا يعلم إعجاز القرآن إلا إذا علم أن العرب قد عجزوا عنه فهو لذلك أعجز.

ويتضح من خلال كتابه "إعجاز القرآن" أنه لم يكن قاصدًا للجانب البلاغي قصدًا ولكن الكتاب تضمن كثيرًا من القضايا البلاغية التي حددها سابقوه فوضح كثيرًا من جوانبها واضاف إليها جديدًا. ويتمثل في الوجه الثالث وهو أن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي عجز الخلق عنه.

حيث اعتمد في تجلية هذا الوجه على المنهج المقارن، قارن فيه بين النص القرآني وبين روائع الأدب العربي "جاهليا وعباسيا" ليثبت بالدليل أن القرآن مما لا يقدر عليه العباد.

وهذا يؤكد أن الباقلاني كان منغمسا في واقع قائم على الثقافة التقليدية، وكان معتبرًا بانتصار الفكر الإيديولوجي، وليس بانتصار الفكر المادي، وكذلك مطابقة مضمون النص لوقائع التاريخ.

والفكرة التي وجهت كتابه إلى إثبات "نفي الشبه" بالإضافة إلى "إثبات العجز" اعتماده، المنهج الاستدلالي الجدلي وهو المنهج المعتمد في هذين الطريقين، حيث كان هدفه الوحيد هو إحكام القول في هذا

الشأن، أي نفي المشابهة عن النص القرآني هذا من الناحية الفنية. أما من الناحية المنطقية فهو إثبات العجز حيث قال قولته المشهورة "ما لا يمكن تعلمه هو المحقق للإعجاز"[1].

وانتقد الرافعي كتاب الباقلاني على الرغم من اعترافه بعظم شأنه. بما انتقد به الباقلاني الجاحظ فيقول: "على أن كتاب الباقلاني. وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذبه وصفاه. وتصنع له إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره. ولم يتحاش وجها من التأليف لم يرضه من سواه وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ" لم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى. فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام. وإلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل... واستراح إلى النقل"[2].

ويذكر الباقلاني أنه لم يقم بما أخذ على نفسه القيام به ولكنه لا ينكر قيمة الكتاب من حيث وفاؤه بما قصد إليه من أمهات المسائل.

فقد كانت الدراسة في كتابه "إعجاز القرآن" مرتبة ترتيبا منطقيا علميًا حيث بدأ بتلخيص مجمل لنظريته في الإعجاز - كما يراها - ثم تناولها بالشرح والتفصيل أثناء الكتاب. ورد على الإعتراضات وفند حجج المعارضين والمخالفين في فصول الكتاب... ثم انتهى في آخر الكتاب - ككل بحث علمي - إلى تلخيص جامع للنتائج التي توصل إليها وقد كانت دراسات الباقلاني - بحق - مثمرة لنظرية تكاد تكون متكاملة المعالم يتضح من خلالها الاستقلالية والرؤية الخاصة. والنمط المتميز وهي تتلخص في الوجوه الثلاثة التي سبق ذكرها"[3].

ونستشف من هذا كله أن الدليل الإعجازي عند المتقدمين وبخاصة الباقلاني كان ذوقي برهاني يقوم على أساس الاستدلال العقلي بموافقته لحقائق التاريخ على المستوى العام بمعنى أدق نفي المثل وعلى هذا الأساس فالإعجاز عند المتقدمين كان مقرونا بالتحدي.

- **منهج الدكتور عبد الله دراز:** إن ما كتبه الدكتور دراز في "النبأ العظيم" يشكل دراسة تامة لبيان القرآن، وأثره وصلته بالبيان العربي، إلى جانب النواحي الأخرى الكلامية في الإعجاز. وتوضح هذه الدراسة موقف

---

(1) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص276.

(2) - إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي: 152. وكذلك كتاب المعجزة الكبرى، للإمام محمد أبو زهرة، ص85، 86.

(3) - أثر القرآن في تطور النقد العربي. محمد زغلول سلام. ص279.

عبد الله دراز من الدرس البلاغي ومن النظم، وصور التعبير المختلفة في دراسة ضافية يتضح منها منهج جديد في معالجة النص القرآني، والكشف عن أسرار الجمال البياني فيه وتعليلها.

وهناك سمتان واضحتان في نظرية إعجاز القرآن عند الدكتور عبد الله دراز.

السمة الأولى: فقد اهتم بإيراد الوجوه المقبولة، وحسن عرضها، وتفصيل أجزائها، ومناقشتها وجودة تقسيمها وترتيبها علميا، ثم تفصيل كل منها وفق ترابط منطقي قوي ينتهي إلى تبين النتائج التي توصل إليها من خلال تحليله لها. وهذا المنهج متبع بوضوح في كتابه "النبأ العظيم" ويدل على إلمامه الواسع بجوانب الموضوع واستيفائه وحسن تنظيمه وفق خطة منهجية محكمة، مع غزارة العلم وحرارة الدفاع عن الرأي.

السمة الثانية: اعتمد في توضيح ذلك على أسلوب الحوار تارة وأسلوب التفكير تارة أخرى، الذي يقوم على الواقع والمشاهدة، ويدعو إلى استخدام الحواس في الوصول إلى الحقيقة، ويقيم النتائج والأحكام والآراء على أساس واقعي، كما تميز بكثرة الشواهد القرآنية على كل فكر من أفكاره مهما دق، حيث نجده عند تفسيره لبعض الآيات يظهر فيه جمالها الفني، لأنه كان يعتقد أن العلم والفهم والذوق كلها تشهد بإعجاز القرآن اللغوي والبياني، ففيه الجمال التوقيعي المؤثر... وفيه قدرة في الألفاظ على أداء المعاني أعظم شأنا من فصاحتها اللفظية، وفيه دقة التصوير وإجادة التعبير عن أي معنى، وهذا يؤكد على أن الدكتور دراز كان ملمًا بعلوم اللغة - دراية ورواية - مما أمكنه من الوقوف على أسرار الإعجاز اللغوي، والبياني، وإن كان في الأصل مسبوقا إليها.

لقد استطاع أن يفصلها ويجعلها ملائمة للعصر، كجعله النظريات العلمية الحديثة وجها من وجوه الإعجاز القرآني، ثم تفصيله في حسن تأليف القرآن، في الآية منه، وفي السورة وفي عدة سور فيما بينها وفي القرآن كله.

ويمكن تلخيص مفهوم الإعجاز - أو نظريته - عند الدكتور دراز في خطوات:

1 - يبدأ بعرض الفكرة بعدما أثبت صحتها في كتابه "التعريف بالقرآن" وهي طريقة القرآن في إثبات ربانية مصدره، وأنه حقا كتاب الله المنزل على نبيه، وأنه آيته - صلى الله عليه وسلم - ومعجزته الخالدة. "بل إن إعجازه يمتد إلى ما يمتنع عن قوله أو يسقطه عن قصد، فوراء العلم الذي يقدمه لنا يضرب النطاق حول منطقة حرام. لا يخترقها علمنا المحدود استأثر بها علم الله . فهل خالف النجاح أية محاولة لاختراق هذا الحاجز بخطوات ثابتة؟"[1].

---

[1] - مدخل إلى القرآن الكريم، عبد الله دراز، ص179، 180.

وانطلاقا من هذه الفكرة العميقة الغور أراد أن يحدد القرآن تحديدا منطقيا، وبيان مصدره.

2 – يثبت أن التحدي الإلهي لم يهدمه أحد في الماضي ولن يهدمه أحد في المستقبل.

3 – وينتهي من هذا البحث العميق إلى نتيجة عامة هي خلاصة نظريته في الإعجاز التي عرضها في كتبه في صور مختلفة، وبخاصة كتاب "النبأ العظيم" نظرات جديدة في القرآن الكريم وهي خاتمة كتابه - الجزء الأول.

ولم ير الدكتور عبد الله دراز في القول بالصرفة وجها من وجوه الإعجاز القرآني لأنه لا يستقيم في ذاته للتفكير العلمي والمنطقي كما أنه ينتهي في حقيقته إلى إنكار الإعجاز القرآني. وهذا ما أقرّه الباقلاني من قبل حينما نفى الصرفة نفيا باتا: "ولو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو العجز فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه"[1].

فحقيقة الإعجاز القرآني عند عبد الله دراز، أنه لا يقدر عليه العباد من حيث النظم، لأنه قد خرج عن سائر كلام العرب ونظومهم. "ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية. كلا ذلك ما لا نطمع فيه و لا ندعو المعارضين إليه، وإنما نطلب كلاما أيا كان نمطه ومنهاجه على النحو الذي يحسنه المتكلم أيًّا كانت فطرته ومزاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة، فالأمر الذي ندعوهم إلى التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء وفيه يتماثلون أو يتقاربون، وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لابد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم"[2]

والواقع أن الدكتور عبد الله دراز قد أدرك – فعلا – أنه قد برزت مسائل أخرى في وجه الإعجاز البياني الذي كان ويزال يؤدي دوره في خدمة القرآن وإعجازه، وانحسار دائرته، والقدرة على الوقوف على مكامن الروعة في النص القرآني واقتصارها على الناطقين العربية دون غيرهم. كما أدرك أيضا بمرور الوقت صار العربي نفسه في حاجة إلى ثقافة لغوية لا بأس بها ليمكنه إدراك الإعجاز القرآن.

أما غيره من الأعاجم فهم بمعزل عن هذا الإدراك بالجملة، وقد فطن الدكتور دراز في دراسات الإعجاز إلى وجوب صرفه إلى الناحية المعنوية والدلالية حرصا منه على مدّ آفاق الإعجاز وتوسيع دائرته.

---

[1] – إعجاز القرآن للباقلاني، ص 29.

[2] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص95.

فنص على أن القرآن معجز في لفظه ومعناه كليهما فإذا أعجز العرب أصحاب اللسان ببيانه وألفاظه فهو معجز لغيرهم من الأجناس بمعاني هذه الألفاظ ودلالاتها.

وما يلحظ في كتاب "النبأ العظيم" من بعض الإشارات العلمية في الاستشهاد على إمكان الوحي بالمخترعات العلمية كالهاتف والتنويم المغناطيسي. فإنما كان ذلك منه من باب لفت النظر إلى اشتمال القرآن المعجز ببيانه على جميع العلوم الدينية والدنيوية "أما النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة، إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو... عكس الفضيلة العلمية، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته، وبأي لغة عبرت عنه"[1].

ودراسات الدكتور دراز في الإعجاز تكاد تنحصر في جملة من أوجه الإعجاز القرآني تعتبر لب كتابه "النبأ العظيم" وبعد أن بين الفرق بين القرآن والحديث القدسي وحديث النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى من وجوه الإعجاز ما يلي:

- الأخبار الغيبية الماضية والمستقبلية - على أمية النبي - صلى الله عليه وسلم.

- وبقاء القرآن دون تحريف، وعجز العرب وسائر البشر عن المعارضة.

- ويفند الرأي الحديث القائل بالوحي النفسي الذي يهدف إلى نفي الوحي الإلهي، ويستشهد على إمكان الوحي بالمخترعات العلمية كالهاتف والتنويم المغناطيسي.

-أسلوب القرآن وعلومه، وأثره في القارئين والسامعين.

-ونراه ينفي الصرفة نفيا باتا - وهذا بديهي لأنها تخالف المنطق العلمي الذي أخذ نفسه به وللإعجاز عنده ثلاثة وجوه رئيسية هي:

1 - الإعجاز اللغوي البلاغي.

2 - والإعجاز التشريعي.

3 - والإعجاز العلمي، ومنه توافق القرآن مع مقررات العلم الحديث الثابتة.

وقد تناول الدكتور دراز في "النبأ العظيم" جانبا من الإعجاز اللغوي البلاغي، وهو ما سنلخصه الآن:

فالدكتور دراز يرى أن القرآن معجزة لغوية، وأن العلم والفهم والذوق تشهد بإعجاز القرآن اللغوي البياني.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص107.

- ففيه الجمال التوقيعي المؤثر، وفصاحة الكلام وعزّة وغرابة في الأداء يميزانه وفيه قدرة في الألفاظ على أداء المعاني أعظم شأنا من فصاحتها اللفظية وفيه دقة التصوير وإجادة التعبير عن أي معنى.

وقد جعل خصائص القرآن البيانية أربعة مراتب .

- القرآن في قطعة قطعة منه.

- والقرآن في سورة سورة منه.

- والقرآن في جملة سوره.

- والقرآن بمجموعه.

ووصل من دراسة ذلك كله دراسة موضوعية فنية إلى أن في القرآن وحدة موضوع في الأجزاء صغرت أو كبرت، وفي المجموع كله، خلافا لما يتهم به القرآن من تشتت الموضوعات في السورة الواحدة والانتقال المفاجئ من زمرة من الآيات إلى زمرة أخرى.

وقرر أن القرآن يجمع بين وحدة الموضوع والهدف، وتنوع الأسلوب، وأنه في كل أحواله يخاطب العقل والعاطفة معًا.

ويتحدث الدكتور دراز عمّا في القرآن من الكبرياء الإلهي الظاهر في مخاطبته الخلق ويثبت أن كل حرف في القرآن له معنى ووظيفة، وليس حرف زائد يمكن أن يحذف ويضرب أمثلة عديدة على بلاغته.

ويرى أن ترابط القرآن الموضوعي الأسلوبي معًا، مع نزوله في فترات متباعدة بحسب الوقائع والمناسبات، وكون المتأخر منه نزولا في الزمن قد يأتي في الترتيب قبل ما نزل قبله. مع تحقيق الانسجام في الموضوع والمعاني والأسلوب، وكون ذلك الترتيب كله توقيفيا

يرى أن اجتماع ذلك كله معجزة في حد ذاته. ويعلله بأن الذي رتب الأحداث في القدر هو نفسه الذي رتب سور القرآن وآياته في هذه الصورة الكاملة .

وقد طبق الدكتور دراز نظريته هذه في وحدة الموضوع القرآنية على سورة البقرة أطول سورة، تطبيقا منهجيا عقلانيا.

وهو يمتاز بخطة تأليف محكمة منهجية، وبالإكثار من الشواهد القرآنية وتحليلها وقد كان هدفه من تحليل السورة القرآنية البرهنة على فكرته الأساسية وهي وحدة الموضوع في مجموعه وفي كل سورة منه، وفي ترابط هذه السورة بعضها ببعض وبذلك يستبعد فكرة من يجدون اقتضابا وانقطاعا في القرآن الكريم.

ولم يقف الدكتور دراز أمام التقدم العلمي موقف المتفرج غير المبالي بل ظهر من بين العلماء الذين أفادوا من الإطلاع على العلوم الغربية والكونية الحديثة، ومن التعمق في فهم القرآن، وأصول الجدل المنطقي، ومن تذوق الجمال الأدبي البلاغي في اللغة العربية والأداء القرآني بخاصة ما جعله قادرًا على المنافحة عن كتاب الله ودينه. بل الانتقال من ذلك إثبات أن الإسلام هو دين المستقبل ومحاولة إقناع غير المسلمين بهذه الفكرة وقد وفق في ذلك توفيقا حسنا لم يبلغ غايته بعد[1].

والدكتور دراز امتاز بالإلمام بالموضوع والإضافة منذ عهد النزول حتى العصر الحاضر بالكلام المفصل فيه وباجتهادات ذاتية قيمة، وبالإضافة إلى ذلك قدرته على التحليل الأدبي والاستنباط العلمي الذوقي وعلى إقناع القارئ والسامع بالفكرة من أيسر سبيل ودون مشقة وتثير فيه الشوق والمعرفة. وإلى تذوق الجمال في الكلمة والفكرة، كما أضاف القول بالإعجاز العلمي في حيّز الاعتدال. كما تتبع كثيرًا من الأمور بالتحليل والتفصيل معتمدا في ذلك على المنهج العلمي الموضوعي. وهو صاحب المنهج التحليلي التفصيلي للشواهد القرآنية تحليلا فنيا بلاغيا علميا، ليثبت به إعجاز القرآن، ويؤكد به أن القرآن يمتاز بوحدة الموضوع، والهدف في أصغر جزء منه وفيه جميعه وأن ترتيبه على هذه الصورة مع نزوله في فترات متباعدة معجزة قائمة بذاتها[2].

والملاحظ أن الدكتور دراز جاء بالجديد في دراسته وهو اكتشاف نظرية نظام عقد المعاني في السورة القرآنية، وأورد هذه الخبرة مترجمة؛ لأن أكثر الناس لم يعودوا قادرين على تذوق المنهج القرآني ذاته والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته.

والفكرة التي وجهت كتابه "النبأ العظيم" واستطاع حقا أن يبرهن عليه حسيا وعقليا هي محاولة إثبات المماثلة، بالإضافة إلى إثبات العجز حيث كان هدفه هو تأكيد نفي المشابهة عن النص القرآني من الناحية الفنية البلاغية في نظرة جديدة شكلا ومضمونا والذي أقره النص القرآني في آيات التحدي، بينما من الناحية المنطقية العلمية إثبات العجز بمماثلة الآية القرآنية للحقائق التاريخية والكونية.

ولكن هذه المماثلة غير ثابتة ولكنها تتغير وتتبدل بمعنى "مرنة" والمرونة هي الشيء الذي لا يمكن مسكه.

---

(1) – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، ص434.

(2) – المرجع نفسه، ص457 وما بعدها.

والدليل الإعجازي عند المتأخرين يقوم على الدليل الحسي آخذا طريقه إلى إثبات الحقائق وبمعنى آخر نقول إن الأساس الموضوعي الحسي يقوم على إثبات المماثلة.

نستشف من هذا كله أن الدليل الإعجازي عند المتأخرين وبخاصة الدكتور عبد الله دراز كان موضوعيا حسيا يقوم على مطابقة حقائق الكون لمقتضى النص القرآني.

لا يكتفي في هذا الجانب بدليل واحد، بل هو يقدم بحوثا قيمة في ضرورة الإعجاز من الناحية العلمية ويسوق شهادات تجريبية، وبحوث نفسية وروحية، تؤكد هذه الضرورة كما يزيدنا ثروة في المفاهيم، ويفسح لنا آفاق الاقتناع الكامل والتام.

ويأتي بعد ذلك دور "الدين" وهو الدليل التاريخي على الحقائق التي جاء بها القرآن الكريم، لأن الرسل والأنبياء – عليهم السلام – هم الذين دلوا على وحدانية الله عز وجل، قبل أن يخطو الإنسان هذه الخطوات الجبارة في ميدان العلم والتجربة.

ومن الضروري أن نلفت النظر هنا إلى أن المؤلف لا يعني بكلمة "الدين" إلا ما عناه الحق سبحانه وتعالى بها في قوله "إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ"[1] فإذا تناول قضية الرسالة فإنه يقصد بذلك – قطعا – رسالة الإسلام، وكتابها المعجز القرآن الكريم، أما كتابه "الدين" فهو عبارة عن بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان. يحتاج هو الآخر إلى بحث خاص تناول فيه بحوث حول الإعجاز العلمي والتشريعي.

والدكتور دراز كان صاحب دعوة يريد إبلاغها إلى ضمير الأمة الإسلامية بلاغا يحركها نحو أهدافها ويوحدها أمام الأخطار التي تواجهها مثلما فعل الباقلاني من قبل.

والواقع أن كتابه هذا يعتبر تحقيقا لحلم طالما راود كتاب العقيدة، والمدافعين عنها، فقد كانت محاولات السابقين للبرهنة على وجود الله، وإثبات الرسالة، وما يتصل بهما من حقائق غيبية -ميتا فيزيقية- قد وقفت عند جهود علماء الكلام باستخدام الأقيسة المنطقية، لأنه أدرك تمام الإدراك أن عقل المسلم في هذا العصر يعيش ظروفا تتغير من يوم لآخر وتطالعه ثقافات ذات جدلية ماهرة، ومناهج علمية تجريبية، لم يعد العقل يقنع بدونها.

لقد أصبح كل شيء موضع شك، وبذلك سقطت القضايا القائمة على المسلمات المنطقية؛ لأنه لا شيء في العقل المعاصر بمسلّم منطقيا إلا وله نقيض منطقي يمكن أن يحتمله العقل...

---

(1) – آل عمران: 19.

أما التجربة فهي الدليل الذي لا يدفع على قضيتها. وما ينتج عن التجربة ليس مسلّما منطقيا ولكنه حقيقة نسبية موضوعية وهذا شأن العلم. ومن هنا كان لابد من تغير المناهج الكلامية لإشباع رغبات متجددة في اليقين. تريد أن تؤسس موقفها على أرض من المعرفة الجديدة التي اخترقت الآفاق، وقاست أبعاد النجوم وتغلغلت في أسرار المادة حتى حطمتها واستخرجت منها طاقات لا حدود لها[1].

ومن هذا المنطلق يكون الدكتور دراز قد ساهم مع غيره من دارسي القرآن الكريم في تأصيل الدرس الإعجازي الذي خرج عن دائرة الإعجاز اللغوي والبلاغي المعتمد على التذوق الفني الرفيع إلى الإعجاز العلمي... المعتمد على البرهنة الحسية والعقلية معًا. والمؤسس على نظريات علمية نسبية واضحة.

والحقيقة التي ينبغي ذكرها هي: أن دراسة الباقلاني وعبد الله دراز للإعجاز القرآني عامة وللنظم القرآني خاصة من حيث الدرسين البلاغي والنقدي تعتبر دراسة رائدة من أي ناحية أتيتها.

فإنهما - من الناحية النقدية - قد اتبعا أحدث المناهج المعروفة في أوروبا الآن[2] في دراستهما المقارنة بين النظم القرآني والنظم البشري وهو المنهج الإحصائي والمنهج الوصفي، وهذا ما سنعرفه من خلال الدراسة في الفصول الآتية - إن شاء الله -

---

[1] - الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ص11، ط6، دار البحوث العلمية، 1981م.

[2] - اتجاهات الفكر الأوروبي الرئيسية في تحليل النصوص الأدبية، عبد العزيز أبو سريع يس، ص135، الطبعة 1، مطبعة السعادة، سنة 1991م.

الباب الثاني

نظام عقد المعاني بين الباقلاني وعبد الله دراز

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد.

الفصل الأول: نظام عقد المعاني عند الباقلاني.

الفصل الثاني: نظام عقد المعاني عند عبد الله دراز.

الفصل الثالث: النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز.

تمهيد

تمهيد: ويحتوي على النقاط الآتية:

- معنى الارتباط عند الباقلاني.
- معنى الارتباط عند عبد الله دراز.
- نظام عقد المعاني بين موضوعات السورة القرآنية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معنى الارتباط عند الباقلاني:

ويصف الباقلاني ما تمكن من رؤيته من الإعجاز في إحكام القرآن وتفصيله فيقول في كتابه إعجاز القرآن: " إن كلام الفصحاء يتفاوت، تفاوتًا بينًا في الفصل والوصل، والعُلو والنُّزال، والتقريب والتبعيد وغير ذلك مما ينقسم إليه الكلام عند النظم. ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع"[1].

ثم يبيّنُ إعجاز القرآن في ذلك فيقول: "إن القرآن على اختلاف ما يتصرّف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الإفراد إلى حد الآحاد"[2].

ولعله يقصد بقوله "يجعل المختلف كالمؤتلف" الذي يختلف في آراء الناس، إذ القرآن لا ينبغي أن يكون فيه اختلاف أبدا !!

وكذلك الرأي في قوله "والطرق المختلفة" حيث يمكن رد معنى الإختلاف هنا إلى التنوع وليس الاختلاف.

يقول الله تعالى: "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"[3].

أما قول الباقلاني – رحمه الله - "إلى حد الآحاد" فهو يريد به أن يبين أن كل ارتباط بين أي مفردة قرآنية وبين موضعها المخصص لها في القرآن كله، إنما هو ارتباط يتحقق به التثبيت والتوحيد والتخصيص بمعنى أن تكون كل مفردة في كل موضع جديد، ذات هدف جديد، يقدم لنا وجوهًا من العلم، جديدة إذا نظرنا إليها بين مواضع القرآن كلها إجمالاً وتفصيلا.

وليس كذلك كلام البشر، ولا ينبغي له أن يكون كذلك.

ومع ذلك فقد أثار الباقلاني – رحمه الله – مشكلة "القدر المعجز" من القرآن فقال ما معناه[4]:

أولاً: "إن أبا الحسن الأشعري يقول في كتبه:

إن أقل ما يعجز الناس عنه، من القرآن، السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها"

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص62.

(2) – المصدر نفسه، ص62.

(3) – النساء: 82.

(4) – المصدر السابق، 261.

قال: فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت سورة الكوثر فذلك معجز.

قال: ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقلّ من ذلك"!!

ثانيا: إن المعتزلة يربطون الإعجاز بكل سورة بتمامها، فهم يقولون كما يروي الباقلاني عنهم إن كل سورة بتمامها فهي معجزة[1].

وينتهي كلام الباقلاني بما تضمنه من رأي أبي الحسن الأشعري، وكلام المعتزلة، ليبين رأيه هو إذ يقول: "لقد علمنا أن الله تحدى المعارضين بالسور كلها، ولم يخصّ، فَعُلِمَ أن جميع ذلك معجز".

ومن هذا الرأي الذي نتفق عليه جميعا، من كلام الباقلاني، نوجز القول في هذه النقط:

إن رأي أبي الحسن الأشعري عن السورة وعن الآية وربطه بالإعجاز بهما فيه شعور قوي بالإحكام والتفصيل. ولو ظهر الإحكام والتفصيل في هذا الكلام كل الظهور، لبيّن لنا في حسمٍ ووضوح، أن كل قول قرآني، ولو كان حرفا واحدًا في موضعه من القرآن فهو معجز لا يستطيع أن يأتي بمثله البشر !!

ذلك أن الحرف القرآني، إذا كان متعدد المواضع فله في كل موضع جديد هدف جديد، هو تجديد الارتباط بالقرآن كله من جهة، وربطنا بجديد قائم بذاته، من وجوه العلم من جهة أخرى ولا يستطيع البشر ذلك.

ولو عرف المعتزلة هذه الحقيقة، لما قالوا إن القرآن مخلوق، لعلمهم أن المادة الكونية بما فيها من أجسام الأحياء، خاضعة لظروف الفساد، إذا تحققت شروطه، بينما القرآن كلام ومعان وهذان لا يفسدان، وإنما يفسد كلام البشر بانعدام الارتباط فيه بين الإفراد والإجمال، من حيث المبنى، وانعدام الصدق من حيث المعنى.

والقرآن محكم مفصل كما علمنا. وهذا أعلى آفاق الإعجاز كما نرى بعد ذلك في كلام عبد الله دراز – رحمه الله – ومع ذلك فقول "الباقلاني هو خير ما قيل في ذلك، إذ قد أشار إلى أن القرآن معجز كله، فظهر في كلامه شعوره القوي، بإحكام القرآن، ولكنه لم يشر إلى تفصيله، مع إشارته إلى أحكامه، ولو فعل لخص مفردات القرآن جميعًا من حرف وكلمة وجملة بأن كلا منها معجز.

لو فعل الباقلاني ذلك لبين أن كل قول قرآني بموضعه ولو كان حرفا فهو معجز على وجه التخصيص، إذ الأصل في إعجاز القدر المعجز من القرآن أن كل قول قرآني، فهو معجز لاختصاصه في موضعه

---

[1] – إعجاز القرآن للباقلاني، ص261.

ببيان وجوه جديدة من العلم، لا يأتي بمثلها البشر، فهي جديدة أبدا مهما تتقدم العقول البشرية في اكتشاف حقائق الكون، وذكرها بكلامهم وإظهارها بمكتشفاتهم وصناعاتهم !

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معنى الارتباط عند عبد الله دراز:

معلوم أن النص القرآني نص متميز، ومتميز في استعمال اللغة، فهو نص خاضع لنظم خاص وأسلوب فريد من نوعه.

ولعل أخص خصائص النص القرآني أنه يتسم بالتماسك والتناسق وخدمة كل جزئية للإطار العام للسورة، فعمدة انسجام السورة يتجلى في الارتباط الوثيق بين قيمها المعنوية، وقيمها اللفظية -الشكلية - ومن ثم نطرح الأسئلة التالية:

فهل السورة القرآنية نص واحد رغم تعدد موضوعاتها؟ وهل هناك منطق ينتظم موضوعات السورة، وعلة خفية للنص تعطيه وحدة موضوعية؟ ما هو نسق الانتظام العام لمعاني السورة؟

قد تبدو لنا السورة القرآنية في جملتها مجموعة من الموضوعات المتفرقة التي قد لا يجمع بينها سوى قضايا الصناعة النحوية والصرفية والبلاغية، وهي الأصول التي ترتكز عليها بيد أن البحث وراء هذه العناصر الأساسية المبعثرة كفيل بإبراز بناء السورة العام الخاضعة في تركيب عناصرها المتكاملة إلى رؤية خاصة ونظم وأسلوب متميزين ومما لا ريب فيه أن انتظام العناصر المكونة للسورة القرآنية ضمن هيكل أو وحدة متكاملة سمة جوهرية في طبيعة النص القرآني. إذ تتألف اللغة القرآنية من هيكل أو تنظيم يتضمن بنى متراصة متكاملة تنظيما متناسقا.

ويرتكز البحث عن الوحدة والتناسق في السورة القرآنية على الوسيلة التي تمكن من إيجاد طبيعة النموذج الأسلوبي الجامع للعناصر المتفرقة للنص.

ويبين المسار العام للوحدات المشكلة للنص بأنه يخضع لنظام محكم وهو التداخل الأسلوبي بحيث يتجلى هذا التعانق أو التشابك الأسلوبي من خلال انسجام بعض الموضوعات وتناسقها وإئتلافها واختلاف بعض الموضوعات وتفاصلها وتمايزها، ومن ثم" فإن السورة القرآنية محكمة التأليف متجانسة المعاني وثيقة الصلات[1] تربط بين هذه الأغراض، بحيث تتظافر جميعها في الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها وهي:

---

[1] - ونذكر أن هذه المصطلحات - الصلات - والارتباط، واللحمات... إنما هي روافد متفرعة عن مصطلح يشملها جميعها وهو "المناسبة" الذي يعتبر هو الآخر أهم رافد يخدم بصفة مباشرة نظرية النظم القرآني التي هي المحور الذي تدور حوله سائر المصطلحات من فصاحة وبلاغة وبيان وبراعة.

غرس عقيدة التوحيد في نفس الإنسان، وانتزاع ما يخالف هذه العقيدة من الضمير ثم الدعوة إلى العمل الصالح...[1] ذلك هو منهج القرآن في انتقاله بين الأغراض المختلفة.

إذن كل سورة في القرآن الكريم لها حدود ورسوم وأهداف وأغراض تدور حولها، فتعرض لتحقيق ذلك إلى عدة معاني، وتأخذ من كل معنى ما يتناسب مع هدفها[2].

حيث اتجهت بعض الدراسات الحديثة في التفسير والبلاغة إلى دراسة سور القرآن الكريم بمنهج جديد قائم على تناول السورة القرآنية في إطارها العام، والنظر في موضوعها الرئيسي، وهدفها الأساسي وكيف تكاملت وتلاحمت فيها الأساليب المتنوعة كلها لتلتقي عند هدف واحد، وتعبر عن موضوع رئيسي في وحدة متكاملة متجانسة، وقد استخدم لهذا المنهج مصطلح "الوحدة الموضوعية" وهو مصطلح معروف في الدراسات النقدية والأدبية.

وغاية مثل هذه الدراسات بالدرجة الأولى هي الوصول إلى فهم صحيح وكامل لجوانب السورة جميعها، وإثبات أن السورة القرآنية - مهما كان حجمها - فهي تشكل وحدة متكاملة الأجزاء مترابطة الموضوعات، "وأن كل آية فيها مناسبة ومرتبطة تماما مع سابقتها ولاحقتها، حتى ترى السورة في سبيل تحقيق هدفها العام قد جمعت الآيات بحكمة كاجتماع الأعضاء المكونة لجسم الإنسان أو الحيوان بمنتهى الدقة والحكمة والربط"[3].

كذلك ترمي مثل هذه الدراسات إلى تقويم منهج أغلب الدارسين القدامى[4] الذي يعتمد في دراسته للنصوص القرآنية غالبا على تجزئة السورة، "وتتبع الآيات القرآنية آية بعد آية بحسب ورودها في السورة، وتتبع جمل كل آية، وكلمات كل آية، وأحيانا حروف كل آية ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو

---

[1] - وإذا أنعمنا النظر في الآيات وقفنا على الأمور التالية: قد تكون الآية الثانية، صفة لكلمة، أو توكيدا لفكرة، أو ردًا على ما في الآية، أو فكرة مضادة لفكرة سابقتها، أو تعليلا لحكم ورد في الآية، أو تحبيبا أو تبغيضا لفكرة وردت في الآية، أو دليلا على صحة ما ورد في الآية الأولى. ينظر التعبير الفني في القرآن - بكري شيخ أمين - ص210، 211.

[2] - الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص 40، ط دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1970م.

[3] - المرجع نفسه، ص112.

[4] - يستثنى من هذا الكتاب "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" للفيروز آبادى (817هـ) تحقيق محمد محمد علي النجار، ط المكتبة العلمية، بيروت و"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي (885هـ)، ط1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، مصر، 1972م.

الإجمال"[1] وهذا كله قد لا يعطي صورة كاملة للسورة القرآنية، ولا يظهر ترابط الأجزاء وتلاحمها حول موضوع السورة المعالج.

وتحاول هذه الدراسات أن تفند خطأ المستشرقين وبعض علماء المسلمين الذين ينظرون إلى السورة القرآنية مجزأة مفتتة، ولا يرون فيها إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة، والموضوعات المتعددة قد عولجت بطريقة غير منظمة، حتى انعدم التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تناولتها[2].

وقد ظهر بعد الدراسة والتأمل أن للسورة - أية سورة - في القرآن الكريم موضوعًا أساسيًا تعالجه وأغراضًا كبرى ترمي إليها، وأنها وحدة متصلة يصعب فصل بعضها عن بعض.

وهذا يقرر جانبا آخر من إعجاز هذا القرآن العظيم الذي نزل منجمًا في مدة ثلاث وعشرين سنة، وقد ارتبطت آياته بأسباب ومناسبات معروفة، وتشكلت سوره من هذه الآيات حتى كملت وفق هذا التنسيق الذي حتمته أمور توقيفية.

لقد تحقق ما كانت تهدف إليه هذه الدراسات، "واتضح أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا للسورة يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة... ولا جدال في أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق في أي كتاب في الأدب، أو في أي مجال آخر يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو، وإذا كانت السورة القرآنية من نتاج ظروف النزول، تكون وحدتها المنطقية والأدبية معجزة المعجزات"[3].

لقد أثبتت هذه الدراسات أن مثل هذه الطريقة في الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الجزئيات في السورة، ذلك أنها تبرز عظمة السورة، مجتمعة الملامح متلاحمة الأجزاء[4]، ومن هنا لا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء وجزء منه - وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة، فقديما قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها

---

[1] - المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني، ص6، مطبعة مخيمر، مصر.

[2] - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ص118.

[3] - المصدر نفسه، ص120، 121.

[4] - المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني، ص6، 7.

ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظـر في جميعـها، كمـا لا غنـى عـن ذلك في أجزاء القضية[1].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص158، 159.

نظام عقد المعاني بين موضوعات السورة القرآنية:

حريّ في هذا المقام الإشارة إلى أنه من الصعوبة بمكان الفصل بين خلايا النسيج القرآني أو تقسيم السورة القرآنية إلى وحدات فرعية أو مجموعات دلالية بحيث "إن بيان الصلة بين الآيات المكونة لأجزاء موضوع موحد، ومواضع هذه الآيات في هذه السورة أو تلك يمكن أن يعتبر جزءًا أساسيا هاما من التفسير الموضوعي... ولكن يمكن أن تكون السورة في حد ذاتها إطارًا عامًا، ولكن بيان وحدة الإطار في السورة أشق لأن السورة ليست مبنية على موضوع واحد، وإنما تتوزع عادة بين طائفة غير قليلة من الموضوعات، ولذلك كانت الوحدة الخاصة بالسورة ليست وحدة موضوع"[1].

إن المنحى المعتمد في إيجاد إطار السورة القرآنية. واستجلاء طبيعة الوحدة الممكنة التي تجمع شمل الآيات المتفرقة الموضوع يستند أساسًا إلى الذوق والإحساس الحدسي ومن ثم فإن محاولة تحديد وحدة السورة القرآنية تبقى نسبية إذ الأدوات المنهجية تكشف نسق انتظام الوحدة الموضوعية للنص حبيسة العامل الذوقي والربط الشعوري بين القارئ والنص إذ "المناسبة بين الآيات والسور تقوم على أساس أن النص وحدة بنائية مترابطة الأجزاء ومهمة المفسر محاولة اكتشاف هذه العلاقات أو المناسبات الرابطة بين الآية من جهة وبين السورة والسورة من جهة أخرى، وبديهي أن اكتشاف هذه العلاقات يعتمد على قدرة المفسر وعلى نفاذ بصيرته في اقتحام آفاق النص"[2].

وهذا القلق المشروع الذي نجده عند المحدثين في مسألة تحديد موضوعات السورة نجد له سندا عند القدماء وهم أهل هذا العلم وفرسانه إذ يقول أبو بكر بن العربي: "وتحديد الآية من معضلات القرآن، فمن آياته طويل وقصير، ومنه ما ينقطع ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام"[3].

ومهما يكن من أمر فإن القدماء وضعوا مقياسا علميا يمكن أن يتخذ أداة منهجية في استخلاص المناسبة أو نظام عقد المعاني بين الآيات قال بعض المتأخرين: "الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في

---

(1) – نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، ص164، دار الأندلس، بيروت، لبنان.

(2) – مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص181.

(3) – تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الجزء الأول، المقدمة الثامنة، ص75، حول مفهوم علم المناسبة عند القدماء والمحدثين، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، الجزء الثاني، ص108، 109، 110، وبالهامش إعجاز القرآن للباقلاني، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1973م. ومفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، ص182، 197، الهيئة العلمية للكتاب، القاهرة، 1990م.

جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف إلى نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة"[1].

ويمكننا تبيان نظام عقد المعاني لسورة قرآنية من خلال التداخل الأسلوبي بين المقدمة وموضوعاتها ويتجلى ذلك من خلال المناسبة بين الانتقال من المقدمة إلى عناصرها الدلالية بحيث تتميز السورة بارتكازها في عرض موضوعاتها على وضع مقدمة أو مقصد تنتقل من خلاله من موضوع إلى آخر، وقد أحسن التعبير القرآني الذي جمع بين الغرض الديني والفني في اختيار المقدمة ببراعة فائقة.

والسورة القرآنية في تركيبتها الجوهرية تتألف من هيكل ويعني ذلك مطلع، جسم وخاتمة ويبقى هذا التقسيم الذي استخلصناه نسبيا إذ "قد يعتمد مفسر عل بعض معطيات النص ليكشف من خلالها علاقات خاصة بينما يعتمد مفسر آخر على معطيات أخرى فيكشف عن نمط آخر من العلاقات"[2].

---

[1] – الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، الجزء الثاني، ص110.

[2] – مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر أبو حامد، ص181.

الفصل الأول

نظام عقد المعاني عند الباقلاني

- مدخل.
- نظرية نظام عقد المعاني في سورة النمل.
- ترابط الآيات في كل قسم بما يليه.
- ترابط المقدمة بالخاتمة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل:

يبدأ الباقلاني حديثه قبل الشروع في تحليل سورة بتمامها: على أن نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه.

ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض، وتستولي به على الأمد، وتصل به إلى المقصد وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس، وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر، وأقرب عليك الغامض، وأسهل لك العسير. فهو يقوم بدور الوسيط بين النص وقارئه.

كما ينوه بشرف محل هذا العلم الذي يراه قليل العناية في زمانه فيقول: واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر.

ويضع قاعدة علمية منطقية يستدل بها على صحة ما يدعيه من أن إعجاز القرآن له طريقه وسبيله نحو تحقيق أهدافه وغاياته فيقول: فإن لكل شيء سبب ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه ولا بلوغ غايته من غير سبيله.

ويدعو القارئ إلى إعمال الفكر والنظر في هذا النظم العجيب فيقول: خذ الآن هداك الله في تفريغ الفكر، وتخليه البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك، متوكلاً على الله ومعتصمًا به ومستعيذًا به من الشيطان الرجيم حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم[1].

فقد أفاض في الحديث عن بدائع القرآن وساق الأمثلة من آياته وعنى بمعالجة فكرة النظم في كثير من الآيات بل طبقها على سورتين كاملتين هما سورتا النمل وغافر.

ومن الملاحظ في دراسات السابقين قبل عصر الباقلاني أنه لم يفصل - أحد من هؤلاء الأعلام المتقدمين - القول بالإعجاز بالنظم في سورة بعينها فشواهدهم في التطبيق والتحليل تأتي عرضا من بين نص السور والآيات إلا ما كان من الباقلاني - رحمه الله -[2].

يحلل سورة من القرآن كما حلل قصيدتي امرئ القيس والبحتري بتماميهما، باعتبار السورة وحدة فنية موضوعية - أهم ما يسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسة إعجاز القرآن - فيتناولها تناولا طريفًا لعله

---

[1] - إعجاز القرآن للباقلاني، ص197 وما بعدها، بتصرف.

[2] - النظم القرآني في سورة الرعد، تأليف محمد بن سعد الدبل، ص87، عالم الكتب.

لم يسبق إليه - ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم فيحللها من ناحية النظم، متعرضا لألفاظها، ومعانيها، وتآلف الألفاظ والمعاني في نظم رائع وصلة الفاصلة بالنظم. باعتبارها جزءا أصيلا من الآية غير منفصل عنها ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد؛ شحنة من الواقع الموسيقي وشحنة من المعنى المتمم للآية لأنه كان يدرك أن موقع الفاصلة في الآية يشبه موقع القافية في البيت الشعري، وكما أن القافية في البيت عنصر متميز فإن الفاصلة كذلك في الآية عنصر متميز[1] ويقوم بتقريب معاني السورة، وشرح مواطن الجمال فيها ويكشف عما قد يخفى على القارئ العادي؛ وبذلك يقوم بدور الوسيط وقارئه متمشيا مع السورة من مطلعها متقلبا مع معانيها دائرا بين فنون التعبير فيها ثم يأبى أن يصدر أحكامًا، أو أن يلقي بمقاييس جافة وهياكل لا حياة فيها ولا رواء ويتمشى مع منهجه السليم إلى روح النقد[2].

---

[1] - التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص203.

[2] - أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص291، وما بعدها - بتصرف -.

نظرية نظام عقد المعاني في سورة النمل:

يتناول السورة جملة - وقد اعتاد غيره الوقوف عند الآيات المفردة، يفسر غريبها، ويبين ما فيها من جمال اللفظ والمعنى في حدود البديع، والبلاغة، ويرسم المنهج قبل بدء رحلته[1] فيقول: "ثم اقصد إلى سورة تامة فتصرف في معرفة قصصها، وراع ما فيها من براهينها وقصصها. تأمل السورة التي يذكر فيها النمل، وانظر في كل كلمة كلمة وفصل فصل".

ويأخذ في تحليل السورة من أولها فيقول "بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده إلى أن قال: "وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" ثم وصل بذلك قصة موسى - عليه السلام - وأنه رأى نارًا فقال لأهله: "إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ آوَ- اتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ" وقال في سورة طه في هذه القصة: "لَّعَلِّيَ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ آوَ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى" ثم قال: "فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأول وكيف اتصل بتلك المقدمة[2] وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية وما دل به عليها من قلب العصا حية، وجعلها دليلاً يدله عليه ومعجزة تهديه إليه. وانظر الكلمات المفردة القائمة بنفسها في الحسن وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء.

ثم انظر في آية آية، وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية، وفي الدلالة آية، فكيف إذا قارنتها أخواتها، وضامتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلاً ببديع التأليف، وبليغ التنزيل.

ويبين فضل نظم القرآن على الكلام العادي فيدعو واحدًا إلى التقليد فلا يصل إلى شيء ويقر بالعجز أمام لفظ القرآن ونظمه[3].

---

[1] - أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص292.

[2] - إعجاز القرآن للباقلاني، ص202.

[3] - المصدر نفسه، ص203.

ويستطرد في تحليل السورة فيقول: متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان - عليه السلام - بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية: "أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ" والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه من التدابير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة، والكلمات العجيبة البليغة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها: "يَاأَيُّهَا الْمَلأُ افْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ" وذكر قولهم: "قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ والامْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَامُرِينَ" لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به، وقوله: "والأمر إليك" تعلم براعته بنفسه، وعجيب معناه وموضع إتقانه في هذا الكلام، وتمكن الفاصلة، وملاءمته لما قبله، وذلك قوله: "فانظري ماذا تامرين" ثم إلى هذا الاختصار، وإلى البيان مع الإيجاز، فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه...[1].

ثم فكر بعد ذلك في آية آية، أو كلمة كلمة في قوله: "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ" هذه الكلمات الثلاث، كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره، وكالياقوت يتلألأ بين شذوره، ثم تأمل تمكن الفاصلة، وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها، وعجيب حكمتها، وبارع معناها... وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بينت بما فسرت، وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت والسمت الذي إليه دعوت[2].

ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز، في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة.

فأجل الرأي في سورة سورة، وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم، والفواتح، والبوادي، والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاض وإن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سور[3].

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص204.

(2) - المصدر نفسه، ص205.

(3) - المصدر نفسه، ص206.

وعلى هذا المثال يجري تحليله لسورة حم غافر[1]، ونحس فيه نفس البراعة والروعة في التناول والجدة في التحليل، ومحاولة إبراز المحاسن قبل الحكم، والتدرج من أغراضها، والتنقل من معنى إلى معنى ومن فصل إلى فصل، مع بيان دقة الربط بين المعاني والألفاظ... ثم نراه يجهد نفسه لكشف ما يربط بين ما يبدو منفصلا في ظاهره من الآيات عن سمت السورة، ولا يزال يكشف عن أسرار نظم القرآن حتى تحس وكأنك أشربت السورة ومحاسنها في قلبك...

ونخرج من تحليل السورة بنتيجتين :

أولاهما: أنه لا يصح الاعتماد على مجرد النظرة الفردية، في آية آية أو كلمة كلمة دون الموقع لتلك الآيات والكلمات في السورة وفي المعنى العام الذي يسلكها.

وثانيها: رسم منهج في النقد البلاغي يعتمد على التحليل الفني والفهم للنص، مع تطبيق ما سبق أن ساقه الباقلاني من آراء في نقد البيان[2].

ويعتمد ذلك المنهج على ضوء ما رأيناه في تحليل السورتين على:

1 – تماسك السورة في المعنى والموضوع، وفي اللفظ، والنظم.

2 – سهولة الانتقال من معنى إلى معنى، ومن قصة إلى قصة أخرى، وروعة الخروج مع دقة الفصل والوصل.

3 – تساوي السور على اختلاف موضوعاتها في النظم والروعة الفنية ولكنه مع ذلك يعترف بتفاوت بعضها عن بعض في ظهور الإعجاز ووضوحه يقول: "وإن كنا نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعض أدق"[3].

4 – الدقة في التعبير عن المعاني والملاءمة بينها وبين فنون القول أو فنون التعبير الأخرى كالإستعارة والتشبيه والإيجاز... وغيرها.

5 – التآلف بين الألفاظ، وانسجامها بحيث لا تحس نشوزًا ولا إخلالا وأنه إذا تغير وضع لفظ منها بالتقديم أو التأخير، أو بتغييره بآخر، لم يتم التوافق وظهر النقص والتغيير واضحين – وهذا راجع كله إلى النظم.

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص210.

(2) – أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ص294، 296.

(3) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص218.

6 – دقة الاختيار للألفاظ المعبرة في مواضعها بحيث تحمل (شحنة) كاملة من المعاني تنطلق بمجرد نطقها وتكون هذه الخاصية أوفى بالغرض دون غيرها من الألفاظ ومثال ذلك كلمة(ليأخذوه) في قوله تعالى: "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ"[1].

7 – جلال الربوبية وتجليها في بيان القرآن في لفظ رائع، وعبارات رصينة، تحس إزاءها بالهيبة مثل ما في قوله تعالى: "فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"[2].

يقول الباقلاني: قف على هذه الدلالة وفكر فيها وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية والكلمات السامية والحكم البالغة، والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الإلهية ودلالتها على الربوبية[3].

8 – التصرف في القول في المناسبة الواحدة مع التساوي في الروعة في التعبير في كل، كما جاء بقصة موسى بألفاظ متغيرة ومتساوية في سور كثيرة.

9 – التصرف في الموضوعات العقلية كالتشريع والأحكام والحجاج وأصول العقيدة بأسلوب سهل ونظم بديع، مع اختراع بعض الألفاظ وورودها لأول مرة فيه.

10 – وقوع الفاصلة دائمًا في موقعها المناسب، وتمكنها منه فتتم المعنى وتكسبه روعة[4].

هذه الأصول العشرة تؤكد لنا أن الباقلاني يسلك في إثبات إعجاز القرآن أحد طريقين:

أ – أن يختار من الآيات المتفرقة شواهده على القضية

وهذه الطريقة تعتبر صورة من صور الإعجاز عند الباقلاني وهي أن يعاد عرض الموضوع الواحد مكرر بأساليب مختلفة في الطول والقصر والإجمال.. مع المحافظة على جوهره ولبه مع قوة الأسلوب وليس من الأمور

---

(1) – غافر: 4.

(2) – غافر: 13 – 15.

(3) – إعجاز القرآن، ص212.

(4) – المصدر نفسه، 206.

السهلة التي هي في متناول البشر وإنما لا يقدر عليها إلا صاحب القرآن المحكم سبحانه وتعالى ثم هم بعد هذا يعجزون عن الإتيان بمثله[1].

ب – أن يختار سورًا متكاملة

وهي أيضا من صور الإعجاز عند الباقلاني وهي أن السورة القرآنية معجزة في ترتيبها ونظمها كما هي معجزة في أسلوبها ولفظها فما من سورة أو آية بل ما من كلمة أو حرف؛ إلا وضع في موضعه اللائق به لحكمة يعلمها منزله سبحانه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص321، بتصرف.

ترابط الآيات في كل قسم بما يليه:

1 – مقصود السورة:

التنويه بشأن القرآن، وبيان ما فيه من الهداية والبشارة للمؤمنين، والترهيب للكافرين بذكر بعض قصص الأنبياء، والصالحين. ثم التنويه بشأنها وشأن أصحابها. والموازنة بين من ينزل مثلها، وبين آلهتهم في عجزها وضعفها.

2 – المقدمات الأساسية[1] التي يحتاجها مثل هذا الموضوع:

أ – التنويه بشأن القرآن (1 – 6).

ب – الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والصالحين (7 – 58).

جـ – التنويه بهذه القصص وأصحابها (59 –93).

3 – ذكر بعض اللوازم التي ينجر إليها الكلام عند ذكر تلك المقدمات:

وعند تطبيق ما سبق على السورة نجد أنها استوفت كل ما سبق؛ إذ القضايا التي عالجتها السورة هي:

– التنويه بشأن القرآن ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ فنوه بشأن القرآن وذكر أنه هدى وبشرى لمن يؤمن به ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويؤمن بالآخرة، وأنه زين للذين لا يؤمنون بالآخرة أعمالهم فضلوا عنه.

ثم ذكر أن لهم سوء العذاب، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

– الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والصالحين.

ثم قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ فذكر قصة موسى حين أعطاه آية عصاه يلقيها فتهتز كأنها جان (حية صغيرة) وآية يده يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، ثم أرسله بهما إلى فرعون وقومه لأنهم كانوا قوما فاسقين، فلما جاءهم

---

[1] – النظم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي، ص223، 226، مكتبة الآداب بالجماميزت (د.ت).

بآياته زعموا أنها سحر مبين "وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ".

ثم انتقل منها إلى قصة داود وسليمان، فذكر أنه آتاهما علما فعملا به وحمداه عليه، وأنه كان مما آتاه سليمان علم منطق الطير وتسخير كثير من الأشياء له، وأنه جمع جنوده من الجن والإنس والطير، فساروا حتى إذا أتوا على وادي النمل أمرت نمله جماعتها من النمل أن يدخلوا مساكنهم، لئلا يحطمهم سليمان بجنوده، ففهم سليمان أمرها وتبسم سرورًا من إدراكه له، وطلب من الله أن يعينه على شكره على تلك النعمة العظيمة ثم ذكر أنه تفقد الطير فلم ير الهدهد فسأل عنه، وكان قد طار إلى سبأ باليمن فلم يمكث إلا قليلا حتى رجع منها، وأخبره بأنه وجد امرأة تملكها، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فكتب له رسالة ليلقيها إليهم. "إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ" فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد، وفوضوا أمر ذلك إليها فذكرت لهم أن عاقبة الحرب إفساد الديار، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه، فلما جاءته الهدية لم يقبلها، وهددهم بأن يرسل إليهم جنودًا لا قبل لهم بها، فلم تجد الملكة مفرًا من أن تذعن له، وتسافر إلى مقر ملكه، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها، فأخبره عفريت من الجن بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه، وأخبره عالم من علماء قومه بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه، فشكر الله أن جعل في ملكه من يمكنه إحضار ذلك العرش في هذا الزمن، وقد أمرهم أن يغيروا شيئا من شكله ليعرضه عليها، وينظر أتعرف أنه عرشها أم لا تعرفه، ليختبر بذلك عقلها، فلما جاءت عُرض عليها وقيل لها: أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ؟ قَالَتْ: كَأَنَّهُ هُوَ، وذكرت أنها آمنت بالله وبقدرته من قبل هذه الآية، ثم ذكر أن سليمان أمرها أن تدخل الصرح، وكان قصرًا من زجاج تحته ماء فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، فأخبرها بأنه صرح ممرد من قوارير، فعجبت من ذلك وآمنت بقدرة الله الذي أعطاه هذا الملك "قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ثم انتقل منها إلى قصة صالح وقومه ثمود وقصة لوطٍ وقومه وهما هنا يخالفان ما سبق منهما في سياقهما وأسلوبهما، وفي ذكر بعض زيادات لم تسبق فيهما.

- التنويه بهذه القصص وأصحابها:

ثم قال تعالى: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ"

فأمره أن يحمد الله على ما تلاه عليه من هذه القصص، وأن يسلم على من اصطفاه من أصحابها، وأن يسأل أولئك الذين لا يؤمنون بتنزيلها: "آ الله الذي ينزلها خير أم آلهتهم التي لا تقدر على إنزال شيء منها ؟"

وقد ذكر موازنات أخرى بعد هذه الموازنة إلى أن أمرهم أمر تعجيز بأن يأتوا ببرهان على أنها آلهة إن كانوا صادقين في زعمهم. وذكر أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا هو، ومن عداه من آلهتهم وغيرهم لا يشعرون أيان يبعثون، مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة، ولكنهم شاكّون جاهلون، ثم ذكر من أسباب ذلك فيهم أن يستبعدون أن يبعثوا بعد أن يصيروا ترابًا، وأنهم قد وعدوا هذا هم وآباؤهم من قبلهم فلم يحصل شيء منه. وقد أجاب عن هذا بأن أمرهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كان عاقبة المجرمين في الدنيا، فلا بد أن يعاقبهم أيضا في الآخرة. ثم ذكر استعجالهم ذلك على سبيل الاستهزاء، وأجاب عنه بأنه سيحصل لهم قريبًا بعض منه في الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم، وأن رحمته هي التي اقتضت عدم تعجيله لهم ولكن أكثر الناس لا يشكرون ثم هددهم على ذلك بأنه يعلم ما يخفون وما يعلنون "وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ".

ثم عاد إلى التنويه بشأن تلك القصص فذكر أن القرآن يقص منها على بني إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه فيهديهم إلى ما غاب عنهم من الصواب فيها، ثم أمره أن يتوكل عليه ولا يلتفت إلى أعدائه لأنه على الحق المبين، وذكر أنه لا يمكنه أن يؤثر به فيهم لأنهم موتى لا يسمعون وعمّي لا يبصرون، وإنما يسمع من يؤمن بآياته فهم مسلمون، ثم ذكر ما يكون قبل يوم القيامة من خروج دابّة تخبر الناس بما كان من جحودهم بتلك الآيات فتؤمن بما لم يؤمنوا به وهي من العجماوات.

ثم ذكر أنهم يحشرون إلى ربهم فيوبخهم على تكذيبهم بآياته. وأنهم لا يجدون ما يعتذرون به فلا يمكنهم أن ينطقوا بعذر. وذكر لهم آية واحدة تقطع عذرهم. وهي ما يرونه من أنه جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا، وإنما آثر هذه الآية لأنهم يسكنون بالليل ويبعثون بالنهار كما يبعثون من الدنيا إلى الآخرة.

ثم ذكر ما يكون أيضا قبل يوم القيامة من النفخ في الصور، وأنه يفزع به من في السماوات ومن في الأرض فيأتون صاغرين إليه. وأنه يجازيهم على أعمالهم فيعطي على الحسنة خيرًا منها، ويعاقب على السيئة فيكب أصحابها في النار على وجوههم.

ثم ختم السورة بأمره أن يخبرهم بأنه إنما أمر أن يعبده وحده، وأن يتلو عليهم القرآن فمن اهتدى به فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فليقل له إنما أنا من المنذرين "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ".

ارتباط الخاتمة بالمقدمة.

بهذه الآيات الثلاث تختم سورة النمل، فيلتقي ختامها مع بدئها، حيث بدئت بعرض كتاب الله الكريم وما فيه من هدى وبشرى للمؤمنين، ومن خزي ووعيد للمشركين الضالين ثم عرضت السورة بعد هذا معارض للدعوة إلى الله على لسان هذا الطائر الضئيل الضعيف "الهدهد" ليرى في هذا العرض ما في الإنسان من سفاهة وحمق حين يضل طريقه إلى الله فيعبد الشمس والقمر ويأبى أن يعبد رب الشمس والقمر، ثم تختم السورة بهذا الموقف الذي ينهي به النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ما بينه وبين قومه، إنه قد دعاهم إلى الله، وبلغهم رسالة ربه، وأسمعهم آياته. فليس لهم بعد هذا على الله حجة وإنه - وهو رسول الله - مدعوٌ مثلهم إلى ما يدعوهم إليه من عبادة الله والولاء له، "فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ" لا سلطان لي على أحد، حتى أحمله به حملا على الإيمان بالله[1].

[1] - التفسير القرآني، عبد الكريم الخطيب، المجلد الخامس، الجزء 20، ص302، دار الفكر العربي (دت).

الفصل الثاني

نظام عقد المعاني عند عبد الله دراز

- مدخل.
- نظرية نظام عقد المعاني في سورة البقرة.
- ترابط الآيات في كل قسم بما يليه.
- ترابط المقدمة بالخاتمة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل:

ويرسم عبد الله دراز المنهج قبل بدء رحلته فيقول: ولو عمدت إلى سورة تتناول أكثر من معنى، وتنقلت بفكرك معها مرحلة مرحلة، ونظرت كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها لأخراها؟..

لن تجد في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به إن كانت السورة نزلت في نجم أو أكثر، تقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني والمباني جمعت وحشيت كيفما اتفق، فإذا هي لو تدبرت قد بنيت من مقاصد كلية على أسس وأصول، وكل أصل يتشعب إلى فصول، وكل فصل إلى فروع تقصر أو تطول، فالمعاني تنتسق وتلتحم في السورة كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، وتؤدي بمجموعها غرضًا واحدًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد[1].

ويستشهد - رحمه الله - على صحة نظريته هذه بسورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن، وأكثرها جمعًا للمعاني المختلفة وأكثرها نجومًا، وأبعدها في التنجيم تراخيا، فقد: حوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفًا وثمانين نجما، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا. ويبين أنها حوت تحويل القبلة، وصيام رمضان، وذكر أول قتال في الإسلام: وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة - ثم فيها الآية الخاتمة وهي نزلت في آخر السنة العاشرة - وفيها ما بين ذلك[2].

يذكر - رحمه الله - أن الأبحاث اللفظية والمعنوية ليست من همه في هذا المقام، وإنما قصده عرض السورة عرضا واحدًا يرسم به خط سيرها إلى غايتها، ويبرز نظام وحدتها في جملتها لترى كيف وقعت كل حلقة موقعها من السلسلة.

إن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، تقتضي بألا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه إلا بعد إحكام النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها، فهذا يعينه على السير في التفاصيل عن بينة، وهكذا كان الأئمة أبو بكر النيسابوري والبقاعي والفخر الرازي وغيرهم يفعلون[3].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص154 - 155.

(2) - المصدر نفسه، ص158.

(3) - المصدر نفسه، ص158 - 159، بتصرف.

يقول الإمام الشاطبي في الموافقات: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية[1].

ومن هنا كان خطأ الناظرين في مناسبة الآيات حين بحثو الصلة بين قضيتين أو قضايا متجاورة، غاضين أبصارهم عن الصلة التي تربط السورة بجملتها، وملاحظة أخرى أن الصلة بين الجزء والجزء لا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك، وقد يدفعهم هذا إلى التكلف والتعسف في الربط، وربما قالوا إن في الموضع اقتضابا، جريا على عادة العرب في كلامهم، وهذا تنزل بمستوى القرآن البلاغي[2].

والقرآن حين يجمع الأجناس المختلفة يجعل من اختلافها ائتلافا، وهذا هو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق، فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان الكثيرة أصعب مراسًا منه في أجزاء اللون الواحد.

وعلى هذه القاعدة ترى القرآن الكريم يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنضير أو التفريع، أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، دعامة لإقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجًا وما هو بخروج، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر، إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح فيه المتناكران[3].

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق. على أن روعة النظم القرآني كما علمت لا تقوم دائما على حسن التجاور بين الآحاد بل ربما تراه قد أتم طائفة من المعاني ثم عاد إلى طائفة أخرى تقابلها، فيكون حسن الموقع في التجاور بين الطائفتين موجبا لحسن المقابلة بين الأوائل من كل منهما، أو بين الأواخر كذلك، لا بين الأول من هذه والآخر من تلك.

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص159، نقلا بتصرف عن الموافقات للإمام الشاطبي جـ 3، ص412 – 415.

(2) – المصدر نفسه، ص160.

(3) – المصدر نفسه، ص161.

وملاك الأمر في ذلك أن تنظر إلى النظام المجموعي الذي وضعت عليه السورة كلها - كما وصيناك به من قبل - ونحن ذاكرون لك الآن نموذجًا منه لو وضعته نصب عينيك واحتذيته في سائر السور. لكان لك نعم الدليل في دراستك وبالله التوفيق[1].

إن استخراج تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومطلعها ومقاطعها أو قل المناسبات على حد تعبيره لبيان جهة الإعجاز في القرآن تتبع العقل -أي إحكام النظر كما علمنا - ومن هنا كانت عقلية الدكتور دراز عقلية فذة في ربط الآيات وإدخالها في النجوم تبعًا لما يسمى بتداعي المعاني، حتى يدخل فيها آيات يظن أنها استطرادية، أو انتقالية، والحقيقة أن السورة وحدة تامة لا يخرج منها جزء عن المقصود الرئيسي فيها - كما قرر هو من قبل، وكما قرر الأقدمون الأفاضل - وبتطبيق هذا المبدأ لا ترى آية في السورة تند عن موضوعها العام الذي تدور حوله السورة.

وهذا لا يقلل من أهمية الكتاب في الباب فالرجل عليه رحمة الله كان يتكلم بلسان الحال والمستقبل كاشفا القناع عن إعجاز القرآن بلغة العلم الحديث ثم هو في دراسة نسق القرآن - مناسباته - لا يقل عن ذلك. فتلك نظريته.

ومن هذا العرض ترى أنه جعل الصلات أو المناسبات أنواعًا ثلاثة:

- ربط بالنسبة للموضوع.
- ربط بالنسبة للابسات النجوم الزمانية أو المكانية.
- ربط اقتضاه حسن الأسلوب، الذي يؤاخي بين المتباعدات.

وهذا ظاهر من عرض الكتاب فيما سبق[2].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص162، وما بعدها.

[2] - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، محمد أحمد يوسف القاسم، ص212: 213، ط 1، سنة 1979م.

نظرية نظام عقد المعاني في سورة البقرة:

تحت هذا العنوان يتكلم المؤلف على سورة البقرة، وفق ما قرره من قبل في نهج دراسة النسق القرآني... وتستغرق السورة خمسين صفة تقريبًا[1].

يقول إن السورة على طولها تتألف من (مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة).

فالمقدمة: في التعريف بشأن القرآن، وأنه هدى لذي القلب السليم، ولا يعرض عنه إلا من لا قلب له، أو من في قلبه مرض.

والمقصد الأول: في دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام.

والمقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في هذا الدين.

والمقصد الثالث: في عرض شرائع الدين تفصيلا.

والمقصد الرابع: في ذكر النوازع الدينية التي تبعث على ملازمة تلك الشرائع وعدم مخالفتها.

والخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة، وما يرجى لهم في العاجل والآجل[2].

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص163 : 210.

(2) – المصدر نفسه، ص163، بتصرف.

ترابط الآيات في كل قسم بما يليه:

المقدمة:

وهي تبدأ من أول السورة إلى قوله تعالى: "يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". الآية (1 -20)

وبدئت السورة بثلاثة أحرف من شأنها أن توقظ الأسماع وتوجه القلوب لما بعدها وألحق بها التنويه بشأن الكتاب، وأنه حق لا يشوبه باطل، وأنه الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور. وهنا تتشوف النفس لمعرفة الأثر الذي يحدثه في الناس ومدى استجابتهم لدعوته، فانساق الحديث إلى الكلام على فئات ثلاث من الناس تبين موقفهم منه.

1 - فئة تؤمن به.

2 - وفئة كافرة.

3 - وفئة مترددة حائرة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وقد عمد القرآن إلى الطائفة الأولى، فجعل الكلام عنها من تمام الحديث عن القرآن، وكيف تكون الحقائق القرآنية، واضحة جلية ثم لا يهتدي بها كل من سمعها؟ فتأتي الآيات بأن ذلك لم يكن لقصور في القرآن، بل لموانع طبيعية ترجع إلى عدم قابليتهم له. وعطفت الثالثة على أختها لأنهم مشتركون في التجافي عن الهدى.

ولو تأملت في نظام الحديث عن الطوائف الثلاث، لرأيت أنها تقابلت في الاشتمال على وصف الحقيقة وبيان السبب ثم الإخبار عن نتيجتها المنتظرة.

ولا ريب أن وصف الطوائف راجع إلى الثناء على القرآن؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر لا يكون إلا حقا واضحًا لا ريب فيه.

فما هو ذلك الحق الذي ضربت له الأمثال؟ كان هذا تشويقا لسماع الحقائق التي يدعو إليها القرآن الناس؛ تلك الحقائق هي أن يعبدوا ربهم وحده ويؤمنوا بكتابه ونبيه - صلى الله عليه وسلم - إلخ...[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 164 : 173، بتصرف.

المقصد الأول:

ويتناول خمس آيات: من "يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ..." إلى "وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". الآية (21 - 25)

وهذه الآيات تتناول:

1 - نداء للعالم كله ألا يعبدوا إلا الله.

2 - وأن يؤمنوا بكتابه الذي نزله على عبده.

3 - وأن يتقوا عذابه ويطلبوا ثوابه.

وتلك هي مطالب العقيدة الإسلامية ذكرت مرتبة ترتيبا طبيعيا - وننظر فنرى أن ركن السمعيات هنا اعتمد على تحريك الوجدان بالتبشير والإنذار، وتفرع على ما تقرر في أمر النبوات وبضرب من التخلص في غاية الحسن "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُوا... فَاتَّقُواْ النَّارَ"[1].

عود على بدء

ويدرج المؤلف تحت هذا العنوان أربع عشرة آية من "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحِي..." إلى "أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". الآية (26 - 39)

بدأ الكلام في السورة بوصف الكتاب، ثم موقف الفرق الثلاثة منه، ثم بين أن الله وحده المثل الأعلى، ووضع الفيصل بين النبي والمتنبي بتلك المعجزة العالمية التي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، ثم ذكر الجنة والنار ومثلهما، وتناولت هذه الأمثال ضروبا من الحقائق علوية وسفلية مادية ومعنوية، حتى كانت نهاية الحديث عرض متع الجنة الشخصية والجنسية[2].

وتلك المعاني قد يستحي المرء من ذكرها وقد يظنها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي، ولكن الله لا يستحي أن يتنزل برحمته إلى مستوى عقول البشر.

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص174.

(2) - المصدر نفسه، ص175.

وهكذا انساق الحديث إلى استنباط القاعدة الكلية، ببيان أن هذه طريقة القرآن في هدايته، يضرب الأمثال ويبين الحقائق حلوها ومرها، لا يبالي أن يتناول ذلك جلائل الأمور أو محقراتها "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا"...

وعاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة: فهناك يأمر بعبادة الله وهنا ينهى عن الكفر بالله.

وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة وهنا مفصلة، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء وهنا عرضها بشيء من التفصيل هذا في الركن الأول[1].

أما في الثاني: فقد ذكر هناك نبوة النبي الخاتم - صلى الله عليه وسلم - وهنا نبوة الأول آدم عليه السلام، ليعلم أن أمر التشريع والنبوات قديم. وقد مهّد لهذا البيان بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة وما جرى في شأنها من حديث مع الملائكة، ثم جر الكلام إلى ذكر عداوة إبليس للإنسان وما انتهى إليه أمرهما من ابتلائهما وابتلاء ذريتهما بالتكاليف.

وأما في الركن الثالث: فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار، وهنا يكتفي بذكر اسمهما وتعيين أهلها، ووضع الأجزية مع التكاليف في سلك واحد، متخلصا من أحدهما إلى الآخر بتقرير أن الإتباع وعدمه هما مناط السعادة أو الشقاوة، ثم ختم الكلام هنا - كما ختمه في المقدمة - بشأن المخالفين تمهيدًا للانتقال إلى فريق آخر ودعوتهم للإسلام[2].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص176.

[2] - المصدر نفسه، ص177.

المقصد الثاني:

في ثلاث وعشرين ومائة آية من "يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي" ... إلى "خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ" الآية (40 - 162)

كان يسكن المدينة أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأشدهم جدلا في دينهم بما أوتوا من العلم قبلهم ومن هنا كانت عناية سورة البقرة بدعوتهم خاصة بعد الدعوة العامة، وقد نلون الحديث معهم بالبسط والاستمالة والتبسط والهجوم والدفاع، وفي كل ذلك تراه ينتقل من مرحلة إلى أخرى في دقة من التنظيم وجمال من التقسيم يملك القلب.

يبدأ الكلام بندائهم بأشرف أنسابهم مذكرا بسابق نعمه عليهم، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم مرغبا ومرهبا. ثم يأخذ في تفصيل الأغراض فيشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به. "وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ" ... إلى "وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ".

وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم، والمخالفة التي خوفهم منها "يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ..." الآيتين.

ثم قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

1 - ذكر سالفة اليهود منذ بعثة موسى عليه السلام.

2 - ذكر أحوال المعاصرين للبعثة المحمدية.

3 - ذكر أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.

4 - ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة[1].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص178.

1 - ذكر سالفة اليهود من "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّن- آلِ فِرْعَوْنَ"... إلى "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ..."الآية(49-74) استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات تفصل نعم الله على بني إسرائيل مرة بعد مرة، وهي النعم التاريخية السارية من الأصول إلى الفروع. وهي نعم جليلة سابقة للذنب ولاحقة، تحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره. وقبل أن ينتقل إلى ذكر مخالفتهم الموجبة للنكال. جعل برزخًا بين الحديثين مزج فيه ذكر بعض النعم وما قابلوها به، مع ذكر أنه متعهم متاعًا حسنا إذ ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم الطعام والشراب من غير كد، فاقترحوا بدله عيشة العناء والكدح فألزمهم الله ما التزموا وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وبذلك انجر الكلام إلى ذكر مخالفاتهم فذكرها وذكر عقوباتها، وأنهم باءوا بغضب من الله لأنهم كفروا بآياته وقتلوا النبيين إلا من استثنى. وأخذ يعدد بعض جرائمهم، إلى أن كانت الآية "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ..."

فكانت حلقة الاتصال بين القسمين الأول والثاني. فقد وصلت حاضرهم بماضيهم، فكلمة "مِّن بَعْدِ ذَلِكَ" حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته، وكأنها تضع عليه طابع الاستمرار وتركته يتخطى العصور في خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر، ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة بصيغة الجملة الإسمية "فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ" وكان انتهاؤه بوصف قلوبهم بأنها لا لين فيها، ويصرف الخطاب عنهم؛ لأن الاستمرار معهم ليس من الحكمة وينتقل إلى الحديث معنا في شأنهم[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص179 : 180، بتصرف.

2 – ذكر اليهود المعاصرين للبعثة من "أَ فَتَطْمَعُونَ"... إلى "الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" الآية(75 – 121).

يقص علينا في هذا القسم مساوئ أوصاف الحاضرين وأقوالهم وأفعالهم، ثم يأتي على مزاعمهم ويقضي عليها بالرد والتفنيد، وقسمهم إلى علماء يحرفون الكلم ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم، وإلى أميين أسارى الأماني وضحايا تضليل العلماء.

ثم بين منشأ اجترائهم على كل موبقة، وهو زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وقد أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يتدرج معهم في المجادلة، على درجات البحث المستقيم، فيطالبهم بالبرهان، ثم ينقضه بمخالفته للعدل الإلهي، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم بأنهم الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم، إلى أن بين أنهم حكموا أهوائهم في الشرائع فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا.

ثم أتبع ذلك بذكر هناتهم. فذكر منها خمسة عشر، تبدأ من تصامّهم عن سماع الحق بدعوى أن قلوبهم مقفلة، وتنتهي بتوقفهم في الإيمان حتى يكلمهم الله أو ينزل عليهم آية ملجئة، ثم ذكر هنة أخيرة وهي طمعهم في تحويل الرسول – صلى اله عليه وسلم – إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو في استتباعهم إلى هداه؟ وحسب أن الراسخين في العلم منهم يؤمنون به والكافرون هم الخاسرون[1].

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص180 : 183، بتصرف.

3 – ذكر القدامى المسلمين من لدن إبراهيم عليه السلام:

من الآية "يَا بَنِيَّ إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ"... إلى "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ" الآية (122 – 134).

وهنا نرى أن القرآن الكريم بعد أن بدأ بالنفوس يلويها عن الباطل أخذ يوجهها إلى طريق الهدى، فبعد التخليه تكون التحليه.

فبين في دعوة بني إسرائيل عوج الطريق الذي سلكوه، ووسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول، وكان من الحق أن يبدأ الدور الثاني ويبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه، وأنظر إلى حسن التقابل حيث قسم الدور الأول إلى ماضي اليهود وحاضرهم، وفي هذا القسم يتكلم على ماضي المسلمين وحاضرهم.

بل انظر إلى ما هو أتم مقابلة ومشاكلة حيث أجرى الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بني إسرائيل، والكلام في القسم الثاني على سنن التحدث عنهم كما جرى هنالك في القسمين سواء، وأكبر من ذلك أنك ترى الآيتين اللتين صدر بهما أول الحديث هناك قد صدر بهما الحديث هنا.

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح بأسلوب قصصي جذاب، يعرض فيه تاريخ إبراهيم عليه السلام وأولاده في العصور الذهبية، مكررا الكلمة التي اتفق عليها الجميع "الإسلام لله رب العالمين" وفي أثناء ذلك يحكي دعوات إبراهيم وإسماعيل وفيها أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولا من أنفسهم، ممهدًا بذلك للصلة التاريخية الوثيقة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين[1].

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص183 : 185، بتصرف.

4 - ذكر حاضر المسلمين وقت البعثة:

ويبدأ بالآية "وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا" إلى نهاية "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ" الآية(135 - 162)

وفيها يصل الخلف بالسلف ويخرج الكلام من التلويح إلى التصريح. فيقرر صلة المسلمين بتلك الأمة الصالحة في الأصول وأهم الفروع. وأن السفهاء من اليهود وغيرهم هم الذين يحاولون تضليل المسلمين، من دعوتهم إلى إتباع ملتهم تارة ومن الطعن في قبلتهم تارة أخرى. ويكر على هاتين المحاولتين بالهدم. ثم يبني ذكر ملة المسلمين على أساس مزج ملة إبراهيم بذكر قبلته.

ففي شأن الملة يقول: إن دعوكم أن تكونوا هودًا أو نصارى فقولوا بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا. ويذكر بعض تفاصيل الملة الحنيفية، ثم انتقل إلى إبطال محاولتهم الأخرى بعد أن بين أن الكعبة المعظمة لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مثابة ومصلى. ولكن هذا لم يكن كافيا لإسكات المجادلين فبسط الأمر في شأن التحويل، قائلا أن الجهات كلها سواء يوجهنا الله إليها وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم ويأخذ بأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - تارة والمؤمنين تارة والجميع تارة أخرى بالثبات على هذه القبلة حيثما كانوا.

ويثبت في ثنايا هذه الأوامر ما شاء من تشريعات جديدة وقديمة وأسرار تشريعها وذلك لحكمة هي تميز من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقيبيه ويخلص من هذه التشريعات إلى تأكيد أمر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله وأصلهما في تاريخ ملة إبراهيم ولكنهم يكتمون ما أنزل الله من البينات وهم يعلمون[1].

ويلاحظ في هذه المرحلة أن موقعها قد حقق غرضين رئيسين، فهي تناجي النبي والمؤمنين ولكنها من طرف آخر تثبت أقدام المؤمنين على حقائق الإسلام، بعد أن جلى الشبهة التي ألقى بها عدوهم لتضليلهم. وكانت هذه النهاية بداية لمقصد جديد يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام. فبعد أن فرغ من جهاد الأعداء أقبل على الأولياء بالتعليم والإرشاد من الأصول الجامعة إلى الفروع الكبرى[2].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 186 : 188، بتصرف.

(2) - المصدر نفسه، ص 188 : 189.

المدخل إلى المقصد الثالث:

في خمس عشرة آية من أول "وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ..." إلى آخر آية "لَيْسَ الْبِرَّ..." الآية (163 - 177).

وهي: 1 - تقرر وحدة الخالق المعبود.

2 - وتقرر وحدة الآمر المطاع.

3 - وتجمل الأوامر والطاعات المطلوبة.

وقد تكلمت الآيات السابقة في الكعبة وتعظيم أمرها والمقام والصفا والمروة، وكان هذا ربما يلقي في روع حديث العهد بالإسلام معنى الوثنية الأولى في تعظيم الأحجار والمواد، ومن هنا كان تقرير وحدة الخالق المعبود سبحانه "وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ..." وهذه الخطوة كانت تقدمه لابد منها قبل الشروع في تفصيل الأحكام العملية.

وجاءت الخطوة الثانية في تقرير وحدة الآمر المطاع، فلا حكم إلا له، بيده وحده الأمر والنهي وتحليل الحلال وتحريم الحرام، "يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ الشَّيْطَـٰنِ" فعرّف الناس نعمته الشاملة في سهولة الشريعة الملائمة للفطرة، ولم يحرم عليهم إلا أربعة أشياء كلها رجس وفي حال الاضطرار تنقلب إلى مباحات.

وفي نهاية هذه الخطوة يعرفهم مبلغ غضبه وعقابه ممن يكتم أمره ونهيه ويأخذ الرشا ويأكل السحت.

والناظر يرى أن أول باب فتح من باب التشريع هو بيان ما حرم وما أحل من المطاعم والمشارب وهو أول باب فتح في الجاهلية، فلا ريب أن كان أول باب سده القرآن بعد باب الشرك الأكبر.

والخطوة الثالثة كانت في الشرائع الدينية، وفيها نرى حسن التخلص بين المقصد السابق والحالي على وجه يصلهما لفظا وهما منفصلان حكمًا، فيقول إن تعيين الأماكن والجهات ليست هي المطلوب، وإنما المطلوب البر الجامع لخصال الخير كلها نظرية وعملية، وأخذ القرآن يتدرج إليها في رفق ولين وإجمال دون التفصيل، فهي بمثابة فهرس لشرائع الإسلام[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص189 : 193، بتصرف.

المقصد الثالث من السورة:

في ست ومائة آية. من "يَٰٓأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى..." إلى "وَإِن كُنتُم عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا..." الآية إلى آخرها. (178 – 283)

والآيات الآن في دور إقامة البناء بعد أن أرست السابقة الأساس، فقد تم إصلاح العقيدة، فلنأخذ في تفصيل الشريعة.

لقد انتظمت آية البر أصول الدعوة النظرية والعلمية، وأدناهما إلينا الجانب العملي، والآيات الآن في سبيلها لتفصيل هذا الجانب العملي، في شأن الفرد والأسرة والأمة، بيانا تارة وجوابا لسؤال تارة أخرى مع تناولها للأحكام في جملتها.

ختمت آية البر بالصبر في البأساء والضراء وحين البأس، والآن تأخذ الآيات بنشر هذه الخصال على عكس ترتيبها السابق.

فالصبر حين البأس في آيات القصاص والوصية (الآيات 178 : 179) - والصبر في الضراء هو الصبر على الظمأ والمخمصة في طاعة الله وينساق الحديث عن الصوم وعن بعض أحكامه (183 : 188) والصبر في البأساء هو الصبر على التضحية بالأموال وإنفاقها في سبيل الله - ومثاله في الآيات مزدوج وإن شئت قلت مثلث، فهو ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعًا، إذ فيه الجهاد بالمال وبالنفس، وتكلم في هذه الأثناء على الأهلة التي جعلها الله مواقيت للصوم والحج (189 : 202) وعلى الصبر في مجاهدة أعداء الله (190 : 195): وهذه الآيات الست كانت فاصلة بين أحكام الحج، ولا تضر نسق القرآن لأن سبب النزول يعرفنا شرف موقعها من السابق واللاحق، فإن أداء المناسك في عام الحديبية في السنة السادسة الهجرية كان عزما لم ينفذ، وهم المسلمون أن يبطشوا بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام، لولا نهى الله تعالى بألا يقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوهم فيه فرجعوا خاضعين لأمر الله، منتظرين تحقيق وعد الله، كذلك ينصرف القارئ أو المستمع وهو منتظر ومتعطش لإتمام الحديث عن الحج، فليعد إليه بعد هذا الفاصل، وكانت هذه الآيات درسًا في صبر المتعلم على أستاذه ثم تجئ أحكام الحج والعمرة على إثر ذلك بعد شوق (196 : 203) وبهذا تتم الحلقة الأولى من الأحكام وهي فريضة الصبر[1].

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص195 : 199.

استجمامة

وهي من الآية (204) "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ..." إلى الآية (214) "...أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ" لم تنتقل الآيات إلى الحلقة التالية قبل أن تعطينا درسًا في الموعظة، بها تثبت القلوب على ما مضى و توطئ السبيل الآني.

وإذا كانت الموعظة الخاصة التي ختم بها حديث الحج قد قسمت الناس إلى فريقين، فهنا في الموعظة العامة كذلك قسمت الناس إلى فئة تضحي في سبيل أهوائها بمصالح البلاد والعباد وفئة لا تضن بشيء في سبيل مرضاة الله (204 : 207) ثم تتوجه الآيات بالنصح للمسلمين، بأن يستسلموا لله وأوامره، محذرة من الزلل عنها، معزية عما يلحقهم من الأذى في سبيل إقامتها (208 : 214) ثم تنتقل الآيات إلى المرحلة التالية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي أجملتها آية البر تلك هي شؤون الأسرة. ويتلطف بنا القرآن في الوصول إلى البيان التربوي الحكيم، على نظام من الأسئلة والأجوبة، تتصل أوائلها بأحكام الإنفاق والجهاد (215 : 218) وأواخرها بأحكام مخالطة اليتامى وشرائط المصاهرة وموانع المباشرة (220 : 222) وهكذا نلتقي بالحلقة الثانية بلا اقتضاب: فنصل إلى دستور حكيم في تنظيم الحياة الزوجية شطره في معالجة شؤون الأسرة في حال اتصالها (222 : 232) والشطر الآخر في حال انحلالها (232 : 237).. قرر حق المخالطة الزوجية ونهى عن إدخال اليمين فيها، وبين حكم الحلف عن قربان الزوجة ووصل أحكام الطلاق وما يتبعه من حقوق وواجبات بالإيلاء يقول الله تعالى: "وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَالْمُطَلَّقَاتِ يَتَرَبَّصْنَ".

انظر كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء، يستشعر منه القارئ والسامع احتمال الفراق، فلما جاء الحديث عن الفراق لم يكن غريبًا فكان المكان مهيأ له من قبل.

وتمضي الآيات في الحديث عن آثار الطلاق وتوابعه من عدة ورجعة وخلع ورضاع واسترضاع وخطبة وصداق ومتعة...إلخ[1].

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص199 - 202.

آية "حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى..."

تلك هي النقلة الثالثة - وهي تبدأ من هذه الآية. وتنتهي بآية "الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً..."الآية.

وهي نقلة شبه خاطفة في الانتقال من المرحلة الثانية قد يحسبها الناظر اقتضابا وليست كذلك إلا في النظر السطحي أما من تابع معنا سير قافلة المعاني منذ بدايتها وقطع معنا ثلثي الطريق الذي رسمته آية البر: من الوفاء بالعهود والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبذل المال على حبه في سبيل الله.

وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة قد جاءت هنا في رتبتها وفي موضعها المقدر لها وفق ترتيبها في الآية الجامعة.

ويقول إن الانتقال إلى هذه الآية قد جاء بعد إعداد نفسي، فبعد أن طال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات الأسرية جيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة إلى سكون المسامحة والمكارمة فكانت معراجا وسطا صعد بنا إلى أفق أعلى تمهيد للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى... نعم لقد كفاكم هذا حديثا عن حقوق الزوج والولد، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن: حافظوا على الصلاة... أنفقوا في سبيل الله... جاهدوا في سبيل الله...

وإن الله الخبير بأحداث البيئة الحكيم بما يلقي من شرائع تنزع منها عاداتها الخبيثة، لا يزال يلقي على أهله أوامره وإرشاداته في مختلف الشؤون، كلما فرغ من إجاباتهم في عوارضهم الوقتية، رجع بالحديث إلى مهماتهم الرئيسية. إن الحديث يعود الآن إلى شأن الجهاد وإن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه، وأولها مشكلة الصلاة في الحرب وأنها لا تسقط بأي حال والجندي في الحرب تشغله مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من خطر الموت أو الهزيمة، ومخافة على أهله من الضياع والفاقة لو قتل، فبين الله أنه قد أوصى للزوجة إذا مات زوجها المحارب أن تتمتع حولا كاملا في بيته وكذا مطلقته يتقرر لها حق المتعة لا ينسى، وتلك الخصوصية فضلت بها زوجات المجاهدين على زوجات القاعدين[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص202 : 206، بتصرف.

وأما خوف الموت فإن الذي يطلبه توهب له الحياة "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ..." وأما خوف الهزيمة فإن النصر بيد الله "كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ..." وتلك سنة الله تعالى في المرسلين (246 : 253) والجهاد - كما سبق - بالمال والنفس - وأخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة في آية "وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" ثم في الآيات من "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَآئِيلَ"... إلى "وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ".

وأخذ المال حظه في آية "مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً..." فمن العدل أن يأخذ حظه في آيات مبسوطة.

وترى الآيات تحمل في طبائعها اللين تارة والشدة تارة أخرى. وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (254 : 274) ثم ينساق الحديث إلى رذيلة الجشع التي تستغل فيها حاجة الضعيف. وهي في الطرف المقابل لفضيلة الإيثار. ولذا كان الاقتران بينهما إبراز لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمير الحي. وبين هذين الطرفين المتباعدين يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط "لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ" ومع هذا يأمرنا بإنظار المعسر أو التنازل له عن الدّين وهذا أكرم وأفضل "وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ".

وتجئ آيتا الدّين والرهن تعلمان المؤمنين دستورا دقيقا في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل فمن لم يجد سبيلا إلى التوثق "فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ" فكان الختام بهذه القاعدة المثلى قاعدة الصدق والأمانة[1].

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص206 : 208.

المقصد الرابع من مقاصد السورة:

آية "لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". الآية (84 - 2)

انتهت مهمة الأحكام التفصيلية التي تناولتها السورة بالآية السابقة، وبها ختم الشطر العملي، بعد أن أرسى الشطر الاعتقادي في الآية "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" الآية 122 وما بعدها.

وقد تناول البيان حتى الآن:

1 - حقائق الإيمان.

2 - شرائع الإسلام.

ولم يبق بعد هذا إلا مقام الإحسان، والذي فسره الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمراقبة الله في كل الشؤون واستشعار مشاهدته في كل حال. وكانت هذه الآية الوحيدة التي توج بها هامة السورة في مقام الإحسان[1].

الخاتمة:

في آيتين "ـامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ـامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" الآية 285.

"لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" الآية 286.

وبعد أن تناولت السورة الإيمان والإسلام، والإحسان، لم يبق إلا طي الصحيفة وإعلان الخاتمة.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص209.

ترابط المقدمة بالخاتمة:

وهذا النوع من المناسبات تظهر فيه عقلية دراز، وقد أبدع فيه وأجاد فتراه عقب كل نجم يرجعه إلى أول السورة، حتى إذا ما أشرف على نهايتها عطفها على البدء فيظهر تماسك السورة أشد تماسك.

قال في ربط آية "ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ..." بأول السورة.

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة، وكيف أعلن ختامها؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التي افتتحت بها السورة لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة مع هذه الخاتمة، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ليلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة فإذا هي سورة حقا، أي بنية محبوكة مسورة.

وكان مطلع السورة وعدًا كريمًا لمن سيؤمن بها ويطيع أمرها بأنهم أهل الهدى والفلاح فما صدى هذا الوعد؟

وكان مقطع السورة:

1 - بلاغًا عن نجاح دعوتها "ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا".

2 - وفاءًا بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ".

3 - فتحًا لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين. فليبسطوا إذن أكفهم مبتهلين "رَبَّنَا... رَبَّنَا... رَبَّنَا... أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ".

تلك هي سورة البقرة، لو أنها رتبت بعد تمام نزولها لكان جمع شتاتها معجزة : فكيف وكل نجم كان يوضع في مكانه فور نزوله، ويحفظ لغيره مكانه انتظارًا لحلوله على مدى تسعة أعوام.!!![1].

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص210 : 211.

ربط المقدمة بالخاتمة: (سورة البقرة)

قال في ربط آية "ءَامَنَ الرَّسُولُ..." بأول السورة.

"وأما مناسبتها لأول السورة ردًا للمقطع على المطلع، فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم، ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها، على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي، والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصال.

وجعل رأسهم الرسول (ص)، تعظيمًا للمدح وترغيبًا في ذلك الوصف، فأخبر بإيمانهم بما أنزل إليه بخصوصه وبجميع الكتب والرسل، وبقولهم الدال على كمال الرغبة، وغاية الضراعة والخضوع. فقال استئنافا لجواب من كأنه قال: ما فعل من أنزلت عليه هذه الأوامر والنواهي وغيرها؟![1].. "ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ" الآية.

ثم يقول آخر الآية[2] "غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ".

فحصل من هذه السورة بأسرها بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذا وتركا، وبيان شرف من أخذ به وحال من تنكب عنه. وكأن العباد لما علموا "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" إلى آخر السورة، قيل لهم: عليكم بالكتاب إجابة لسؤالهم، ثم [3] بين لهم حال من سلك ما طلبوا. فكأن قد قيل لهم: أهل الصراط المستقيم وسالكوه هم الذين من شأنهم وأمرهم (أي الإيمان) والمغضوب عليهم من المتنكبين هم اليهود الذين أمرهم وشأنهم (أي المعاصي) والضالون هم النصارى الذين من أمرهم وشأنهم (أي أنهم ضلوا وأضلوا) فيجب على من رغب في سلوك الصراط المستقيم أن يحذر ما أصاب هؤلاء، بما نبه عليه، فإنه يؤاخذ نفسه بكذا وكذا (أي يطلب الغفران وعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان)، وأن ينسحب إيمانه على كل ذلك وأن يسلم الأمر لله الذي يطلب منه الهداية، ويتضرع إليه بألا يؤاخذه بما يثمره الخطأ والنسيان، وألا يحمله ما ليس في وسعه، وأن يعفو عنه إلى آخر السؤال".

---

[1] – الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، محمد أحمد يوسف القاسم، ص122.

[2] – المرجع نفسه ، ص122، وما بعدها.

[3] – في الأصل: ما بين لهم، المرجع نفسه.

والخلاصة التي يمكن أن نصل إليها هي أن "الكتاب بعد هذا العرض غني عن التعريف، وإن صاحبه - رحمه الله - قد أضفى عليه من روحه الصافية فخرج الكتاب صافيا سهل المأخذ واضح الحجة قد صهر القديم في قالب جديد، ينهل منه محبو القديم والحديث"[1].

ثم إنه في عرضه للمناسبات قد تكلم على مناسبة أجزاء الآية بعضها لبعض، ومناسبة الآية لأختها، ومناسبة النجم للنجم، ثم التحام السورة أي التحام وتماسكها أي تماسك حتى قال في النهاية. "لعمري لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبواءته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات. لعمري إنه في ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات"[2].

ولنقف معا أمام تقسيم الدكتور دراز - للسورة إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة - نعم هو أدخلها تحت وحدة متحدة، أو كما قال نظام الوحدة في السورة على كثرة أسباب اختلافها - ولكن تقسيم. هكذا كان في الإمكان أن يدخلها في مقصد واحد بين المقدمة والخاتمة، ثم إن هذا التقسيم جعله يخرج بعض الآيات عن الإدراج تحت الأقسام، وهو وإن لم يجعلها اقتضابا في الكلام لكنه جعلها استطرادا دعا إليها استشراف السامع أو القارئ فإن لم يكن بين المعنيين نسب، ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها[3].

رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر، إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح به المتناكران ومن هنا كان اضطراره إلى إخراج بعض الآيات عن القاعدة الكلية في المناسبات لتتمشى مع الرباط الذي التزمه وهو تداعي المعاني، وقد علمنا أن الربط - أعم وأكبر من كونه نفسيا فقط، فالسورة وحدة متماسكة، موضوعها واحد وإن اختلفت زمان نجومها وأسباب نزولها.

---

(1) - الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، محمد أحمد يوسف القاسم، ص230.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 211.

(3) - هي ما ذكره قبل من تنظير أو تفريع أو استشهاد أو استنباط...إلخ.

1 - انظر إلى قوله "عود على بدء" في رجوع الآيات من "إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحِي" إلى "وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" فهي لم تدخل تحت المقصد الأول ولا الثاني[1].

2 - وفي قوله "المدخل إلى المقصد الثالث" من آية "وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ" إلى آخر آية البر مع أنها تدخل في المقصد الأساسي، ويقول في هذا المدخل: إن القرآن لم يشأ أن يهجم على المقصود مكتفيا بهذا التمهيد، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد[2].

3 - وفي آيات الوصية يقول: وإن كان تداعي المعاني يسوقنا من الحديث عن القتلى إلى الحديث عمن هم بشرف ناسب تتميم الكلام ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برا بهم[3].

4 - وفي (استجمامة) يقول: شاءت حكمة الله ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية من فورنا هذا ولكن بعد استرواحة فيها شيء من الموعظة العامة يثبت بها القلوب على ما مضى ويوطئ لها السبيل إلى ما بقي، ويقصد الآيات من "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ" إلى "أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ"[4].

5 - وفي صلة "حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ" يقول إن الإعداد والتمهيد في ذيل الآية السابقة "وَأَنْ تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ": معبرة ذهبية وضعت في وقت الحاجة إليها بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية معبرة جيء بها لتنقلنا من الضوضاء والمحاسبة والمخاصمة إلى سكون المسامحة والمكارمة فكانت معراجا وسطا صعد بنا إلى أفق أعلى تمهيدا للعروج بنا فيما يلي إلى الأفق الأعلى[5].

وهكذا فالسورة كلها وحدة تدور حول مقصود واحد، وإن تعددت الموضوعات حسب نزول النجوم وحاجة المجتمع.

---

(1) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص175.

(2) المصدر نفسه، ص189.

(3) – المصدر نفسه، ص197.

(4) – المصدر نفسه، ص199.

(5) – المصدر نفسه، ص203.

حصرية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز

- ماهية النظم القرآني.
- مخالفته لأي صورة من صور النظم الحادث.
- وجوه إعجازه.
- خلاصة الموازنة بينهما منهجا وأسلوبا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز:

لقد عالج العلمان الباقلاني وعبد الله دراز النظم القرآني وأسلوبه من خلال الحديث عن ثلاثة أمور رئيسية[1] هي:

أ - ماهية النظم القرآني.

ب- مخالفته لأي صورة من صور النظم الحادث.

جـ- وجوه إعجازه.

أولا: ماهية النظم القرآني بين الباقلاني وعبد الله دراز:

إن من ينعم النظر في ماهية النظم عند العلمين الباقلاني وعبد الله دراز، يجد أن الباقلاني ذكر ماهية النظم وبحثه بحثا دقيقا يكاد يكون شاملا لأحواله. لأن من يلم بطبيعة الباقلاني يلتمس له العذر في كل هذا الاهتمام والحرص. فقد كانت فكرة النظم بالنسبة له ولمجتمعه وقتذاك بمثابة المخرج من المشكلات التي تتربص بأعز ما لديه في حياته من متعة أدبية وعقيدة دينية.

فقد جاء الباقلاني وموضوع الإعجاز في القرآن الكريم محل أخذ ورد كما أن مشكلة اللفظ والمعنى وبخاصة بعد الجاحظ تجد من المتطرفين من كل جانب التشجيع والاهتمام وكان وراء إثارة هذه المشكلات الملاحدة الحاقدون... وكان الباقلاني في قمة الإخلاص والوفاء لدينه وفنه فتربص بهؤلاء وهؤلاء كل طريق، وأوصد في وجوههم كل باب وبدد لهم كل أمل فكشف عن كل شبهة أثاروها، فتعرض أولا لماهية النظم فحاول جادا العمل على حلها.

فكان النظم هو الحل الأمثل عنده لأنه يجمع بين الآراء المختلفة والأطراف المتصارعة بين اللفظ والمعنى فالنظم يقوم على المعنى وتظهر مزيته في صورة الكلام وألفاظه.

بينما ذكره عبد الله دراز - الذي اقتفى أثر الباقلاني في ذلك - في نطاق واسع حيث بحثه بحثا دقيقا مدعمًا بالشواهد والأدلة المؤيدة لرأيه عندما كان يتحدث عن تحديد معنى القرآن وبيان مصدره، والفرق بينه وبين الأحاديث القدسية والنبوية... وإثبات أن النظم من عند الله تعالى بلفظه ومعناه، فكانت نظرته إلى ماهية النظم نظرة شاملة ولأنه مناط الإعجاز.

---

[1] - دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن، عبد العزيز أبو سريع ياسين، ص56، 62، ط 1، مطبعة السعادة، 1412 هـ، 1991م.

وسنكتفي ببيان ما اشتركا فيه في ماهية النظم حتى يتضح ما بينهما من فرق في تناول هذا الموضوع ولنبدأ بماهية النظم عند الباقلاني ثم عند عبد الله دراز موازنا بالباقلاني.

أ - ماهية النظم القرآني عند الباقلاني:

النظم القرآني قد عرفه الباقلاني من واقع دلالته على نفسه بما يفيد "أنه كلام الله المتلو المحفوظ في المصحف، الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وتلاه على من في عصره ثلاثا وعشرين سنة ونقل نقلا متواترا عنه - صلى الله عليه وسلم - حتى صار العلم به ضرورة"[1].

فهو بهذا التعريف يشارك الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية في إطلاق القرآن على الكلام اللفظي[2] لكن باعتبار خاص ذكره أثناء إجابته على أسئلة أحد محاوريه " فإن قيل: فهل تزعمون أنه معجز، لأنه حكاية لكلام القديم سبحانه أو لأنه عبارة عنه، أو لأنه قديم في نفسه؟

قيل: لسنا نقول بأن الحروف قديمة، فكيف يصح التركيب على الفاسد؟ ولا نقول أيضا إن وجه الإعجاز في نظم القرآن أنه حكاية عن الكلام القديم لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عز وجل معجزات في النظم والتأليف وقد بينا أن إعجازها في ذلك، وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومتفردها وقد ثبت خلاف ذلك"[3].

"إن قال قائل: بينو لنا ما الذي وقع التحدي إليه أهو الحروف المنظومة أو الكلام القائم بالذات أو غير ذلك؟

---

[1] - هذا وتأتي الضرورة - كما قال الباقلاني - من أنه - صلى الله عليه وسلم - لما جاء به مضادا لأديان أهل عصره كلهم، ومخالفا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر - وقف جميع أهل الخلاف على جملته ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفصيله وتظاهر بينهم حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرجال وتعلمه الكبير والصغير إذ كان عمدة دينهم والمفروض تلاوته في صلاتهم، والواجب استعماله في أحكامهم (إعجاز القرآن، ص39).

[2] - عنى الأصوليون والفقهاء بإطلاق القرآن على الكلام اللفظي لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام وهو لا يكون إلا بالألفاظ وعنى علماء العربية وشاركهم الباقلاني بأمر الإعجاز فلا جرم إن كانت وجهتهم الألفاظ.

[3] - إعجاز القرآن للباقلاني، ص72.

قيل الذي تحداهم به أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها، مطردة كاطرادها، ولم يتحداهم إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها، وهي حكاية لكلامه ودلالات عليه وأمارات له"[1].

هذا وقد فرق الباقلاني النظم القرآني - أو كلام الله اللفظي الذي هو حكاية لكلامه النفسي القديم القائم بذاته سبحانه على حد قوله - عن نظم الكتب الإلهية الأخرى بأنه نظم معجز[2] ومعنى إعجازه أن العباد لا يقدرون عليه.

أما هذه الكتب فإن نظمها ليس معجزا، وإن كان ما تتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزا[3] يدرك هذا الإعجاز ويعرفه - ضرورة - البليغ الذي قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة فيها[4].

ومن هنا ذكر الباقلاني أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عرف هذا الإعجاز وأدركه من أول لقاء التقى فيه بجبريل - عليه السلام - نازلا بهذا النظم الإلهي الكريم، كما عرف هذا الإعجاز وأدركه من كان في عصره - صلى الله عليه وسلم - من الفصحاء[5].

أما من حاد منهم عن معرفة إعجازه فقد ذكر الباقلاني أنهم هم الذين "اختلفت أحوالهم فكانوا بين جاهل وجاحد، وبين كافر نعمة وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات وحائد عن النظر في الدلالات، وناقص في باب البحث ومختل الآلة في وجه الفحص ومستهين بأمر الأديان وغاو و تحت حبالة الشيطان ومقذوف بخذلان الرحمان، وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة"[6].

على أن الباقلاني قد أجاب عن سؤال المعترضين عليه، بإثبات صفة الإعجاز لهذا النظم قائلين: لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة في وجه إعجازه فقال: قد يثبت الشيء دليلا وإن اختلفوا في وجه دلالة البرهان كما قد يختلفون في الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق[7].

---

(1) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص266.

(2) - المصدر نفسه، ص288.

(3) - المصدر نفسه، ص54.

(4) - المصدر نفسه، ص265.

(5) - المصدر نفسه، ص49

(6) - المصدر نفسه، ص303.

(7) - المصدر نفسه، ص294.

كما أن الاختلاف حول الإعجاز لا ينفيه عند الباقلاني كذلك فإن الاختلاف حول ما نزل أولا أو آخرا من هذا النظم لا ينفي الإعجاز، لأن هذا النظم آيات وسور مرتبة ترتيبا توقيفيا بإرشاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قبل وحي الله العلي الأعلى إليه.

وقد ذكر الباقلاني أن هذا النظم المعجز يحل من وجه - هو وجه الحكاية كما صرح - محل سماع الكلام من القديم سبحانه لأن موسى - عليه السلام - لما سمع كلامه علم أنه في الحقيقة كلامه[1].

ب - ماهية النظم القرآني عند عبد الله دراز موازنا بماهية النظم عند الباقلاني:

الباقلاني عد قضية ماهية النظم المحور الأساسي الذي تدور حوله قضية الإعجاز القرآني والذي تنسب إليه كل أبواب البلاغة فقد استطاع أن يبرهن على أن الذي بين دفتي المصحف هو النظم القرآني الذي اصطلح أهل السنة والبلاغة على تسميته "قرآنا"[2] وهم متفقون في ذلك على أنه المتحدى إليه هو المتلو المسطور في المصاحف وبنوا على دلالته ومعجزته نبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -

فالباقلاني يرى أن الإعجاز واقع في نظم الحروف، التي هي دلالات وعبارات عن كلام الله القديم وأن التحدي إنما بأن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها مطردة كاطرادها، ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له.

والباقلاني هنا واضح في أن المراد بالنظم عنده هو الطريقة الخاصة والتي يتميز القرآن الكريم بها عن سائر طرق الكلام المألوفة لدى العرب والتي اعتادوا عليها، والإعجاز عنده للألفاظ والنظام، والتأليف.

وأصبحت هذه القضية هي التي تحكم فكر الباقلاني، وقد بلغت من الترابط والشمول ما يجعلها تتسع لكل الألوان البلاغية وتتآخى جميعها حتى يصل الكلام عن طريقها إلى مرتبة الفصاحة بدليل استعماله كلمة براعة استعمالا يشمل البلاغة والفصاحة. وأن المقصود بها هو التفوق في كلتيهما وقد فسرها تفسيرًا أعم من ذلك حيث قال: "وأما البراعة ففيما يذكر أهل اللغة: الحذق بطريقة الكلام وتجويده وقد يوصف بذلك كل متقدم في قول أو صناعة"[3].

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص38.

[2] - وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ": أي قراءته. القيامة: 17 ، 18.

[3] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص171، بتصرف.

فالباقلاني سار على نهج السابقين فلم يفرق بين مدلولي الفصاحة والبلاغة، وكان يقرن بهما كلمتي البيان والبراعة، وأنها تؤدي معاني متحدة، فهي ألفاظ مترادفة. ولم يغفل فصاحة الكلمة حين يرد الإعجاز إلى النظم.

وعلى الرغم مما بذله في إبراز وتفسير وتوثيق نص القرآن - ماهية النظم - فإنه يعترف ضمنيا بأن العلماء سبقوه إلى التنويه بالنظم وعلو شأنه حين يقول: "وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى".

أما عبد الله دراز فقد كانت دراسته لماهية النظم القرآني أشمل وأدق وأوضح من دراسة الباقلاني - الذي يعود الفضل إليه في ذلك - وهذا راجع إلى الثقافة المعاصرة التي كان يتميز بها عبد الله دراز وتلبس الأفكار جدة وحداثة. وهي الفارق الوحيد الذي يمكن أن نذكره له إنصافا وتقديرا، وكانت أيضا من أهم الروافد التي أمدته أثناء بحث ماهية النظم لأنه استقى العلوم القرآنية والعربية من مصادرها الأولى التي كانت تهتم بالدرس القرآني اهتماما كبيرا منذ بدايات نزول القرآن الكريم.

فقد تناول ماهية النظم عند حديثه المفصل عن تحديد معنى القرآن وبيان مصدره ويفهم هذا من قوله: "ثم صار القرآن علما شخصيا[1] لذلك الكتاب الكريم. وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"[2].

روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن. كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

هذا بيان لوجه الصلة فيهما بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه. وهو مبني على ما اشتهر من استعمال القراءة في خصوص التلاوة. وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق واستعمال الكتابة في خصوص الرسم. وهو ضم بعضها إلى بعض في الخط.

ومما يؤكد اهتمامه البالغ بماهية النظم كاهتمامه بمدلولي كلمتي "كتب" و"قرأ" أنه يقول: "فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي" ك.ت.ب" و "ق.ر.أ" تدوران على معنى الجمع والضم مطلقا، ويلمح هذا الأصل الأول يكون كل واحد من اللقبين ملاحظا فيه وصف الجمع إما على معنى اسم

---

[1] - يطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع الكتاب، وعلى كل قطعة منه فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا)، الأعراف: 204.

[2] - الإسراء: 09.

الفاعل أو اسم المفعول. فيكون معناه "**الجامع**" أو "**المجموع**" وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور والآيات، أو أنه مجموع تلك السور والآيات من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب، أو من حيث هي نقوش مصفوفة في الصحف والألواح، أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة، بل يعني شيئا أدق من ذلك كله، وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق، وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام، فإذا قلت الكتاب أو القرآن، كنت كأنما قلت "**الكلام الجامع للعلوم**" أو "**العلوم المجموعة في كتاب**".

وهكذا وصفه الله تعالى إذ أخبر بأنه نزله "**تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**"[1] وكذلك وصفه النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال: "**فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم**..."[2].

هذا من حيث اللفظ أما من حيث المعنى فمعلوم أن القرآن كلام الله عز وجل المعجز. ومن هنا يتضح بما لا يدع مجالا للشك أنه يهتم بما اهتم به العلماء من تعريف القرآن بالأجناس والفصول كما تعرّف الحقائق الكلية. فيقول: "هل يمكن تحديد النظم القرآني تحديدًا منطقيًا؟ فإذا أردت تعريف النظم القرآني تعريفا تحديديا، فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير إليه مكتوبا في المصحف أو مقروءا باللسان فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين أو تقول: هو "**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**... إلى: **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**".

أما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية، فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الإسم، ولو توهما ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية، وبعض الأحاديث النبوية تشارك النظم القرآني في كونها وحيًا إلهيًا فربما ظن ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيضا، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع فقالوا:

القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - المتعبد بتلاوته.

"فالكلام" جنس شامل لكل كلام، وإضافته إلى "الله" تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة.

و"المنزل" مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلا، بل الذي أنزل منه قليل من كثير.

---

(1) - النحل: 89.

(2) - رواه الترمذي.

وتقيد المنزل بكونه "على محمد" لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة المنزلة على موسى والإنجيل المنزل على عيسى، والزبور المنزل على داود، والصحف المنزلة على إبراهيم - عليهم السلام - وقيد "بالمتعبد بتلاوته" - أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة - لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك، كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد.

وكالأحاديث وهي المسندة إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها[1].

أما الأحاديث النبوية فإنها بحسب ما حوته من المعاني تنقسم إلى قسمين "قسم توفيقي" استنبطه النبي بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون وهذا القسم ليس كلام الله قطعا و"قسم توقيفي" تلقى الرسول مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه. وهذا القسم وإن كان ما فيه من العلوم منسوبا إلى معلمه وملهمه سبحانه، لكنه - من حيث هو كلام - حري بأن ينسب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الكلام إنما ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول فالحديث النبوي إذا خارج بقسميه من القيد الأول - وهو كون الكلام كلام الله - في هذا التعريف. وكذلك الحديث القدسي إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط[2].

هذا ولقد احتشد الباقلاني وعبد الله دراز لإثبات أن الذي بين دفتي المصحف هو النظم القرآني الذي نزل به جبريل - عليه السلام - وقرأه - صلى الله عليه وسلم - على الناس ثلاثا وعشرين سنة وتم نقله عنه بالتواتر فذكرا أن الله عز وجل قد ضمن حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ووعده الحق.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، 14، 15.

[2] - المصدر نفسه، ص16.

خلاصة ماهية النظم القرآني بين الباقلاني وعبد الله دراز:

1 - الباقلاني له جهود ملحوظة في إبراز وتوثيق ماهية النظم، برغم اعترافه بسبق العلماء له في التنويه بالنظم وعلو شأنه.

بينما كان جهد عبد الله دراز في ماهية النظم واسعًا فقد جعل له مجالا تفصيليا في دراسته أكثر مما فعل الباقلاني فقد ذكره عند حديثه عن تحديد معنى القرآن وبيان مصدره، حيث قال: القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - المتعبد بتلاوته.

2 - إن الباقلاني وعبد الله دراز بهذا التعريف للنظم القرآني يشاركان الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية إطلاق القرآن على الكلام اللفظي، أما من حيث المعنى فهو كلام الله القديم.

3 - يرى الباقلاني أن الإعجاز واقع في نظم الحروف التي هي دلالات وعبارات عن كلام الله القديم وأن التحدي إنما كان بأن يأتوا بمثل الحروف التي هي تظم القرآن منظومة كنظمها متتابعة كتتابعها مطردة كاطرادها، ولم يتحداهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذي لا مثل له. ويفهم من هذا أن الباقلاني جعل النظم القرآني يفوق المستوى العالي من نظم البلغاء والأدباء والشعراء وأن القرآن الكريم معجز بنظمه وسمو بلاغته وهذا ما ذهب إليه عبد الله دراز في دراسته للنظم القرآني.

4 - اتفقا في أن نظم القرآن الكريم يختلف عن نظم الكتب السماوية الأخرى بأنه نظم معجز.

5 - اتفقا في أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عرف هذا الإعجاز وأدركه من أول لقاء التقى فيه بجبريل - عليه السلام - نازلا بهذا النظم الإلهي. كما عرف هذا الإعجاز أيضا وأدركه من كان في عصره - صلى الله عليه وسلم - من الفصحاء...

6 - اتفقا في أن أحوال من حاد منهم عن معرفة إعجازه، فهم كانوا بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمة وحاسد.

7 - اتفقا في أن الاختلاف حول ما نزل أولاً وآخرًا من هذا النظم لا ينفي الإعجاز لأن هذا النظم آيات وسورًا مرتبة ترتيبا توقيفيا بإرشاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قبل وحي الله تعالى الأعلى إليه.

8 - اتفقا في أن هذا النظم المعجز يحل محل سماع الكلام من القديم سبحانه، كما سمع موسى ذلك منه، فعلم أنه في الحقيقة كلامه.

ثانيا: مخالفة النظم القرآني لأي صورة من صور النظم الحادث بين الباقلاني وعبد الله دراز:

النظم القرآني وإعجازه من القضايا الهامة التي شغلت العلمين: الباقلاني وعبد الله دراز كما شغلت الكثير من العلماء وكانت سببا في الاهتمام بكثير من القضايا البلاغية ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة الفصحاء يقول الله تعالى "قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ"[1].

ومن هنا يأتي التساؤل: إذا كان القرآن عربيا جاريا على نمط أساليب العرب، فلماذا - إذن - جاء نظمه مخالفا لأي صورة من صور النظم الحادث؟

وللإجابة على هذا التساؤل نعقد هذه الموازنة البسيطة بين الباقلاني وعبد الله دراز:

يرى الباقلاني "أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد"[2].

ولعل المقصود من هذا التعريف هو إبراز مخالفة النظم القرآني لأي صورة من صور النظم الحادث حيث اقتضى منه هذا الحديث تحديد صور النظم الحادث ثم بيان وجه المخالفة بين النظم القرآني، وهذه الصور.

وقد تحدث الباقلاني عن صور النظم الحادث في اتجاهين:

- اتجاه اعتمد فيه على الاستقراء، والتتبع والاجتهاد الشخصي، وذلك هو اتجاه تحديد صور نظم الكلام العربي الذي اختاره ليكون النظم المثالي الفصيح للغات البشر حيث قارن في الحديث عن هذا الأمر اللغة العربية بغيرها من اللغات فأثبت: "أنها اللغة التي تتأتى فيها الفصاحة حتى تنتهي إلى حد الإعجاز مستأنسًا بأنه لا يجد في القدر الذي يعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف في الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة. كما أن الشعر لا يتأتى في تلك الأمثلة على ما اتفق في العربية وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى في العربية. وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي يتبين فيها الفصاحة. على ما يتأتى

---

[1] - الزمر: 28.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص59.

في العربية"[1] وفق ذلك كله استشهد بالقرآن الكريم حيث رفعه الله عز وجل عن أن يجعله أعجميا فقال عز من قائل "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"[2].

- واتجاه اعتمد فيه على القياس والتنظير، وذلك هو اتجاه بيان صور نظم الجن والملائكة ونلاحظ أنه ركز حديثه في هذا الاتجاه على نظم الأمة الأولى (الجن) بينما سكت عن نظم الأمة الثانية (الملائكة) وإن كان قد ضرب عليهما بنتيجة واحدة هي دنو درجتهما وقصورهما عن اللحاق بصور النظم البشري المستعمل لدى فصحاء العرب.

ونذكر نص حديثه القياسي عن نظم أمة الجن الذي انتهى فيه إلى النتيجة التي قلناها: "إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن، وما يروون لهم من الشعر ويحكون عنهم من الكلام. وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم والقدر الذي نقلوه قد تأملناه فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس ولعله يقصر عنها"[3].

والواقع أن الباقلاني في حديثه عن نظم أمة الجن والملائكة لم يثبت بالدليل الملموس الذي لا يقبل الشك وجود نظم لكلا هاتين الأمتين، وما هو موجود في القرآن الكريم إنما هو حكاية من الله عز وجل لمنطق هاتين الأمتين. ثم إن من حقنا أن نسأله لماذا لم يتحدث عن منطق الطير والحيوانات والحشرات وغيرها اعتمادا على القرآن الكريم كما فعل هنا مع أن في القرآن الكريم حكايات عن كلام النمل، وكلام الهدهد...؟

لقد رأى القاضي عبد الجبار. وهو محق في ذلك - أنه لا دعي لإثارة هذه المسألة أصلا لأن فصاحة القرآن وإعجازه تتوقف على خرق العادات المعروفة، أما العادات غير المعروفة أو التي لا يمكن التحقق منها فهي غير معتبرة في الإعجاز، يقول القاضي عبد الجبار - مجادلا- في الحديث عن نظم أمة الجن "إن قال: قائل: أفليس النبي - صلى الله عليه وسلم - قد تحدى الجن كما تحدى الإنس؟ فيجب أن لا نعلم كون القرآن معجزا إلا بعد أن نعلم تعذر المعارضة على الجن؟ قيل له: قد بينا أنا نعتبر في كون القرآن ناقضا للعادات، العادة المعروفة دون مالا نعرفه من العادات، فإذا لم يكن لنا في العقل طريق إلى معرفة الجن أصلا لأنهم لا يشاهدون ولا تعرف أحوالهم بغير المشاهدة، فيجب أن لا تعتبر أحوالهم وعاداتهم لأن اعتبار العادة

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني،ص54، 55، بتصرف.

[2] - الشعراء: 195.

[3] - المصدر السابق، ص63.

فرع على معرفة أهل العادات، فإذا صح ذلك وعلمنا أنه لا معتبر بذلك فقد كفانا في معرفة كون القرآن معجزا بخروجه عن عادة من تعرف عادته"[1].

ويقول عن نظم الملائكة: "ويبطل بهذه الطريقة قول من قال: إنما يصح كون القرآن معجزا إذا ثبت أن الملائكة عجزت عن المعارضة، وتعذر ذلك عليها، لأنا قد بينا: أن عادتهم غير معتبرة فتعذرها أو تمكنهم منها لا يختلف في أنه لا يقدح في حال القرآن"[2].

هذا عن بيان صور النظم الحادث، أما عن مخالفة النظم القرآني لصور هذا النظم فقد سلك الباقلاني في هذا السبيل مسالك شتى منها:

الكلام الخبري الابتدائي: مثل قوله عن أجناس النظم البشر المستعمل لدى العرب "إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر، ولا السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفى... فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب"[3].

إن الباقلاني يريد أن ينأى بالنظم القرآني عن أي مماثلة للنظم البشري المستعمل الذي يبلغ درجة كبيرة من الترقي في الفصاحة:

ومنها الكلام الجدلي: مثل قوله في حصر أجناس النظم البشري المستعمل لدى العرب "فإن قال قائل القرآن مختلط من أول أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم، ورسائلهم، وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى ولكنه أبدع فيه ضربا من الإبداع، لبراعته وفصاحته، قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر، وكلام مقفى غير موزون ونظم موزون ليس بمقفى كالخطب والسجع، ونظم مقفى موزون له رويّ.

ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس فتناوله أقرب وسلوكه لا يتعذر ومنه ما هو أصعب تناولا، كالموزون عند بعضهم، والشعر عند الآخرين.

وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين: "إما بتعمل أو بتكلف وتعلم وتصنع أو باتفاق من الطبع وقذف من النفس على اللسان للحاجة إليه.

---

[1] – المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار، الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن، ص297، تحقيق أمين الخولي.

[2] – المصدر نفسه، ص298.

[3] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص75.

ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم. يتعرض على ألسنتهم، وتجيش به خواطرهم، ولا ينصرف عند الكل. مع شدة الدواعي إليه ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه، فالمهلة لهم فسيحة، والأمد واسع"[1].

ومنها الكلام البرهاني المقارن: الذي يثبت فيه سمو درجة النظم القرآني وارتفاعه عن أن يلحق به نظم آخر، وذلك هو حديث التفوق البلاغي المعجز[2].

بينما كان رأي عبد الله دراز في مخالفة النظم القرآني لصور النظم الحادث مؤكدًا الصواب فيما ذهب إليه الباقلاني. فقد اعتمد في شرحه هذه القضية على الاستقراء والتشبع والاجتهاد الشخصي ونؤكد هذا بصريح قوله: "لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن وما أدراك ما عصر نزول القرآن هو أزكى عصور البيان، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها حتى أدركت هذه اللغة أشدّها؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟... وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة..."[3].

ويقول أيضا: "أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفرادا وتركيبا فذلك في جملته حق لا ريب فيه وبذلك كان أدخل في الإعجاز وأوضح في قطع الأعذار "**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**"[4].

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة، ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك، ويثلج صدرك ويملك قلبك، وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك، وتغثي منه نفسك، وينفر منه طبعك"[5].

---

(1) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص88 وما بعدها.

(2) – دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن، عبد العزيز أبو سريع ياسين، ص63، 65.

(3) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص83، 84.

(4) – فصلت: 44.

(5) – المصدر السابق، ص90.

"وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله، تتولد صورة خاصة مثلها في هذه المركبات المعنوية مثل "المزاج" في تلك المركبات العنصرية المادية. وهذا "المزاج" هو الذي نسميه بالأسلوب أو الطريقة وعلى حسبه يقع التفاوت في درجات الكلام وفي حظه من الحسن والقبول.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد وأمسّها رحمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يوما أو بعض يوم بل على أن تذهب العصور وتجئ العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ولا الساكن يبغي عن منزله حولا..وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا مطلب له دليله وإجمال له تفصيله. وليس من قصدنا أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربي ككل كلام عربي. وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حد العجز. أو صاعدة إلى حد الإعجاز"[1].

وبهذا التوضيح الجامع يكون عبد الله دراز قد اتفق مع الباقلاني الذي برهن على أن النظم القرآني بعيد كل البعد عن أي مماثلة للنظم البشري المستعمل الذي يبلغ درجة كبيرة من الترقي في الفصاحة على الرغم من أنه لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم أفرادًا وتركيبًا.

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص92.

خلاصة مخالفة النظم لأي صورة من صور النظم الحادث بين الباقلاني وعبد الله دراز.

والحقيقة أن أصل قضية مخالفة النظم القرآني للنظم العربي المستعمل بدأت مع نزول القرآن الكريم[1] وما جرى في اجتماع فصحاء قريش وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة للتشاور في أمر القرآن. ونحس من خلاله روح الباقلاني وهو يستعرض صور نظم الكلام العربي من شعر وسجع[2].

لقد تأكدت فكرة مخالفة النظم القرآني لصور النظم العربي عند الباقلاني لما وجد أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (296هـ) قد ذكرها في مجال الحديث عن وجوه تحت مسمى جديد هو نقض العادة - أي عادة كلام العرب - حيث قال: "وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة"[3].

إن ما قدمه الباقلاني من إيضاح وشرح لقضية مخالفة النظم القرآني لصور النظم العربي الفصيح على امتداد كتابه يفيد أن وجه المخالفة بين النظمين إنما يكمن في طريقة الفصاحة والبلاغة لا في السبق والابتكار والخروج عن المألوف من الصور النظمية العربية. "لأن الذي كان يعتاده القوم الشعر وما يجري مجراه، والخطب وما شاكلها من الكلام المنثور، فجاء بطريقة في البيان خارجة عما اعتادوه؟"[4].

ويتبين لنا من خلال ذلك كله: إن للباقلاني جهدًا في إلباس هذه الفكر الدينية ثوب الثقافة العربية البلاغية، حيث استطاع الكشف عن الروح الإلهية للقرآن التي يزعم علماء ثقافتنا الحديثة عندما يقولون بها الآن أنهم يكشفون جديدًا لأول مرة، وهم في واقع الأمر يصبغون ما قاله الباقلاني صباغة عصرية، ولنكتف في هذا المقام بذكر قول محمد عبد الله دراز في هذا الشأن: "فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة. وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلمًا عن أهله وتقنع فيه بشهادة العارفين به وإذا يكون من حقك علينا أن نقدم لك مثالا من شهاداتهم فخذ الآن هذا المثال: جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول

---

[1] - الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، مقدمة الشيخ محمود شاكر، ص27.

[2] - سيرة ابن هشام، الجزء الأول، ص270، 271، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط2، مصطفى البابي الحلبي، 1955م.

[3] - النكت في إعجاز القرآن للرماني ،ص111.

[4] - المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار (الجزء السادس عشر الخاص بإعجاز القرآن)، ص216، 217، بتصرف.

الله - صلى الله عليه وسلم - فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فإنك أتيت محمدًا لتتعرض لما قبله قال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، إنه ليعلو ولا يعلى. وإنه ليحطم ما تحته...الحديث[1].

نعم إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شهادة حسبك من شهادة، وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم، بل شهادة الأعداء لعدّوهم.

وإذا لم تر الهلال فسلم ٭ لأناس رأوه بالأبصار

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والميز بين أساليبه فاقرأ ما شئت من خطب العرب وأشعارها، وحكمها وأمثالها ورسائلها ومحاوراتها متتبعا في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى؟ أسلوب عجب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول، وكأنه بينها على حد قول بعض الأدباء "وضع مرتجل" لا ترى سابقا جاء بمثاله ولا لاحقا طبع على غراره، فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها واستمازت من بينها، كما يستميز اللحن الحسّاس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام[2].

---

[1] - رواه الحاكم ابن عباس، وقال صحيح على شرط البخاري.

[2] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص92، 94.

ثالثا: وجوه إعجازه بين الباقلاني وعبد الله دراز:

تعرض الباقلاني في الحديث عن هذه النقطة لما تعرض له السابقون عليه سواء في ذلك المعتزلة من أمثال الجاحظ والرماني أو أهل السنة من أمثال أصحابه الأشاعرة.

هذا ويجب أن نذكر أن مآل وجوه الإعجاز حتى عصر الباقلاني قد انتهت عند المعتزلة - الرماني - إلى سبعة وجوه هي: "ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة والصرفة والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة"[1].

بينما رأى أهل السنة - الأشاعرة - أن هذه الوجوه الثلاثة:

الوجه الأول: أن القرآن يتضمن الأخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر.

والوجه الثاني: أنه كان معلوما من حال النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان أميًا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ.

والوجه الثالث: أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وقد عرض الباقلاني لمعظم هذه الوجوه في إيجاز - كما قال في خطته التأليفية - ولم يبسط القول إلا فيما رأى أن غيره قصر فيه. وسنعرض لحديثه الموجز فيها ومناقشة محمد عبد الله دراز لهذه الوجوه فيما يلي سائلين الله عز وجل التوفيق والسداد.

1 - إشارته الموجزة[2]:

(أ) - ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة:

بدأ الباقلاني في الحديث عن هذا الوجه كأنه عالم من علماء القرن الخامس عشر الهجري إذا اتكأ فيه على الناحيتين الاجتماعية والنفسية فدرس العرب من كلا هذين الجانبين، فبين أنهم من الناحية الاجتماعية "ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا، ولهم في ذلك مواقف معروفة وأخبار مشهورة وآثار منقولة" كما أنهم من الناحية النفسية لا يقبلون أن يتفوق عليهم أحد خصوصًا في ملكة البيان والفصاحة وعلى حد تعبيره "كانوا

---

[1] - النكت في إعجاز القرآن، للرماني، ص109.

[2] - دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن، عبد العزيز أبو سريع ياسين، ص83، 86.

يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم" ثم خلص بعد ذلك إلى النتيجة التي يريدها قائلا: فلن يجوز والحالة هذه أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها تحداهم إليها أو لم يتحداهم"[1].

"ويمكن أن يقال إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به، لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة. وهم على ما هم عليه من الدراية والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته وأنهم يضعفون عن مجاراته، ويكرر فيما جاء به ذكر عجزهم عن مثل ما يأتي به ويقرعهم ويؤنبهم عليه ويدرك آماله فيهم، وينجح ما يسعى له بتركهم المعارضة"[2].

هذا وقد أجاب الباقلاني عما يمكن أن يعترض به عليه وهو الآية الكريمة "لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا"[3].

وأما قوله تعالى حكاية عنهم "لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا" فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم، وهو يدل على عجزهم ولذلك أورده الله مورد تقريعهم، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز والضمان إلى الوفاء. فلما لم يستعملوا ذلك مع استمرار التحدي وتطاول زمان الفسحة، في إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط"[4].

وفي هذا الصدد يقول محمد عبد الله دراز: "إرجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرون أن يأتوا بمثله؟ فإن قالوا لك "لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا" فقل "هاتو برهانكم!" وإن قالوا "لا طاقة لنابه" فقل أي شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز؟ ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله: ما بال القرون الأولى؟ ينبئك التاريخ أن أحدًا لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره، وأن بضعة النفر الذين أنغضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان. أجل لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟... ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ - إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص46.

(2) - المصدر نفسه، ص45 وما بعدها.

(3) - الأنفال: 31.

(4) - المصدر السابق، ص67.

صناعاتهم وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم. وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخاف على متأدب"[1].

ولم ينس الباقلاني أنه يمكن أن يعترض عليه أيضا بما أشيع عن معارضة ابن المقفع[2] ومسيلمة[3] الكذاب للقرآن الكريم، وأعتقد أن محمد عبد الله دراز ناقش هذا الرأي هو الآخر في قوله: "وإن في التاريخ لعبرا تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة باد عوراه. باق عاره وشناره فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته - ابن المقفع وأبو الطيب المتنبي... - ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته فطوى صحفه وأخفاها إلى حين - زعماء القاديانية والبهائية - ومنهم طائش برز بها إلى الناس فكان سخرية للساخرين ومثلا للآخرين، فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها ومن لم يستحي فليصنع ما يشاء"[4].

(ب) - تحدي القرآن للكافة:

ذكرنا من قبل أن الباقلاني قد بين أن ما وقع إليه التحدي في القرآن هو الإتيان بمثل الحروف القرآنية المنظومة التي "هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها وتأليفها وهي حكاية لكلامه، ودلالات عليه وأمارات له"[5].

ونذكر له الآن تعليل هذا التحدي بقوله: "إنما احتيج إلى التحدي لإقامة الحجة وإضهار وجه البرهان، لأن المعجزة إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه، ولا تظهر على مدّع لها إلا وهي معلومة أنها من عند الله، فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدي وجب فيها التحدي، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل وينكشف الجميع أن العجز واقع عن المعارضة"[6].

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص83، 84.

(2) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص56.

(3) - المصدر نفسه، ص172.

(4) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص81، 82، 83.

(5) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص266.

(6) - المصدر نفسه، ص47.

ثم نذكر له أيضا ربط حديث التحدي بحديث المعارضة من خلال قوله: "والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي وجعل دلالة على صدقه ونبوته وتضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم علم أنهم عاجزون عنها"[1].

"يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد لاسيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيء من خلع آلهته، وتسفيه رأيه في ديانته وتضليل آبائه... والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله، وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه"[2].

"هذا والحمية حميتهم والهمم الكبيرة هممهم، وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم... وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطلع، والرتبة التي ليس وراءها منزع؟!

ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره وتكذيب قوله وتفرق جمعه وتشتيت أسبابه وكان من صدق به يرجع على أعقابه ويعود في مذهب أصحابه، فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة وكان أمره يتزايد حالا فحالا، يعلو شيئا فشيئا وهم على العجز عن القدح في آيته والطعن في دلالته علم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته ولا على توهين حجته"[3].

وناقش محمد عبد الله دراز هذا الرأي في قوله: "ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادا أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى متهكما بهم متنزلا" معهم إلى الأخف فالأخف فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة"[4]

---

[1] – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص43.

[2] – المصدر نفسه، ص43.

[3] – المصدر نفسه، ص44.

[4] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص84.

"فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الأنداد وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلما يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف واستنطقوا السيوف بدل الحروف وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعا عن نفسه بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم... ثم مضت تلك القرون وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد، كانوا أشد عجزا وأقل طعما في هذا المطلب العزيز، فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم وكان برهان الإعجاز قائما أمامهم من طريقين: وجداني وبرهاني... ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها"[1].

(جـ) - الصرفة:

أشار الباقلاني إلى حديث الصرفة في موضعين من كتابه:

أولهما: عند حواره مع من جوزوا السجع في القرآن حيث قال: "ولابد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام وعباد بن سليمان، وهشام الفوطي، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز وأنه يمكن معارضته وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف"[2].

وثانيهما: عندما تناول معاني هذه اللفظة - **الصرفة** - وتأويلاتها التي تعددت وقسمت بذلك القائلين بهذا المذهب فرقا شتى، وقد أوضح فيه الرأي الذي ذكره في الموضع الأول.

أورد الباقلاني ثلاثة معاني للفظة الصرفة في صورة حوار دار بينه وبين معارضيه جاء على هيئة سؤال وجواب، شمل السؤال معنيين اثنين بينما جاء في نهاية جوابه على سؤال معارضيه المعنى الثالث على النحو التالي: "فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الاتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات؟ وهلا قلتم إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرًا وإنما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف أو يمنعه من الاتيان بمثله ضربا من المنع أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص85.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص91.

الحجة، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة"[1].

وأعتقد أن محمد عبد الله دراز كان يناقش هذا الرأي في قوله: على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادئ ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم، لكان عجبهم إذا من أنفسهم: كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمام؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم.

قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم، حتى إنهم كانوا يخرون سجدا لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافا صحيحا: "ما هذا بقول بشر"[2].

(د) - الإخبار الصادق عن غيبيات الأمور:

على الرغم من دقة تعبير الباقلاني عن الرماني في إطلاقه تضمن القرآن الأخبار عن الغيب مطلقا دون تحديد لزمنه إلا أنه التزم، أو قل نقل شيئا مما كتبه الرماني عن حديث القرآن عن الزمن المستقبل، واكتفى بعد ذلك بقوله: "جميع الآيات التي يتضمنها القرآن من الإخبار عن الغيوب تكثر جدا، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض عن الكل"[3].

ومما نقله عن الرماني حديث القرآن عن ما وعد الله به نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - أنه سيظهر دينه على الأديان كلها بقوله: "**هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**"[4] وتحقق ذلك في الفتوحات التي تمت في عهدي أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص52.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص89.

(3) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص58.

(4) - التوبة: 33.

وحديثه عن وفاء الله عز وجل بما وعد رسوله انه سينصره في غزوة بدر الكبرى بقوله "وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ"[1].

وقد تعذر الباقلاني في عدم حديثه عن الغيب الماضي ونقول إنه قد تناوله في الحديث عن أمية الرسول - صلى الله عليه وسلم - على ما سيأتي بيانه. لكننا لا نجد مناصا من أن نقول إنه أهمل حديث القرآن عن غيب الزمن الحاضر. - والجواب على ذلك يكمن في معرفة طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه - لأن من يقرأ القرآن الكريم يجد الله قد أنبأ رسوله بكثير من المواقف التي حدثت في الزمن المعاصر له وليس لها مصدر سوى هذا الأنباء.

هذا وقد تناول محمد عبد الله دراز هذا الجانب بالشرح والتفصيل في قوله: "فانظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريبا وبعيدا، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتا وتأييدا، وكيف يكون الدهر مصداقا لها فيما قل وكثر، وفيما قرب وبعد؟

بل أنظر إلى جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية كيف يتناول بها محمد -صلى الله عليه وسلم- ما وراء حسه وعقله من أنباء ما كان وما سيكون وما هو كائن، وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشؤون غيبه صدقته الأنبياء والكتب"[2].

(هـ) - أمية النبي - صلى الله عليه وسلم -:

تناول الباقلاني في حديثه الموجز عن أمية الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه كان معلوما من حاله أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ولا يعرف شيئا من كتب المتقدمين إلا أنه أخبر عن طريق قرآن الله عز وجل عن جمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير. من ذلك قصة خلق الله آدم - عليه السلام - حتى مبعثه، وقصة نوح - عليه السلام - وما كان بينه وبين قومه وما انتهى إليه أمره وأمرهم، وقصة إبراهيم - عليه السلام - إلى غير ذلك من سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن ومن ذلك أيضا أخبار الملوك والفراعنة الذين كانوا في أزمان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم وصل إلى ما يريد أن يصل إليه بقوله: "وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من

---

[1] - الأنفال: 07.

[2] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص53.

جهه الوحي ولذلك قال الله عز وجل "وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ"[1][2].

ولقد تناول عبد الله دراز في حديثه المفصل عن أمية الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه كان أميا لم يقرأ في كتاب، ولم يتعلم على أحد ولا سمع ذلك من إنسان ومجمل ما في القرآن من أخبار كان معروفا ولكن "تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررا في القرآن حتى الأرقام طبق الأرقام لم يكن ليعرفها مثله، كلبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وبقاء أهل الكهف ثلاثمائة سنة شمسية تزيد تسعا قمرية فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّي مُعْجِزَةً • فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ

نعم إنها لعجيبة حقا، رجل أمي بين أظهر قوم أميين"[3].

[1] - العنكبوت: 48.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص 58 وما بعدها.

[3] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص37، 38.

2 - الحديث التفصيلي عن الإعجاز القرآني بين الباقلاني وعبد الله دراز:

(أ) - حديث الباقلاني التفصيلي[1] عن الإعجاز القرآني:

أشرنا عند الحديث عن خطة الباقلاني في دراسته للنظم القرآني إلى أنه كان يهدف في المقام الأول من بيانه للإعجاز القرآني إلى أن هذا الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر إذا كان كامنا في سمو بلاغته عن البلاغة البشرية ليس غير - أي أن هذا الوجه هو الوجه الأوحد في الإعجاز القرآني - وأنه من أجل تحقيق هذا الهدف درس النظم البشري المستعمل حتى يمهد القارئ تمهيدًا طيبًا يتمكن به من إدراك الإعجاز القرآني إذا ما هو أشار له إليه؛ لأن هذا الإدراك أمر صعب يحتاج - كما قال - للإرشاد إليه خصوصًا بعد ضلال من ضل في هذا السبيل، سواء بالتطاول على القرآن بمقارنته بالشعر، أو بمقارنته بالمعجزات الأخرى أو غير ذلك[2].

إنه بعد أن مهد قارئه هذا التمهيد الرائع استوقفه قبل أن يدخل معه في حديث سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية ليقول له "ونظم القرآن عال عن أن يعلق به الوهم أو يسمو إليه الفكر أو يطمع فيه طامع، أو يطلبه طالب "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[3] وكنت قد ذكرت لك قبل هذا: انك إن كنت بصنعة علم اللسان متدربا وفيه متوجها متقدمًا. أمكنك الوقوف على ما ذكرنا، والنفوذ فيما وصفنا، وإلا فاجلس في مجلس المقلدين، وارض بمواقف المتحيرين. ونصحت لك حيث قلت: انظر هل تعرف عروق الذهب ومحاسن الجواهر، وبدائع الياقوت ودقائق السحر من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها وهل يقطع سمت البلاد من غير اهتداء فيها؟

ولكل شيء طريق يتوصل إليه به وباب يؤخذ نحوه فيه، ووجه يؤتى منه، ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك وأغمص[4] وأدق وألطف.

---

[1] - دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن، عبد العزيز أبو سريع ياسين، ص87، 99.

[2] - يجب أن نتذكر في هذا المقام أن الباقلاني قد أشار إلى أن من قارن القرآن بالشعر قد أبعد في الضلال حتى فضل الشعر على القرآن، وأن من قارن القرآن بالمعجزات الأخرى قد أبعد في الضلال حتى جعل إعجازه خاصًا بمن عاصر النبي - صلى الله عليه وسلم - من العرب لا يتعداه إلى العصور الأخرى لأن هؤلاء الذين عاصروه هم الذين خصوا بالتحدي في زعمه.

[3] - فصلت: 42.

[4] - أغمص: أعمق - راجع هذه الكلمة في كتاب إعجاز القرآن. تحقيق السيد أحمد صقر، ص243، ط5، دار المعارف، مصر.

وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وإن كان قد يقع بالإشارة ويحصل بالدلالة والأمارة كما يحصل بالنطق الصريح والقول الفصيح فللإشارات أيضا مراتب وللسان منازل ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ورب وصف يربو عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه، ثم إذا صدق الوصف، انقسم إلى صحة وإتقان وحسن وإحسان وإلى إجمال وشرح.

واستيفاء وتقريب، وإلى غير ذلك من الوجوه، ولكل مذهب وطريق، وله باب وسبيل:

فوصف الجملة الواقعة كقوله تعالى: "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا"[1].

والتفسير كقوله: "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا"[2] إلى آخر الآيات في هذا المعنى.

وكنحو قوله: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ"[3].

هذا مما يصور الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم.

ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنو: "قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ"[4].

وقال في موضع آخر: "إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ"[5].

وهذا ينبئ عن كلام الحزين لما ناله، الجازع لما مسّه

---

(1) – الكهف: 18.

(2) – الكهف: 47.

(3) – الحج: 1، 2.

(4) – الشعراء: 50، 51.

(5) – الأعراف: 125، 126.

ومن باب التسخير والتكوين، قوله تعالى: "إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ"[1]

وقوله: "فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ"[2].

وكقوله: "فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ"[3]

وتقصى أقسام ذلك مما يطول، ولم أقصد اقتفاء ذلك، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل، وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل"[4].

ثم بدأ يستعرض الأدلة على صدق رؤيته لمعنى الإعجاز القرآني الذي ارتآه، فساق الدليل الأول وهو حديث الله عز وجل عن هذا القرآن ومن أصدق من الله حديثا؟ فقال: "خذ الآن هداك الله في تفريغ الفكر وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك ونهديه إليك، متوكلا على الله ومعتصما به، ومستعيذا به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن العظيم.

سماه الله عز ذكره "حكيما" و "عظيما" و "مجيدا"، وقال "لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[5] وقال "لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[6] وقال "وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا"[7]

---

(1) – يس: 82.

(2) – البقرة: 65.

(3) – الشعراء: 63.

(4) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص250، 251، 252.

(5) – فصلت: 42.

(6) – الحشر: 21.

(7) – الرعد: 31.

وقال "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[1][2].

ثم ساق الدليل الثاني وهو حديث الجن عن القرآن الكريم وهو الآية الكريمة "قُلْ أوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ"[3].

ثم ساق الدليل الثالث، وهو حديث الكون كله على القرآن الكريم فقال: " ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض أنواره، وجلل الآفاق ضياؤه ونفذ العالم حكمه . وقبل في الدنيا رسمه، وطمس ظلام الكفر بعد أن كان مضروب الرواق، ممدود الأطناب، مبسوط الباع مرفوع العماد ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته، أو يعبده حق عبادته أو يدين بعظمته أو يعلم علو جلالته أو يتفكر في حكمته، فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره، من أنه نور فقال: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيْمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"[4][5].

ثم انطلق بعد ذلك في حديثه هو عن سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية متبعا خطة هي قمة الرقي الفكري، إذ بدأ باستعراض النظم القرآني وحده دالا على معالم بلاغته سواء في المعاني أو الأحكام أو الكلمات أو الجمل أو النظم بجملته للآية وحدها ثم السورة بعد ذلك ثم للنظم القرآني كله، ثم ثنى بذكر النظم البشري نثرا فذكر شيئا من كلام سيد البشر فصاحة وبلاغة محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم شيئا من كلام صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ثم أتبع ذلك بذكر شيء من كلام التابعين، ثم امتد به القول فذكر شيئا من كلام الجاهليين قبل نزول القرآن الكريم من أمثال قس بن ساعدة الايادى، وأبي طالب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم التفت إلى الشعر فذكر منه ما اتفق الناس على بلاغته في الجاهلية وهو شعر امرئ القيس، وما اتفق الناس على بلاغته في الإسلام وهو شعر البحتري معقبا على كل ذلك بما يناسبه من حديث التفرقة بينه وبين كلام الله عز وجل.

---

(1) – الإسراء: 88.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص197، 198.

(3) – الجن: 1، 2.

(4) – الشورى: 52.

(5) –إعجاز القرآن، للباقلاني، ص199.

وقبل أن نحلل حديثه هو عن سمو البلاغة القرآنية عن البلاغة البشرية، نرى أن نبين صلة الأدلة الثلاثة الأولى التي ساقها بحديث البلاغة القرآنية المعجزة، فإنها ربما تخفى على بعض القارئين لكتابه فنقول عن الدليل الأول: إن الباقلاني يشير بالآيات التي استعرضها إلى أن هذا القرآن لم ينازعه أحد من الفصحاء فبين باطلا من بين يديه أو من خلفه في لفظه أو معناه أو نظمه أو حكمه أو تشريعه أو... وهم الحريصون على أي من ذلك حتى يدفعوا عن أنفسهم ذل التحدي القرآني.

وقبل أن نترك هذه النقطة نود أن نقول: إن الباقلاني أحس أنه قد يستدرك عليه هذا الدليل ويقال له قد قدح الملحد في نظم القرآن وادعى عليه الخلل في البيان، وأضاف إليه الخطأ في المعنى واللفظ وزعم ما زعم وقال ما قال، فأجاب: "الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن مما قد سبقنا إليه وصنف أهل الأدب في بعضه فكفوا، وأتى المتكلمون على ما وقع إليهم فشفوا، ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه في كتابنا.

وأما الغرض الذي صنفنا فيه في التفصيل والكشف عن إعجاز القرآن فلم نجده على التقريب الذي قصدنا، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنيا ووافيا.

وإن سهّل الله لنا ما نويناه من إملاء "معاني القرآن" ذكرنا في ذلك ما يشتبه من الجنس الذي ذكروه، لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه، فإنما يقع على جهل القوم بالمعاني، أو بطريقة كلام العرب. وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "**فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه**"[1][2].

وأما عن الدليل الثاني فإن ما ذكره الله عز وجل عن عجب الجن قد جاء مطلقا دون تقييد بشيء معين وإذا كان الأمر كذلك فإن من بين العجب والدهشة تلك الفصاحة القرآنية الخارقة لطاقة الفصحاء من المخلوقين أيا كانوا، وربما كان من الإنصاف بعد ذلك أن نسكت عن كيفية فقه الجن لبلاغة القرآن.

---

[1] - أخرجه الترمذي.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص253.

وأما عن الدليل الثالث فإن الباقلاني يشير به - والله أعلم - إلى لسان حال الكون الذي صدع بأمر الله فاستجاب للقرآن فلم يظهر فيه شيء يخالف ما جاء في القرآن الكريم فتلك هي البلاغة الصامتة حقيقة، الناطقة اعتبارا كما جاء في حديث الجاحظ في الاستدلال على قدرة الله عز وجل [1].

ونأتي الآن إلى تحليل الباقلاني للنظم القرآني فنذكر من حديث **المعاني القرآنية** قوله سبحانه: "**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**" يدل على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الإلهية وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير تميز عن جميعه وكان واسطة عِقْده[2] وفاتحة عَقْده[3] وغرة شهره وعين دهره.

وكذلك قوله "**وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**" فجعله روحا لأنه يحيي الخلق فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نورًا لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق. ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوف الاسترشاد به على إرادته، وبين أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه وأنه لم يكن ليهتدي فكيف كان يهدي لولاه فقد صار يهدي، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي فقال: "**وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الارْضِ أَلَآ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُور**"[4].

---

[1] - في البيان والتبيين أن جميع أصناف الدّلاّت على المعاني خمسة أشياء: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحالة الدالة، والحال الدالة هي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان، ولذلك قال الأول: سل الأرض فقل من شق أنهارك، وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارا - راجع البيان والتبيين. جـ1، ص76 - 81 . تحقيق عبد السلام هارون، ط3، سنة 1968م.

[2] - بكسر العين وسكون القاف: في الأصل: الخيط الذي ينظم فيه الخرز ثم أصبح اسما للخرز نفسه.

[3] - بفتح العين وسكون القاف: البناء.

[4] - الشورى: 52، 53.

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث[1] فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان، وقوله "أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُور" كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤالف وألطف انتظاما من الحديث الملائم. وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته"[2].

ومن حديث الأحكام قوله: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"[3] أنت تجد في هذه الآية من الحكمة والتصرف العجيب، والنظم البارع ما يدلك إن شئت على الإعجاز، مع هذا الاختيار والإيجاز، فكيف إذا بلغ ذلك آيات، أو كانت سورة؟"[4].

ومن حديث الكلمات قوله سبحانه "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ"[5] وهل تقع في الحسن موقع قوله "ليأخذوه" كلمة؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة؟ لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو "ليرجموه" أو "لينفوه" أو "ليطردوه" أو "ليهلكوه" أو "ليذلوه" ونحو هذا ما كان ذلك بديعا ولا بارعا، ولا عجيبا ولا بالغا"[6].

ومن حديث الجمل قوله: "قوله سبحانه "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ"[7] انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره أليس كل كلمة منها في نفسها غرة بمفردها درة.

وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر، ونفاذ القهر ويتجلى في بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العزة ويجمع السلاسة إلى الرصانة والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي والبهاء الضافي. ولست أقول إنه شمل الإطباق المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل والتمثيل، والتقريب والتشكيل وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه

---

(1) – اصطلح الباقلاني على تسمية الجملة القرآنية كلمة.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص200

(3) – المائدة: 04.

(4) – المصدر السابق، ص214.

(5) – غافر. 05.

(6) – المصدر السابق، ص210.

(7) – الأنعام: 96.

لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة فإذا ألفت ازدادت حسنا، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا".

ومن حديث نظم الآية قوله "قوله عز وجل "وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ"[1] هل تجد كل لفظة، وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع وتتضمن شرط القول البليغ؟ فإذا كانت الآية تنتظم من البديع، وتتألف من البلاغات، فكيف لا تفوت حد المعهود ولا تجوز شأو المألوف؟ وكيف لا تحوز قصب السبق ولا تتعالى عن كلام الخلق؟"[2].

أما عن حديث نظم السورة والقرآن عامة فقد حلل السورة الكريمة: النمل[3] والقصص[4] وغافر[5] وأنقل قوله معقبا على حديثه الذي استعرض فيه القرآن: "كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنها بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته، ثم تجد فيما تنظم ثقل النظم ونفور الطبع، وشراه الكلام، وتهافت القول، وتمنع جانبه، وقصورك في الإيضاح عن واجبه. ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة، وفصل إلى فصل، حتى تتبين عليك مواضع الوصل، وتستصعب عليك أماكن الفصل، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة، وأمثالا سائرة وحكما جليلة وأدلة على التوحيد بينة وكلمات في التنزيه والتحميد شريفة.

وإن أردت أن تتحقق ما وصفت لك، فتأمل شعر من شئت من الشعراء المفلقين، هل تجد كلامه في المديح والغزل والفخر والهجو ويجري مجرى كلامه في ذكر القصص.

إنك لتراه إذا جاء إلى وصف واقعة، أو نقل خبر، عامي الكلام سوقي الخطاب، مسترسلا في أمره متساهلا في كلامه، عادلا عن المألوف من طبعه، وناكبا عن المعهود من سجيته. فإن اتفق له في قصة كلام جيد كان قدر ثنيتين أو ثلاثة، وكان ما زاد عليها حشوا، وما تجاوزها لغوا، ولا أقول إنها تخرج من عادته عفوا؛ لأنه يقصر عن العفو، ويقف دون العرف ويتعرض للركاكة.

---

(1) – يس: 37، 38، 39.

(2) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص201.

(3) – المصدر نفسه، ص202..

(4) – المصدر نفسه، ص206.

(5) – المصدر نفسه، ص210.

فإن لم تقنع بما قلت لك من الآيات، فتأمل غير ذلك من السور، هل تجد الجميع على ما وصفت لك لو لم تكن إلا سورة واحدة لكفت في الإعجاز، فكيف بالقرآن العظيم ولو لم يكن إلا حديث من سورة لكفى، وأقنع وشفى"[1].

هذا عن استعراض الباقلاني للنظم القرآني وبيان أنه لا يختل بلاغة ولا يعتل فصاحة، بل لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، أما عن استعراضه لفصاحة أعظم البشر، سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه قد ذكر له - صلى الله عليه وسلم - عشرة نصوص، ما بين خطبة ورسالة وكتاب صلح ثم عقب عليها قائلا لمخاطبه: "فإن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس أو كنت تضرب في الأدب بسهم أو في العربية بقسط وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - في خطبه ورسائله وما عساك تسمعه من كلامه ويتساقط إليك من ألفاظه وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيد وأمدا مديدا، وميدانا واسعا ومكانا شاسعا... فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي، وأن كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأمر النبوي"[2].

وفي تعقيب الباقلاني على ما ذكره من كلام الصحابة والتابعين الجاهليين يقول: "قد نسخت لك جملا من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنفة في هذا الشأن فتأمل ذلك وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف، وأهل البيان واللسان والفصاحة والفطن والألفاظ المنثورة والمخاطبات الدائرة بينهم والأمثال المنقولة عنهم، ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب وجمع عقل في ذلك فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة"[3].

هذا كله عن حديث **النثر البشري** أما حديث **الشعر** فإنه قد تناول فيه بالتفصيل شرح خلل كل من امرئ القيس - من الجاهليين - والبحتري - من الإسلاميين - لأن الأول، كما قال عنه "كبيرهم الذي يقرون بتقدمه وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به وإمامهم الذي يرجعون إليه"[4] ولأن الثاني

---

(1) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص207، 208.

(2) - المصدر نفسه، ص154.

(3) - المصدر نفسه، ص170.

(4) - المصدر نفسه، ص227.

- كما نقل عنه أيضا - "الكتاب يفضلونه على أهل دهره، ويقدمونه على من في عصره، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوا ويزعم أنه يناغي النجم في قوله علوا والملحدة تستظهر بشعره وتتكثر بقوله وترى كلامه من شبهاتهم وعباراته مضافة إلى ما عندهم من ترهاتهم"[1]. ثم عقب على ذلك قائلا: "وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدنا الطريق، فمن كمل طبعه للوقوف على فضل أجناس الكلام استدرك ما بينا ومن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل والحكم بين فضل زهير والنابغة، أو الفصل بين البحتري وأصحابه، ولم يعرف سُخْفَ مسيلمة في نظمه، ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه كشعر أبي العَنْبَس في جملة الشعر، وشعر علي بن صلاءة فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا، والحكم على ما بينا"[2].

على أنه بعد ذلك كله خلص إلى النتيجة التي يريدها: "إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمار باهلة وأحمق من هبنقة، لو كان شعره كله كالأبيات المختارة التي قدمناها، لأوجب البراءة منه"[3].

هذا وقد استدرك الباقلاني على معارضيه ما يجول في خاطرهم من باطل القول فقال: "وليس لقائل أن يقول: قد يسلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده في الفصاحة والنظم العجيب ولا يبلغ عندكم حد المعجزة فلم قضيتم بما قضيتم به في القرآن دون غيره من الكلام؟

وإنما لم يصح هذا السؤال، وما نذكر فيه من أشعار في نهاية الحسن وخطب ورسائل في غاية الفضل لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع التنازع فيها، والمساماة عليها، والتنافس عليها والتنافس في طرقها والتنافر في بابها، وكان البون بين البعض والبعض في الطبقة الواحدة قريبا، والتفاوت حفيفا، وذلك القدر من السبق إن ذهب عنه الواحد لم ييأس منه الباقون ولم ينقطع الطمع في ذلك.

وليس كذلك سمت القرآن؛ لأنه قد عرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته والطمع يرتفع عن مباراته ومساماته، وأن الكل في العجز عنه على حد واحد"[4].

---

(1) - إعجاز القرآن للباقلاني، ص252.

(2) - المصدر نفسه، ص253، 254.

(3) - المصدر نفسه، ص224.

(4) - المصدر نفسه، ص254.

(ب) - حديث عبد الله دراز التفصيلي عن الإعجاز القرآني:

أشرنا عند الحديث عن خطة دراز في دراسته للنظم القرآني إلى أنه كان يهدف في المقام الأول من بيانه للإعجاز القرآني إلى أن هذا الإعجاز إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر سواء أكان من الناحية البلاغية أو البيانية أو العلمية أو التشريعية... وأنه من أجل تحقيق هذا الهدف درس ماهية النظم القرآني حتى يمهد القارئ تمهيدا طيبا يتمكن به من إدراك الإعجاز القرآني إذا ما هو أشار إليه، لأن هذا الإدراك أمر صعب يحتاج للإرشاد والتوجيه إليه خصوصا بعد ضلال من ضل في هذا السبيل تطاولا على القرآن الكريم.

وإنه بعد أن مهد قارئه هذا التمهيد الرائع استوقفه قبل أن يدخل معه في حديث الإعجاز البياني ليقول له: "فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحد لم نرد أن نعرض للقرآن في جوهره، بل كان قصارى ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها: فما وجدنا في اعترافات صاحبه، ولا في حياته الخلقية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب ننسبه إليه من دون الله"[1].

"هانحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ أو من تلك النواحي مجتمعة، على أن تكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في البيئة والعصر الذي ظهر فيه، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية وسواء علينا أيضا أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصا خياليا تجمعت فيه مرانات الأدباء، وسلطات الزعماء ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله: هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب، وتتضاءل دونها قوة كل عالم وكل زعيم وكل شاعر وكاتب ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي فيه من عجائب بل قد تنقضي الدنيا كلها ولما يحط الناس بتأويل كل ما فيه "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ"[2][3].

ولتكن عنايتنا أوفر بناحيته اللغوية لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلا في سورة منه ولذلك نبدأ بها.

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص76.

(2) - الأعراف: 53.

(3) - المصدر السابق، ص79.

و"نحن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم هل تحسب أننا سنسلك سبيلا غير سبيلهم فنزعم أننا في هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة؟ كلا، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب، وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه أو تلوناه وتدبرناه، لعلك واجد في القليل منها مالا تجده في الكثير مما يعده الناس، كإن زادك الناس من ذلك أنواعا رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعا وانتفاعا"[1].

"وترى الناس قد يتساءلون: لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن قارنت بينه وبين الشعر نفيا وإثباتا، ولم تعرض لسائل كلامها من الخطابة وغيرها؟ وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب وهديت إلى السر الذي فطنت له العرب، ولم يفطن له المستعربون؟"[2].

"إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع... في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذلك يصفر وثالث يهمس ورابع يجهر وآخر ينزلق عليه النفس وآخر يحتبس عنده النفس"[3].

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وعرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟ فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي وحده في كف أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به ذلك أن الناس - كما يقول الباقلاني - إذا استحسنوا شيئا اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضا فيما يستجدونه من الأساليب وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض، وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل موروثة ومسالك معبدة تؤخذ بالتعليم وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة كسائر الصناعات. فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شرع في استحسان طريقته، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص101.

[2] - المصدر نفسه، ص102.

[3] - المصدر نفسه، ص103.

ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته. وما اتخذه في رصف حروفه وكلماته وجمله وآياته من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلا جرم لم يجدوا له مثالا يحاذونه به، ولا سبيلا يسلكونه إلى تذليل منهجه وآية ذلك أن أحدا لو حاول أن يدخل عليه شيئا من كلام الناس من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع وإذا لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكير خبث الحديد "وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[1].

ثم يقول: "فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عما وراءها من السر المصون، بل فليت القشرة عن لبها وكشفت الصدفة عن درها، فنفدت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع لا نريد أن نحدثك هاهنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعا يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز "العلمي" وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز "اللغوي" وإنما اللغة ألفاظ بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها "تارة" من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفا و"تارة" من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها. وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثرًا في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدده. إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام"[2].

لقد تبين لنا من خلال ذلك كله أن إعجاز القرآن الكريم يكمن في سمو نظمه وبلاغته ولو كان معجزا بالصرفة لما كان يعد تحديا لهم، لأنه كيف يتحداهم الله تعالى بقوله "قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ" وفي الوقت نفسه يصرفهم عن الإتيان بمثله فلا يكون هناك تحد لهم ولكن الثابت أن الله تعالى تحداهم، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة فعجزوا، ولأن القرآن معجزة وحجة للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمعجزة لا تسمى معجزة إلا إذا وقع بها التحدي، لأنه الميزان بين القدرة والعجز، والتاريخ شاهد بعجز فحول العرب عن معارضته، وهم مظنة المعارضة وذوو القدرة عليها. لذلك ألف كل منهما في إعجاز القرآن - كتابا - لبيان

---

(1) - فصلت: 41، 42.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص105، 106.

حقيقة الإعجاز فأثبتا بالأدلة والحجج القاطعة عجز العرب عن الإتيان بمثل هـذا القرآن مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

لقد اتفق كل من الباقلاني وعبد الله دراز في أن النظم القرآني غريب تأليفه في بنيته في رصف حروفه - هي من الأصوات - وكلماته - هي من الحروف - وجمله - هي من الكلم - وآياته - هي من جمل - وسوره - هي من آيات - وسر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به وأنفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه وهذا "المزاج" أو النظم هو الذي يسمى بالأسلوب وهذا ما ذهب إليه صاحب نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني في قوله: واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"[1].

[1] - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص64.

التشابه والاختلاف في وجوه إعجاز النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز:

من خلال المنهج البلاغي الذي ظهر في بحثيهما من خلال كتبهما يجدر بنا أن نبين بعض ما بينهما من تشابه أو تباين في وجوه الإعجاز البياني، جاء بسبب طبيعة البحث البلاغي لكل منهما. وهذه الوجوه هي:

1 - خروج القرآن عن المعهود من كلام البشر:

وهذا الوجه هو أول الوجوه الملفتة لنظر القارئ للقرآن الكريم، فمن يتأمل القرآن يجده لا يشبه في شيء أي لون من ألوان الكلام التي عرفها العرب قبل الإسلام وبعده وهذه حقيقة ثابتة يشهد عليها ثلاثة أدلة:

الأول: شهادة البلغاء فعندما سمعوه انبهروا من روعته، وأخذتهم الحيرة في وصفه، واعترفوا لأنه لا يشبه في شيء أي لون من ألوان الكلام التي كانت معروفة عندهم، وقد سبقت شهادات في ذلك ومنها شهادة الوليد بن المغيرة.

الثاني: عجز المعارضة عن الرد على التحدي. فهذا العجز يثبت أن أسلوب القرآن[1] هو فوق الطاقة البشرية ذكر هذا الدليل الإمام الفخر الرازي في تفسيره لآيات التحدي قال: "إن القوم الذين تحداهم القرآن كانوا في معرفة اللغة والإطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية حتى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل، وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله - والمعارضة أقوى القوادح - فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا، فهو إذن تفاوت ناقض للعادة، فوجب أن يكون معجزا"[2].

الثالث: شهادات الباحثين في الإعجاز، تعرض لهذا المظهر كثير من العلماء، وأثبتوا ذلك عن طريق الدراسة القائمة على المقارنة وضرب الأمثلة واعتبره البعض منهم وجها من وجوه الإعجاز واعتبره الباقلاني أهم الوجوه جميعا وكتب عليه أكثر من كل الوجوه مجتمعة، قال: "من وجوه إعجاز نظمه أنه خارج عن المعهود

---

[1] - الأسلوب القرآني: هو الطريقة التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه. التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص179 وما بعدها.

[2] - التفسير الكبير للرازي، الجزء الثاني، ص115، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، طهران (دت).

من كلام العرب مباين لجميع أساليبهم، فليس هو من قبيل الشعر، ولا من باب السجع، ولا يشبه في شيء أي صنف من أصناف كلامهم الموزون ولا أي نوع من أنواع نثرهم"[1].

ومنهم عبد الله دراز، قال: "أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعا يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور.

كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس وكان قد رزق حظا ما من الحاسة البيانية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجلية وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها"[2].

2 - سلامة القرآن الكريم من الاختلاف والتفاوت في الفصاحة:

وهذا مظهر عام يشتمل القرآن كله، فبديع نظمه لا يختص بموضوع دون آخر ولا يتفاوت من آية إلى أخرى، بل هو يظهر على حد سواء في كل جزء من أجزائه، سواء أكان موضوعا طويل النفس مثل القصص، وضرب الأمثال والمواعظ والتبشر والإنذار والوعد والوعيد، أم كان محدود النفس مثل صياغة الأحكام والتشريعات والإتيان بالبراهين والحجج، ولا تفاوت بين آياته الطويلة وآياته القصيرة، ولا بين قصصه المكررة، ولا تضعف فصاحته عند الانتقال من معنى إلى معنى.

وهذا بخلاف البلغاء فلا يمكن لأي أحد منهم أن يحافظ على مستوى بلاغته وبالأخص عند الانتقال من موضوع إلى موضوع ومن معنى إلى معنى.

وقد اعتبر بعض العلماء تميز القرآن بهذه الميزة أحد وجوه إعجاز بلاغته منهم الباقلاني قال: "إن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور"[3].

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص59 بتصرف.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص100.

(3) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص60 وما بعدها.

واعتبر عبد الله دراز سلامة القرآن من الاختلاف والتفاوت في الفصاحة دليلا على أنه من عند الله قال: "أي تدبير محكم، وأي تقدير مبرم، وأي علم محيط لا يضل ولا ينسى ولا يتردد ولا يتمكث، كان قد أعد لهذه المواد المبعثرة نظامها، وهداها في إبان تشتيتها إلى ما قدره لها، حتى صيغ منها ذلك العقد النظيم وسرى بينها هذا المزاج العجيب؟ سبحان الله هل يمترى عاقل في أن هذا العلم البشري، وأن هذا الرأي الأنف البدائي الذي يقول في الشيء لو استقبلت من أمري ما استدبرت لقلت أو فعلت، ولقدمت أو أخرت" لم يك أهلا لأن يتقدم الزمان ويسبق الحوادث بعجيب هذا التدبير؟ أليس ذلك وحده آية بينة على أن هذا النظم القرآني ليس من وضع بشر، وإنما هو صنع العليم الخبير؟ بلى "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"[1].

أما إن طلبت شاهدا من العيان على صحة ما أصلناه في هذا الفصل من نظام الوحدات في السور على كثرة أسباب اختلافها، وأما إن أحببت أن نريك نموذجا من السور المتجمعة كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات"[2].

3 - القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

هذا المظهر هو الآخر من أهم المظاهر التي يتميز بها أسلوب القرآن عن أسلوب البشر. واعتبر الباقلاني القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى دليلا على أنه من عند الله واستدل على ذلك بنقده الشعر والكلام وفي هذا يشير دراز إلى قول الباقلاني فيما معناه: "سل العلماء بنقد الشعر والكلام: هل رأيتم قصيدة أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع، ولفظ جامع، ونظم رائع؟ لقد اجتمعت كلمتهم على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والرديء والغث والمستكره وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء والأمر فيهم أبين. فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم تجد بيانا قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير"[3].

4 - شمولية الخطاب للخاصة والعامة:

هذا المظهر هو الآخر من أهم المظاهر التي يتميز بها القرآن الكريم عن الكلام البشري ومرجعه في ذلك هو أن الطاقة البشرية على التعبير محدودة، فلا كاتب يستطيع أن يكتب للناس جميعا على اختلاف مداركهم

---

(1) - النساء: 82.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص157.

(3) - المصدر نفسه، ص111.

العقلية، وعلى تفاوت مستوياتهم الثقافية، وإنما الذي تجده كتابا يكتبون لطبقات معينة بعضهم يرضي الخاصة فيتهم من العامة بالتعقيد والغموض وبعضهم يرضي العامة فيتهم من الخاصة بالسطحية والابتذال والضعف.

أما القرآن الكريم فهو على خلاف ذلك يتجه لجميع الناس على اختلاف مداركهم العقلية وعلى تفاوت مستوياتهم الثقافية ويؤثر فيهم جميعا وهو يخاطب العقل ببراهين واضحة لا تجد فيها ذلك التعقيد الذي تجده في براهين الفلاسفة كما يخاطب العقل بأسلوب مؤثر يوقظ فيه حبه الفطري للخير ويؤثر فيهما معا"[1].

والبحث في هذا المظهر حديث، وقد يكون الدكتور عبد الله دراز هو أول من تحدث فيه وملخص كلامه هو: "أن الذين يخاطبهم القرآن فيهم العلماء والجهلاء والأذكياء والأغبياء والسوقة والملوك يسمعون جميعا الآية فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، يسمعها البلغاء فيجدونها أوفى كلام بلطائف التعبير، ويسمعها العامة فيرونها أحسن كلام، وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ميسر لكل من أراد"[2] "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ"[3].

5 - مظاهر الإعجاز البياني للآية القرآنية:

يتمثل الإعجاز البياني عند الباقلاني للآية القرآنية[4] فيما يلي:

حسن البيان:

عرّف ابن أبي الأصبع المصري، حسن البيان بقوله: "حقيقة حسن البيان: إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها، فإنه عين البلاغة، وقد تأتي العبارة عنه من طريق الإيجاز، وقد تأتي من طريق الأطناب"[5]. وأهم شروطه عند الباقلاني: إختيار اللفظ ووضح

---

(1) - المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، ص284، ديوان المطبوعات الجامعية.

(2) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص113.

(3) - القمر: 17.

(4) - نمتاز المفردة القرآنية بميزات ثلاث رئيسية: 1- جمال موقعها في السمع. 2- اتساقها الكامل مع المعنى. 3- اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى. التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص181.

(5) - بديع القرآن لابن الأصبع المصري، ص204، تحقيق حنفي محمد شرف، ط2، دار النهضة، مصر (دت).

المعنى، قال: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ومستنكر المورد على النفس حتى يتأبى بغرابته في اللفظ، عن الأفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة ويجب أن يتنكب ما كان عليه اللفظ مبتذل العبارة ركيك المعنى سفساف الوضع"[1].

وقال أيضا: "ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان... فالقرآن أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف"[2].

ويتميز البيان بميزة أخرى ذكرها محمد عبد الله دراز وهي جمعه بين البيان والإجمال تقرأ الآية فيتبادر معناه إلى ذهنك واضحا محددا حتى تظن ولكأن لا معنى آخر لها فإذا أعدت النظر فيها بدت لك وجوه أخرى كلها صحيحة أو محتملة الصحة[3].

6 - تصريف القول:

مضت عادة الذين كتبوا في هذا الوجه أن يدرجوه تحت عنوان التكرار وهذا للرد على من عاب التكرار في القرآن. وفضلنا إدراجه تحت العنوان المذكور أخذا من قوله تعالى: "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"[4] ومن قوله: "وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا"[5] وقد شرحهما المفسرون بمعنى التكرير والتبيين، وهو من أهم مظاهر الإعجاز.

إن تكرير القصص القرآني بأسلوب متنوع يعتبر مظهرا من مظاهر الفصاحة والبلاغة قال الباقلاني: "إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحدا من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتتبين به البلاغة وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة، على ترتيبات متفاوتة ونبهوا بذلك على

---

(1) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص137.

(2) - المصدر نفسه، ص276، 277.

(3) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص117.

(4) - الكهف: 54.

(5) - طه: 113.

عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا"[1]. ويعتبر أيضا تحدي فكأن القرآن يدعو المكذبين به إلى معارضته بإعادة القصة مرة أخرى بأسلوبهم وفي ذلك إقامة الحجة على عجزهم.

7 - الترابط بين الآيات القرآنية:

من المظاهر الهامة التي يتميز بها القرآن الكريم الترابط المحكم بين الآيات القرآنية حتى أن السورة الواحدة لتبدو وكأنها سلسة واحدة مترابطة الحلقات مع العلم أن غالبية السور تضم جنبا إلى جنب موضوعات متنوعة مثل قصص الأقوام السابقين والمجادلة والأمثال والمواعظ والوعد والوعيد والأحكام، كما أن كثيرا منها لم تنزل دفعة واحدة وإنما نزلت مفرقة بحسب الظروف والمناسبات بعضها في مكة، وبعضها في المدينة، وكثيرا ما تجمع السورة الواحدة جنبا إلى جنب آيات مكية وأخرى مدنية[2].

وهذا الجمع الذي يجمع بين آيات في معان مختلفة، وبين آيات يفصل بينها فارق زمني كبير أمر خارق للعادة، يخرج عن حدود الطاقة البشرية، وتظهر هذه الصعوبة من عدة جهات:

الأولى: عند الربط بين الجمل، فهناك جمل لا يتطلب الربط بينها مهارة كبيرة مثل ربط جملة بجملة أخرى تابعة لها في الإعراب، وهناك جمل يتطلب ربط بينها مهارة كبيرة مثل ربط جملة بجملة أخرى مستقلة عنها. وقد اعتبر الإمام عبد القاهر الجرجاني هذا الوجه من أسرار البلاغة الذي عناه من عرف البلاغة بقوله: "هي معرفة الفصل من الوصل وهو عنده من أصعبها وأغمضها وأدقها قال: اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول إنه فيه خفي وغامض ودقيق إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب، وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ولقد غفلوا غفلة شديدة. ومما هو أصل في هذا الباب أنك ترى الجملة وحالها مع التي قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف لأمر قد عرض فيها صارت به أجنبية عما قبلها مثل قوله تعالى: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"[3][4].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص87، وما بعدها.

[2] - المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، ص294، وما بعدها.

[3] - البقرة: 14.

[4] - دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص178.

الثانية: عند الانتقال من معنى إلى معنى هناك من يجيد الكتابة في موضوع ويخفق كل الإخفاق في مواضع أخرى وما من كاتب إلا ويضعف عند الانتقال من معنى إلى معنى.

أما القرآن الكريم فلا تتفاوت فصاحته عند الانتقال من موضوع إلى موضوع، وهو من إحكام ربطه لا يكاد قارؤه يشعر فيه بمواضع الفصل عند الانتقال من معنى إلى معنى، وهذا المظهر من أهم المظاهر التي يتميز بها القرآن الكريم عن الكلام البشري.

وقد اعتبره الباقلاني أحد وجوه إعجاز النظم القرآني قال: "كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتا بينا في الفصل والوصل، والعلو والنزال والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع.

وسجل ضعفا على البلغاء عند الانتقال من موضوع إلى موضوع وأعطى مثالا بالبحتري قال إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الحروف من النسيب إلى المديح. وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يأتي فيه بشيء، وإنما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى، وتنقل يستحسن. ثم قال: بخلاف القرآن فهو على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف"[1].

الثالثة: من جهة الترتيب بين المعاني. قد يكون الموضوع الذي يكتب فيه الكاتب واحد ومعانيه مترابطة ببعضها بطبيعتها، ولكن لا تكون معانيه على درجة واحدة من الأهمية بل فيها الهام وغير الهام، والأساسي وغير الأساسي وما يستحق أن يقدم، وما يستوجب أن يؤخر، والكاتب الماهر هو الذي يعرف كيف يرتب هذه الأفكار، ويضع كل فكرة في مكانها وفق غايات ومقاصد وهذا ليس سهلا، وكثيرا ما يتعرض كبار الكتاب للنقد من هذا الجانب، وتزداد هذه الصعوبة بالنسبة لأي كاتب إذا ما حاول أن يجمع بين موضوعات مختلفة وبين معاني منفصلة عن بعضها بطبيعتها، يجد نفسه عاجزا تماما عن ترتيبها[2].

والقرآن الكريم يجمع في كثير من سوره بين آيات في معاني مختلفة ويضم جنبا إلى جنب آيات يفصل بينها فارق زمني كبير.

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص62.

[2] - المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، ص296.

ولا يأتي هذا الربط بين المعاني المختلفة كيفما اتفق، وإنما وفق غايات ومقاصد قال الزركشي: "وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاما ذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك"[1].

وقد اعتبر بعض العلماء هذا المظهر من أهم المظاهر التي يتميز بها القرآن الكريم عن الكلام البشري منهم الإمام الفخر الرازي، اهتم به كثيرا في تفسيره قال: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[2].

ومنهم الإمام أبو بكر النيسابوري، كان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ [3] ومنهم الدكتور عبد الله دراز قال: "إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة[4].

وملخص كلامه في إثبات إعجاز هذا الوجه، أن هناك عدة صعوبات تجعل البلغاء يعجزون عن مجاراة القرآن الكريم في هذا المظهر وهي:

أولا: صعوبة تتعلق بالموضوع الواحد المترابط الأجزاء، قل: "إن الربط بين هذه الأجزاء ليس بالأمر الهين كما قد يظن الجاهل بهذه الصناعة بل هو مطلب كبير يحتاج مهارة وحذقا ولطف حسّ في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء"[5].

ثانيا: صعوبة تتعلق بموضوعات تجمع بين معاني مختلفة، وهي قسمان:

---

(1) – البرهان في علوم القرآن للزركشي،ج1، ص40، تحقيق محمد الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت (دت).

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص36.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص36.

(4) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص155.

(5) – المصدر نفسه، ص143.

1 - موضوعات تجمع بين معاني مختلفة قيلت في مجلس واحد، وهذه قد يجيد البلغاء عرض غرض من أغراضها إلى حد ما، ولكننا نراهم يضعفون عند الانتقال من غرض إلى غرض كما هو شاهد عند بعض الشعراء عند الانتقال من النسيب إلى المديح وعند الكتاب عند الانتقال من معنى إلى معنى. وللتغلب على هذه الصعوبة يعمدون لسد الثغرات التي تعترضهم باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس كقولهم: ألا، وإن، هذا، بقي، لننتقل، قلنا.

2 - موضوعات تجمع بين معاني مختلفة، قيلت في ظروف مختلفة، وأزمان متباعدة كتلك التي تجمع في السورة الواحدة بين آيات كانت تتنزل مفرقة بحسب الظروف والمناسبات وكالسور التي تجمع جنبا إلى جنب بين آيات مكية وآيات مدنية، فالجمع بين مثل هذه المعاني المختلفة التي يفصل بينها فارق زمني كبير هو من العسرة بحيث لا يجرأ أي بليغ أن يدعي القدرة عليه[1].

ثالثا: ما يجعل هذا الأمر يخرج تماما عن حدود الطاقة البشرية وهي الطريقة التي اتبعت في ترتيب الآيات القرآنية فالرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرتبها حسب ترتيبها النزولي كما يقتضي بذلك المنطق البشري، وإنما كان كلما نزلت عليه آية أو آيات يؤمر بوضعها في المكان المخصص لها من السورة التي تخصها مما يبين أنه كانت هناك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها، بل من قبل أن تخلق أسبابها، بل من قبل أن تبدأ الأطوار المهدة لحدوث أسبابها فإن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم، فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة، آخرا أو أولا، ثم وجد عنه ابد الدهر مصرفا ولا متحولا[2] ثم أتبع تحليله النظري بدراسة تطبيقية على سورة البقرة.

8 - جلال الربوبية:

هذا المظهر هو أهم المظاهر جميعًا في التمييز بين القرآن الكريم وبين الكلام البشري، اقرأ أي كتاب شئت، لأي كاتب تريد، واقرأ بعد ذلك القرآن الكريم فستجد الفرق بينهما واضحا بين شخصية المتكلم في كل منهما ستجد في الأول الإنسان يتكلم، إما معبرا عن احساساته أو أفكاره أو تجاربه، وسواء أكان له تأثير في نفسك أو لم يكن له، فستجد فيه في كل صفحة من صفحاته الصفات البشرية بادية في ألفاظه ومعانيه، وستتعرف منه على قدر عقلك على شخصية صاحبه، ومستواه الثقافي، ومزاجه، وميوله، واتجاهاته.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص143، 144، 145.

[2] - المصدر نفسه، ص150، وما بعدها.

أما في القرآن الكريم فستجد المتكلم هو الله جلّ جلاله، خالق السموات والأرض، المالك لكل شيء الذي وسع كرسيه السموات والأرض، والقادر على كل شيء الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون والعالم بكل شيء الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والذي يسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن. ومظاهر ألوهيته تظهر في كل سورة من السور بل في كل آية من آياته...

والكلام في هذا المظهر حديث، لم يتكلم عليه الأقدمون كوجه من وجوه الإعجاز، وإنما هناك فقط من أشار إليه بإيجاز ضمن بيان روعة النظم القرآني المميز عن الكلام البشري مثل الباقلاني قال في الإشارة إلى هذا المظهر في الآية "فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ"[1] قف على هذه الدلالة وفكر فيها وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة تعلم ورودها عن الإلهية ودلالتها على الربوبية وتتحقق أن الخطب المنقولة عنهم (أي البلغاء) والأخبار المأثورة في كلماتهم الفصيحة من الكلام الذي تتعلق به الهمم البشرية وما تحوم عليه الأفكار الآدمية، وتعرف مباينتها لهذا الضرب من القول. أي خاطر يتشوف إلى أن يقول: "يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ" وأي لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا الغور؟ وأي فصيح يهتدي إلى هذا النظم؟"[2].

9 - التصوير الفني في القرآن الكريم:

وهذا المصطلح كان شائعا عند القدماء، وإنما كانوا يستعملون مكانه مصطلحات التشبيه، والاستعارة، والتمثيل والمجاز ولا يعني هذا أن مصطلح التصوير لم يخطر ببالهم تماما بل هناك من تكلم عنه كلاما دقيقا مثل الباقلاني قال: "وتصوير ما في النفس وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه، وكأنك مشاهده وإن كان قد يقع بالإشارة ويحصل بالدلالة والأمارة كما يحصل بالنطق الصريح، والقول الفصيح فللإشارة أيضا مراتب وللسان منازل ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته لا خلف فيه ورب وصف يربو عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه.

ثم إذا صدق الوصف، انقسم إلى صحة وإتقان، وحسن وإحسان، وإلى إجمال وشرح واستيفاء وتقريب، وإلى غير ذلك من الوجوه.

---

[1] - غافر: 14، 15، 16.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص212.

ولكل مذهب وطريق، وله باب وسبيل: فوصف الجملة الواقعة. كقوله تعالى: "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا"[1] والتفسير كقوله: "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا"[2] إلى آخر الآيات في هذا المعنى.

وكنحو قوله: "يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ"[3] هذا مما يصوّر الشيء على جهته، ويمثل أهوال ذلك اليوم.

ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة، كقوله حكاية عن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا: "قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ"[4].

وتقصي أقسام ذلك مما يطول، ولم أقصد اقتفاء ذلك، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل، وأشرت إليك بما أشرت لتتأمل"[5].

إن من ينعم النظر في تعريف الباقلاني للتصوير الفني في القرآن الكريم يجده متأثرا بحسن دلالة الكلام على معناه في صورة بارعة من التعبير.

وهذا التعريف الدقيق للتصوير الفني يكاد يكون ترجمة لما ذكره المتقدمون عليه، ثم نراه يذكر آيات من القرآن الكريم يوضح فيها حسن التصوير بطريقة مجملة، وبالنظر في هذه الآيات التي أتى بها الباقلاني نجد أنه يسير على طريقة الرماني في النكت. وهذا المعنى لا يؤثر في جهد الباقلاني، ولم يقلل ذلك من شأنه.

بينما نرى عبد الله دراز يعرض التصوير الفني وهو يتكلم عن تفاضل اللغات من حيث هي بيان فقال: "إنما اللغة ألفاظ من حيث هي أداة لتصوير المعاني، ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أولا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالا؛

---

(1) – الكهف: 18.

(2) – الكهف: 47.

(3) – الحج: 1، 2.

(4) – الشعراء: 50، 51.

(5) – إعجاز القرآن، للباقلاني، ص251، 252.

وأن يكون هدى أو ضلال ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقصر في بلاغتها عن سائر كلامه لأنها تصف ما في أنفسهم على أتم وجه"[1].

وبعد هذا يفهم أن العلمين: الباقلاني وعبد الله دراز قد اتفقا في تحديد مدلول كلمة البيان وهو: حسن دلالة الكلام القرآني على معناه في صورة بارعة من التعبير الفني ومطابقته لمقتضى الحال.

10 - النغم الموسيقى في القرآن الكريم:

استخدام لفظ الموسيقى في الدراسة القرآنية حديث ومن الذين استخدموه على سبيل الذكر لا الحصر الرافعي، وسيد قطب والبوطي، ومحمد عبد الله دراز...

هذا ومن أقوى المظاهر المميزة للقرآن الكريم لحنه الغريب المميز عن جميع الألحان الأخرى ومما يشهد على ذلك أنك لا تجد كلاما آخر يمكن أن يتلى بما يشبه التلحين كما يتلى القرآن الكريم، ولا يتكرر عليك لحن من الألحان إلا وتمل سماعه، أما القرآن الكريم فلا تمله أبدا لأن له تأثير عجيب وقد شهد بذلك غير المسلمين والأمثلة على ذلك كثيرة وقد تقدم البعض منها هذه أمثلة أخرى:

روي أن نصرانيا مر بقارئ فوقف يبكي فقيل له: م بكاؤك؟ قال الشجا والنظم[2]

وقد شهد بتأثير لحنة الغريب أجانب لا يفهمون العربية مثل تلك الفتاة اليوجوسلافية التي جمعتها الصدفة بسيد قطب في سفر على ظهر سفينة فسمعته يقرأ القرآن ففاضت عيناه من لحنه الغريب قال في معرض تفسيره لقوله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ"[3] واصفا ما يتميز به الأداء القرآني "على إثر خطبة ألقيتها على نفر قليل من المسلمين بمناسبة يوم الجمعة جاءت إلينا يوجوسلافيا مسيحية وعيناها تفيض من الدمع، وشدت على أيدينا بحرارة وقالت في إنجليزية ضعيفة: إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا وما فيها من خشوع ونظام وروح... وأضافت تقول: إن اللغة التي تحدث بها قسيسكم الإمام ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها شيئا، ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه، إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن الإمام كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر، غير بقية كلامه، نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعا هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فِيَّ رعشة

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص106، 107 بتصرف.

[2] - الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، ص249، دار الكتب العلمية (دت).

[3] - يونس: 38.

وقشعريرة، إنها شيء آخر، كما لو كان الإمام مملوء من الروح القدس- حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها- وفكرنا قليلا ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة، وفي أثناء الصلاة، وكانت مع ذلك مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة من سيدة لا تفهم مما نقول شيئا[1].

هذا ويختلف النغم الموسيقي في القرآن الكريم من سورة إلى أخرى، وقد يختلف في سورة واحدة تبعا للانتقال من موضوع إلى موضوع آخر وعناصره هي حسب ما يفهم من كلام الأقدمين والمحدثين في الموضوع : التلاؤم بين الحروف، النسق الصوتي، التجانس بين الكلمات، الفواصل، الموازنة.

- "فالتلاؤم عند الباقلاني هو تعديل الحروف في التأليف وهو نقيض التنافر.

وبين فائدته بقوله: والتلاؤم: حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب وذلك كالحظ الحسن والبيان الشافي، والمتنافر كالحظ القبيح، فإذا المضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع وبصيرا بجودة الكلام".

واعتبر القرآن كله في الطبقة العليا من التأليف: وقال: "قالوا: (ويقصد الرماني) والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كله..."[2].

ومن الذين ذكروا هذا الوجه أيضا الرافعي، قال: "إن حروف القرآن تتراءى في كلماته، وكلماته في جمله ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها... ولو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا، أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئيّ لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا وبعضها عرضا وذهب ما بقى منها إلى جهات متناكرة"[3].

- النسق الصوتي، المراد به التوزيع العادل المتناسب بين الحركات والسكنات، وبين المدّات والغنات وبين مواضع الاتصال والوقف، ولهذا النسق تاثير عجيب، وهو الذي يعطي القرآن لحنه الغريب المميز له عن سائر الألحان الأخرى.

---

[1] - في ظلال القرآن، سيد قطب، ج11، ص1786، الطبعة 11، دار الشروق، بيروت، 1405هـ، 1985م.

[2] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص272. وانظر أيضا النكت في إعجاز القرآن للرماني، ضمن ثلاث رسائل ص95، 96.

[3] - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص214، 217.

ومن الذين ذكروا هذا الوجه الرافعي، قال: "لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، ومساوقة لها في النظم الموسيقى حتى أن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان؛ فلا تعذب ولا تساغ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحروف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة"[1].

ومنهم محمد عبد الله دراز ذكر بتعبير يدعو فيه القارئ إلى الاستماع إلى القرآن للتحقق من أنه بإزاء لحن غريب متنوع متجدد، لا يمل كما يمل الشعر إذا كرر، والموسيقى إذا أعيدت، لأن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيما منوعا يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت وتهادي النفس فيه آنا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حد الإسراف في الاستهواء ثم إلى حد الإملال في التكرير فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منثور كلامها سواء منه المرسل والمسجوع بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب تغض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه... ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدا في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره وينفذون بها إلى بعيد غوره "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"[2][3].

– التجانس بين الكلمات: وهو أن يتشابه اللفظان في النطق، ويختلفان في المعنى وهو نوعان: تام وهو ما اتفق فيه اللفظان في نوع الحروف وعددها، وشكلها، وترتيبها، وغير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في أحد الأمور الأربعة السابقة.

---

(1) – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، ص227.

(2) – الحجر: 09.

(3) – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص102، 104.

وهو يكسب الكلام ائتلافا وانسجاما في النغم، ويجعل له وقعا موسيقيا مؤثرا في الأسماع، ويزيده حسن بيان.

وقد اعتبره الباقلاني وجها من وجوه البلاغة قال: التجانس هو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد وهو على وجهين: مزاوجة، ومناسبة، فالمزاوجة تقع في الجزاء كقوله تعالى: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ"[1].

أما المناسبة فهي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد كقوله تعالى: "يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ"[2][3].

وقد اعتبر ابن أبي الأصبع المصري هذا الباب من الأبواب المقصودة في القرآن ومن الأدلة التي استشهد بها قوله تعالى "وَجَزَآؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا"[4] قال: السيئة الثانية ليست بسيئة وإنما هي مجازاة عن السيئة، سميت بإسمها لقصد المزاوجة وقوله تعالى: "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ" قال: سمى سبحانه جزاء الاعتداء اعتداء ليكون في نظم الكلام مزاوجة[5].

- الفواصل: وهي كلمة آخر الجملة كالقافية بالنسبة للشعر، والقرينة بالنسبة للسجع وهي عند الباقلاني حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى والفواصل تابعة للمعاني[6].

ومن فوائدها أنها تكسب الكلام ائتلافا وانسجاما في النغم، وتجعل له وقعا موسيقيا رتيبا في الأسماع، وتزيده حسن بيان.

---

(1) - البقرة: 194.

(2) - النور: 37.

(3) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص273. وانظر أيضا، النكت في إعجاز القرآن للرماني، ص99، 100.

(4) - الشورى: 40.

(5) - بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، ص28.

(6) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص273.

ولها أهمية كبيرة في القرآن الكريم فهي مما يراعي فيه ويقدم، وهي مظهر عام في القرآن تكاد لا تخلو منه سورة من السور، وهي متنوعة تختلف من حيث الطول والقصر، فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومنها المؤلف من كلمتين ومنها المؤلف من أكثر من ذلك وقد تزيد على العشرين كلمة.

وقد قسمها علماء البديع إلى ثلاثة اقسام:

1 – قصيرة: وهي ما كانت مكونة من ألفاظ قليلة مثل "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا"[1]

2 – متوسطة: وهي ما دون العشر مثل "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ"[2].

3 – طويلة: وهي ما زاد على ذلك مثل "وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْانْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ"[3].

4 – وقد تزيد على العشرين لفظة مثل "إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ"[4][5].

– الموازنة: وتسمى أيضا بالازدواج وهي أن تأتي الفاصلة متوافقة مع نظيرتها السابقة في الوزن وهي تجعل الكلام أكثر ائتلافا وتماثلا، وأكثر تأثيرا في النفس وتزيده حسن بيان.

وقد اعتبر الباقلاني الموازنة ضرب من البديع فقال: ويعدون من البديع الموازنة وذلك كقول بعضهم: اصبر على حر اللقاء، ومصص النزال، وشدة المصارع.

---

[1] – المرسلات: 1، 2.

[2] – القمر: 1، 3.

[3] – هود: 9، 10.

[4] – الأنفال: 43، 44.

[5] – المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر ابن الأثير ضياء الدين ج1، ص336، تحقيق أحمد الحوفي ود. طبانة، ط، دار النهضة، مصر، 1959م.

ونظيره من القرآن: "وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَومِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمشْهُودٍ"[6][7].

والخلاصة التي يمكن الخروج بها هي أن الباقلاني وعبد الله دراز على الرغم من الفوارق الزمانية والمكانية الفاصلة بينهما إلا أنهما استطاعا أن يتفقا في كثير من المواطن ويختلفا اختلافا طفيفا وذلك يرجع إلى طبيعة عصر كل منهما ولكن الفضل في ذلك يعود إلى سبق الباقلاني الذي مهد الطريق لكل المتأخرين في هذا المجال، ومنهم محمد عبد الله دراز الذي تناول كل هذه المسائل التي أثارها الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" بالدراسة والتحليل العلمي الموضوعي وكشف عن مكنونها وأضاف إليها جديدا من ثقافة عصره.

والحقيقة أن ما ذهب إليه الباقلاني وعبد الله دراز في دراستهما للإعجاز البياني صحيح لا يقبل الجدل. وقد اتفقا على حقيقة مطلقة هي أن هذا الإعجاز القرآني إنما يدوم ويستمر استمرار الدهر، وصالح لكل زمان ومكان، وإن كان هنالك تفاوت أو اختلاف فليس محله النظم أو الأسلوب القرآني وإنما موطنه في الأغراض والمقاصد لأن هذه الأغراض وتلك المقاصد خضم زاخر في الكتاب الكريم الذي وصف أحوال النفس الإنسانية وبين نظام الحياة وقواعد الآداب والسلوك وأصول الإيمان بالله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله وكرر أصناف الثواب وأنواع العقاب إلى غير ذلك من الأغراض المختلفة التي نحاول إحصاءها في هذا المجال.

---

(6) -البروج: 1، 3.

(7) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص112.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خلاصة الموازنة

بين الباقلاني وعبد الله دراز منهجا وأسلوبا

خلاصة الموازنة بين الباقلاني وعبد الله دراز منهجا وأسلوبا:

إذا أردنا أن نوازن بين العلمين: الباقلاني وعبد الله دراز في المنهج البلاغي فلا بد أن نوازن بينهما في عدد من النقاط ليتضح المنهج البلاغي لكل منهما. وسنذكر هذه النقاط فيما يلي:

- **الأولى: الأسلوب**[1]:

كان لكل من الباقلاني وعبد الله دراز منهجه الخاص الذي تميز به كما كان لكل منهما أسلوبه الذي سار به في تناوله البلاغة.

فأسلوب الباقلاني: يمتاز بأنه أسلوب جدلي كلامي، وذوقي تأثيري تغلب عليه النزعة العقلية الإستلالية والفنية، مما يدل على امتلاكه ناصية الجدل من ناحية وناصية البيان من ناحية أخرى فقد استطاع أن يبطل كل شبهات الطاعنين في القرآن الكريم، ويسترسل في تقرير خصائص النظم القرآني وأسلوبه، ودفع الشبه عنها وإقامة الحجج على صحتها، فكان يعرض الفكرة عرضا هادئا ويقلب الأمر على وجوهه حتى يصل إلى النتيجة التي يهدف إليها بأسلوب عقلي منطقي، وذوقي فني، الأمر الذي يدل على أن الباقلاني رجل متضلع في اللغة عارف بطرائق استعمالاتها فوق ماله من ثقافة واسعة تتناول جميع صنوف المعرفة التي كانت شائعة إلى عهده.

أما أسلوب عبد الله دراز: فهو أسلوب العالم الأديب الذي لا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالم فجاء أسلوبه وسطا، إلا أنه اقتفى أثر الباقلاني في منهجه وتأثر به جملة وتفصيلا.

- **الثانية: الموازنة بين المترجمين**:

سبق عند الحديث عن الباقلاني وبيان منزلته العلمية، أن بينت منهجه في كتابه "إعجاز القرآن" وأشرت إلى سبب تأليف الكتاب من أنه ألفه لخدمة الدين والعقيدة وإثبات أن بلاغة الكلام تكون في النظم وأن القرآن معجز بالنظم لا بالصرفة وكان منهجه فيه أنه يكرر ويعيد الحديث عن النظم ويكثر من الأمثلة والشرح ليقرب الفكرة ويوضحها، ويقنع بها الناس مع ذكر الدليل تلو الدليل في وضوح لإثبات أن القرآن معجز في نفسه، وأنه معجز في كل زمان ومكان.

---

[1] - الأسلوب في الأدب : هو الطريقة التي انفرد بها المؤلف في تأليف كلامه واختيار ألفاظه. وبتعبير آخر: هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه. التعبير الفني في القرآن الكريم بكري شيخ أمين، ص179، 180.

ويناقش مذهب القائلين بالصرفة ويحاورهم ويبطل حججهم بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن الكريم والشعر الرصين. وكان لا يترك فكرة إلا حللها تحليلا دقيقا وربما عاد إليها مرة ثانية بالتحليل والتوضيح مؤيدا كلامه بالحجج النيرة والبراهين الساطعة يمده في ذلك ثقافته الواسعة وخبرته الدقيقة بالأساليب الكلامية واللغوية والبلاغية والأدبية وذوقه الرفيع المدرب وبذلك استطاع أن يتبت بما لا يدع مجالا للشك أن سبب إعجاز القرآن هو النظم، وأن البلاغة كامنة فيه ونابعة منه.

ولاهتمامه بالنظم جعله محور الدائرة لكتابه هذا "إعجاز القرآن" وجعل مسائل البلاغة التي أوردها دائرة حوله، ومتفرعة عنه وكلما عنّ له فصل يؤيد النظم أثبته أكان من البديع أم من البيان... وغيرها. وهذا هو السر في عدم الترابط في "إعجاز القرآن" كما يراه بعض النقاد[1].

والواقع أن الباقلاني في "إعجاز القرآن" لم يكن كما قال بعض النقاد، لأن كتاب "إعجاز القرآن" كله موضوع واحد، أو فكرة واحدة وقد أجملها في مقدمة كتابه وهي دراسة النظم القرآني نلمس ذلك من قوله "ليعرف عظيم محل القرآن، وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمل".

هذا وتجدر الإشارة في مقام تحديد الباقلاني لمجهوده إلى قوله "ونحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا، ونشير إليه ولا نبسط القول لئلا يكون ما ألفناه مكرّرا ومقولا، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة"[2].

إذن هو يريد أن يثبت أن إعجاز القرآن بنظمه ثم شرع يبرهن على هذه الفكرة في الكتاب كله متخذا لذلك وسائل مختلفة منها عرض النصوص وتحليلها بأسلوب أدبي رفيع حيث إنه من رواد المدرسة الأدبية، ومنها الجدل العقلي والمنطق السليم للرد على شبه المعاندين حيث إنه من رواد المدرسة الكلامية. ويبرهن على فكرته ووضوحها، كما أنه جمع في كتابه هذا بين النزعتين الكلامية والفنية وكانت النزعة الكلامية تظهر بوضوح حينما يناقش ويفند الآراء فنراه يكثر من قوله: "إن قلتم... قلنا" و "فإن قيل ... قيل له" و"كيف لا يكون الأمر كذلك مع أنه كذا وكذا..." ونحو ذلك من العبارات التي تردد في نقاشه، وهي تدل على تمكنه مما يقول كما تدل على غزارة علمه وثقافته الواسعة، وكان لكتابه "إعجاز القرآن" أثر واضح في الدراسات القرآنية البلاغية وأكبر دليل على ذلك أن عبد الله دراز اتخذه أساسا في كتابه النبأ العظيم، لأنه استوعب ما

---

(1) - الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف، ص528.

(2) - "إعجاز القرآن" للباقلاني. ص 28

كتبه الباقلاني واستنتج منه نظرية نظام عقد المعاني في السورة القرآنية ثم طبقها على أطول سورة في القرآن الكريم - سورة البقرة -

وقد وفق الباقلاني في إبراز خصائص النظم القرآني وتوضيحها، كما استطاع الكشف عن الروح الإلهية التي تسري في جملة القرآن، والتي يمكن أن نسميها الأسلوب أو العلاقات أو وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب. وكانت دراسته في إعجاز القرآن من أروع الدراسات البلاغية، والنقدية ومن أحسن ما كتب فيها حيث كانت له تقسيمات ونظرات صائبة فكان يعرض الفكرة وتحليلها تحليلا دقيقا بعيدا عن المناقشات التي ليس لها نتيجة عملية إذ كانت مناقشاته تهدف إلى استخلاص الحقيقة والوصول إليها والإكثار من الأمثلة لتوضيحها.

فهو بحق ذو شخصية قوية مستقلة يعرض آراءه في ثقة واطمئنان بأسلوبه الخاص الذي يتميز به عن سائر العلماء.

أما عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم" الذي ألفه لغرض ديني ومسألة تتعلق بإعجاز القرآن ولغاية بلاغية فقد كان حريصا في منهجه البلاغي على بيان النظرات الجديدة في القرآن الكريم ووضع خصائص بيانية. وهذا يساعد على معرفة أسرار النظم القرآني وكانت فكرة الكتاب واضحة المعالم وقد أحملها في مقدمته بقوله "أردت أن أنعت كتاب الله بحليته وخصائصه وأن أرفع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته"[1] متلمسا صورها بروح الناقد الأديب فقد بدأ دراسته بالبحث في تحديد معنى النظم وبيان مصدره ثم البحث في جوهره نفسه عن حقيقة مصدره من أول الجمال الصوتي للفظ القرآني ثم البيان القرآني وخصائصه التي أمتاز بها عن سائر الكلام سواء في الفقرة التي تتناول شأنا واحدا أو في السورة التي تتناول شؤونا شتى أو فيما بين سورة وسورة أو في القرآن جملة، وتناول كل ذلك بالشرح والتحليل. وذكر الأدلة والبراهين ولقد بين وجهة نظره في أسلوب القرآن على أنه هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها من القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى وخطاب العامة وخطاب الخاصة وإقناع العقل وإمتاع الوجدان، والبيان والإجمال مؤيدا ذلك بالأدلة الكثيرة والشواهد القرآنية الوفيرة.

وكان عبد الله دراز واضحا في منهجه حيث يقرر الحقائق ويقيم عليها الأدلة والبراهين معتمدا على ثقافته الأدبية ودراسته الكلامية - العلمية - في عرضه للمسائل وكان يستشهد بأقوال الباقلاني في تحليله النصوص وعرضه القضايا البلاغية.

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص09، وما بعدها.

وكان عبد الله دراز أمينا في نقله من غيره من العلماء، وأن ما ذكره في هذا الكتاب من القضايا والمسائل البلاغية إنما ذكره ليوضح ويؤصل فكرة الباقلاني ويدافع عنها ويبرهن عليها بفكر جديد وهي أن القرآن لا يتفاوت نسجه ولا تختلف درجة البلاغة فيه وإنما يجري على مستوى واحد من أوله إلى آخره، وإنما التفاوت في صناعة هذا النظم البشري استنادا لما يراه علماء الكلام من أن البشر يعتريهم النقص في جميع أحوالهم وأقوالهم.

ولهذا استحق كتابه أن يوصف بأنه أثر من أنفس الآثار البيانية لأنه خلاصة مركزة ودراسة منظمة لعناصر الجمال القرآني مع آراء سديدة في النقد والبلاغة تدل على تبحر وسعة إطلاع ورأي منظم وعمق في التفكير الأدبي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الثالثة: التشابه والاختلاف في بعض الموضوعات البلاغية:

بعد أن وازنا بين العلمين في الأسلوب وفي المنهج البلاغي الذي ظهر في بحثيهما من خلال كتبهما يجدر أن نبين بعض ما بينهما من تشابه أو تباين في بعض الموضوعات جاء بسبب طبيعة البحث البلاغي لكل منهما وهذه الموضوعات هي:

أ - أن الباقلاني في بحثه البلاغي لم يهتم كثيرا بفكرة البديع باعتبارها أساسا لبلاغة القرآن وإنما اختار طريقة النظم والتأليف وقد هاجم من ارتكز على فكرة البديع فقط حيث قال: "وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه"[1].

فالباقلاني لا يعد البديع سبيلا لإثبات الإعجاز، لأن المرء يمكنه أن يتوفق فيه وأن يحذقه إذا تدرب عليه وتفرغ له، وإن كان البديع يدل على البراعة والصنعة ويمكن الاستدلال به على إعجاز القرآن.

ونرى الباقلاني يقول: "والوجوه التي تقول: إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال".

وذهب إلى أن كتاب الله معجز لأنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطابهم[2] فالقرآن ليس سجعا، ولا شعرا وليس خطابة ولا جاريا مجرى الرسائل رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه وهو متناسب لم يطرأ عليه الاختلال أو الاختلاف أو التكلف رغم طوله وكثرة سوره وآياته وإنما كان على حد سواء من جنس النظم وبديع الرصف.

أما الشاعر فيتفاوت شعره بحسب الأحوال فهو بارع في معنى ومقصر في معنى آخر وكذلك نرى الاختلاف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

إن وجوه العرب وفصحائهم سلموا بتقديم القرآن في الفصاحة والبلاغة وأظهروا العجز عن معارضته ووصفوه بالحلاوة والطلاوة.

---

[1] - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص128.

[2] - المصدر نفسه، ص59.

والباقلاني لا يغفل فصاحة الكلمة حين يرد الإعجاز إلى النظم، فللكلمة ذاتها فصاحة ووقع خاص ورنة عالية أو هامسة يقول: "وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غرّة جميعه، وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله"[1].

كما أنه يرد على الرماني قوله في أن بلاغة القرآن تقع بوجه من الوجوه العشرة التي ذكرها لأقسام البلاغة فالتشبيه عند الباقلاني ليس معجزا ولا التجنيس ولا المطابقة وإنما الإعجاز للألفاظ والنظم والتأليف[2].

والإعجاز عنده يعود إلى النظم وتأليف الكلام، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن الكشف عن وجوه البديع وصور البيان وسيلة لإدراك حسن النظم والتأليف، فإذا تعلم المرء البلاغة ووقف على أسرارها، وتذوق حلاوتها يساعده ذلك على إدراك إعجاز القرآن الكريم مع سهولة كلمة وجزالتها وعذوبتها وسلاستها.

بينما قضى عبد الله دراز شوطا كبيرا في كتابه "النبأ العظيم" في الحديث عن الطريق التي جاء منها القرآن الكريم والبحث في جوهره، وبدأ بالناحية اللغوية باعتباره معجزة لغوية فقال: "إنما اللغة ألفاظ من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات، ومن حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه الناحية لاشك أنها هي أعظم الناحيتين أثرا في الإعجاز اللغوي، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام"[3].

ب - عالج عبد الله دراز لب البيان القرآني وخصائصه التي امتاز بها عن سائر الكلام واثبت أن اسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين أطرافها. فقد أثبت أن القرآن إيجاز كله سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله، وليس فيه كلمة مقحمة فقال: "إن القرآن الكريم يستثمر دائما برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني، أجل تلك ظاهرة بارزة فيه كله يستوي فيها مواضع اجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجازا كله؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف ميلا ما ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى بأقل من الفاظه ولا بما يساويها، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى"... إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هي الوسط

---

(1) - إعجاز القرآن الكريم، للباقلاني، ص67.

(2) - المصدر نفسه، ص276.

(3) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص106.

المعتدل، وهي الفضيلة الوحيدة التي تواصى بها البلغاء في كل مقام بحسبه. غير أنه ليس للإنسان ما تمنى فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قربا وبعدا، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته، وإنما أتى عليها القرآن الحكيم فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز. كيف لا وهو حد الإعجاز"[1].

جـ - تعرض كل منهما للفصل والوصل في الكلام:

فالباقلاني يرى "أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره والخروج من باب إلى سواه؟... وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء والتحول من باب إلى باب ونحن نفصل بعد هذا وتفسر هذه الجملة ونبين أن القرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة"[2].

أما عبد الله دراز فيرى أن صنعة البيان في الانتقال من معنى إلى معني أشق منها في التنقل بين أجزاء المعنى الواحد فيقول مستشهدا بقول الباقلاني: "فالشعراء حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة أكثر ما يجيئون بها أشتاتا لا يلوى بعضها على بعض وقليلا ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض. كما في الانتقال من النسيب إلى المديح... هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعا والهوة بينها أعظم اتساعا؟

فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه حيث الموضوع واحد بطبيعته فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز"[3].

ورأي عبد الله دراز أدق لما في ذلك من الفائدة والتبسيط وإن كان قد فصل ووضح قول الباقلاني الذي يرجع الفضل إليه ولاشك في ذلك.

---

(1) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص127، 130.

(2) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص62.

(3) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص143، 144.

ومما تجدر الإشارة إليه ونحن في مقام الموازنة بين العلمين في المنهج البلاغي أن نتناول إتماما للفائدة المنحى التطبيقي لكل منهما من حيث الاستشهاد بالنصوص القرآنية والنبوية والعربية - كما وكيفا - وطريقة معالجة النص:

ففيما يتعلق بالاستشهاد نوضحه فيما يلي:

أولا: استشهاد بالنصوص القرآنية:

عندما يتناول كل واحد منهما مسألة بلاغية بالبحث والدراسة نراه غالبا يبرهن على رأيه فيها ببعض النصوص القرآنية. وقد تتفق وجهة النظر بينهما وتختلف. ومن هذه النصوص:

1 - قوله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ"[1].

ذكر كل من الباقلاني وعبد الله دراز هذه الآية إلا أن نظرة كل منهما تغاير نظرة الآخر، فالباقلاني ذكرها ليدلل على شرف هذا النظم، وبديع هذا التأليف وعظيم هذا الرصف كل كلمة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع. لا يتفاوت في شيء ولا يتباين في أمر ولا يختل في حال بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى[2] فهو أشرف بيان وأهداه وأكمله وأعلاه وأبلغه وأسناه تأمل قوله تعالى نهاية في الحجاج[3].

بينما نجد عبد الله دراز قد ذكر هذه الآية ليدلل على بلاغة القرآن بسمو نظمه وعلى ارتباط كلماته بعضها ببعض، وقد حللها تحليلا دقيقا ينم عن خبرته الواسعة بأساليب نظم الكلام بعضها ببعض، فبين أن الذين يبهرك من هذه الآية أمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض. وقد عرض لها الحسن والمزية من حيث لاقت الكلمة الأولى بالثانية والثانية بالثالثة وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها. ويستمر في تحليلاته لها مبينا أن مبدأ العظمة في أن جمعت بين قوة اقناع العقل وقوة إمتاع العاطفة حيث خاطب القارئ بالتأمل فيها بقوله: "أنظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة، بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ووضح المقدمات المسلمة ودقة التصوير لما يعقب التنازع من (الفساد) الرهيب فهو برهاني خطابي شعوري معا هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية؟"[4].

---

(1) - الأنبياء: 22.

(2) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص214.

(3) - المصدر نفسه، ص283.

(4) - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص116.

2 - قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"[1].

عرض الباقلاني هذه الآية الكريمة عندما سئل هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما يتضمنه من البديع، قيل: ذكر أهل الصنعة ومن صنف في هذا المعنى من صفة البديع ألفاظا نحن نذكرها ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين وباب مقرر وباب مصور. وقد يكون البديع من الكلمات الجامعة الحكيمة قوله: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"[2].

وذكرها عندما كان يبين أن من البديع ما يسمونه المطابقة فقال: ويرون من البديع أيضا ما يسمونه المطابقة وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضده كالليل والنهار، والسواد والبياض وإليه ذهب الخليل بن أحمد الأصمعي، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز وذكر ابن المعتز من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم: أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان ونظيره من القرآن "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"[3].

وذكرها عندما كان يبين أن الإيجاز هو أن يأتي باللفظ القليل الشامل لأمور كثيرة، وينقسم إلى حذف وقصر، والإيجاز بالقصر كقوله: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"[4].

أما عبد الله دراز فقد عرضها عندما كان يبين أن القرآن الكريم إيجاز كله فقال: "لما كان هذا اصطلاحا جديدا نخالف به مصطلح القوم لم نر بدا من إيضاح سبب المخالفة: قسم علماء البلاغة الكلام إلى "مساو" و "موجز" و "مطنب" وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره والإيجاز بأنه أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به، والإطناب بأنه أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة وجعلوا المقياس الذي يضبط به هذا التقسيم أمرا عرفيا أو وضعيا: فاعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم، هو ضابط المساواة. وهو القدر الذي لا يحمد منهم ولا يذم في باب البلاغة، فما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب، والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين هذا محصول كلام السكاكي. وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالة، فجعل حد المساواة هو المقدار الذي يؤدي المعاني الأولية بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى.

---

(1) - البقرة: 179.

(2) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص92.

(3) - المصدر نفسه، ص105.

(4) - المصدر نفسه، ص268.

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقياسين المتحدين في الحال. أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدى بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائما بين الإطالة والاختصار. وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع:

أما الأول فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وبالمختصر تارة أخرى، وإن لم يتحروا إصابة المحز في كل منها.

وأما الثاني فلأن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأول مختلف، فمنه ما يؤديه بوجه مجمل ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل. وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتا كثيرا، فلا ينضبط منهما قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والإطناب، إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه وإن لم يغن غناءه ولم يوف وفاءه، حتى المثل الذي عدوه علما في الإيجاز وهو قوله "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ" يمكن تأدية أصل معناه بقولك "انتقم تسلم" أو "اقتص تحي" أو بالاكتفاء بكلمتين منه "القصاص حياة".

لهذا كله رأينا أن نضع التقسيم وضعا آخر نرد فيه الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط. ونرجع فيه الذم إلى الطرفين، وذلك يجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدي به المعنى بأكمله، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل، بغير إجحاف ولا إسراف. هذا القدر الذي من نقص عنه أو زاد عنه البلغاء حائدا عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد هو الميزان الصحيح الذي لك أن تسمى طرفيه بحق تقصيرا أو تطويلا، وأن نسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت فسمه ونحن قد سميناه أيضا باسم "الإيجاز" مطمئنين إلى صحة هذه التسمية.

إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هي الوسط المعتدل وهي الفضيلة الوحيدة التي تواصى بها البلغاء في كل مقام يحسبه، غير أنه ليس للإنسان ما تمنى فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قربا وبعدا، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته، وإنما أتى عليها القرآن الكريم الحكيم فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز، كيف لا وهو حد الإعجاز"[1].

وإن كان معظم العلماء قد سبق إلى تحليل هذه الآية الكريمة من جهة دلالتها على الإيجاز الذي هو من أعلى طبقات البلاغة ومقارنتها بما استحسن في هذا المعنى من قولهم "القتل أنفى للقتل" وتفوقها عليه من جهة البلاغة وتعليل هذا التفوق دليل على خبرتهم بالأساليب البلاغية وذكائهم اللماح وذوقهم السليم الذي

---

[1] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص128، 130.

يدرك خصوصيات التركيب إلا أن عبد الله دراز فقد حللها تحليلا دقيقا مدللا بهذا على ما أراد من دقة التعبير القرآني الذي لا يستطيع البشر مهما أوتوا من فصاحة وبلاغة أن يأتوا بمثله قال تعالى: "قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"[1].

وبعد، فهذا نموذج لآيتين قرآنيتين ذكرهما الباقلاني وعبد الله دراز وإن اختلفت أحيانا وجهة نظر كل منهما إلا أننا لا ننكر فضل الباقلاني وغيره من العلماء[2] الذين جاءوا من بعده فيما قدموه للبلاغة وللعلماء المتأخرين والباحثين من أمثال عبد الله دراز.

ثانيا: الاستشهاد بالأحاديث النبوية:

كذلك نرى أن كلا منهما يستشهد في بعض المسائل البلاغية بالنصوص النبوية وهي قليلة جدا عند عبد الله دراز كثيرة عند الباقلاني من ذلك:

أن الباقلاني عندما تحدث عن السجع واراد أن يبين أنه يذم إذا طلبه اللفظ استشهد بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين قال للذين جاءوه وكلموه في شأن الجنين: كيف نَدِيَ من لا أكل ولا شرب ولا صاح ولا استهل، أليس دَمُه قد يُطلّ؟ فقال: "أسجاعة كسجاعة الجاهلية وفي بعضها "أسجعا كسجع الكهان" فرأى ذلك مذموما لم يصح أن يكون في دلالته.

ويعلق الباقلاني على سداد رأيه بقوله: وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم وقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى[3].

بينما نرى عبد الله دراز يستشهد على حسن السجع وما فيه من تناسب الألفاظ مؤيدا قول الباقلاني فيما ذهب إليه، بقوله: كانت العرب تتمادح بالأمر يجيء طبعا لا تكلفا، ولم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - في شيء ما من المتكلفين بل كان أشد الناس كراهية للتكلف في الكلام وغيره. وكان يقول: "هلك المتنطعون" رواه مسلم وأبو داود والتنطع في الكلام التعمق فيه والتفاصح.

---

(1) - الإسراء: 88.

(2) - من أمثال عبد القاهر الجرجاني صاحب "نظرية النظم"، وابن سنان صاحب كتاب "سر الفصاحة".

(3) - إعجاز القرآن، للباقلاني، ص84، 85.

وانظر ذمه للرجل الهذلي حين خاصم في دية الجنين فقال: يا رسول الله كيف اغرم دية من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟ فمثل ذلك يطل أي يهدر دمه. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إنما هذا من أخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع، رواه الشيخان وغيرهما. وفي رواية: اسجع كسجع الأعراب؟ وفي أخرى: أسجع الجاهلية وكهانتها؟ فذم هذا النوع من السجع وهو ما كان كسجع الكهان مصنوعا غير مطبوع، وكان المعنى فيه تابعا للفظ وليس اللفظ تابعا للمعنى[1].

وقد علق كل من الباقلاني وعبد الله دراز على ما أتى به من قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في السجع ليبين وجهة نظره، لأنه لما كان المنطلق الأساسي لهما في النقد هو التركيز على النظم علق على الحديث الشريف بما يتفق ووجهة نظره حيث جعلا مناط الحسن استدعاء المعنى في الحديث للألفاظ وليس أساس الحسن السجع في حد ذاته.

ومن ينعم النظر في كتب العلمين يجد أن عبد الله دراز مقل في الاستشهاد بالأحاديث النبوية عن الباقلاني المكثر لها. لأن هناك موضوعات بلاغية تخلو منها أو تكاد. كما أنهما يحللان النصوص النبوية تحليلا يؤيدان به وجهة نظرهما.

ثالثا: الاستشهاد بالنصوص العربية:

أما استشهاد العلمين: الباقلاني وعبد الله دراز بالنصوص العربية - شعرا ونثرا فنجد أن استشهادهما يكاد يكون متشابها - ضمنيا - على الرغم من الإشارات الموجزة التي أشار إليها عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم.

ويمكن القول - بصفة عامة - إن الباقلاني عندما كان يستشهد بالنثر والشعر العربي على توضيح وجهة نظره في مسائله البلاغية يكون أكثر إيرادا للشواهد. كما يكون أكثر دقة وتحليلا لها من عبد الله دراز الذي اقتفى أثره في الدقة والتحليل دون الإكثار من الشواهد العربية كما يلاحظ أيضا أن الباقلاني كان يعتمد كثيرا في تحليلاته وطريقة معالجته للنصوص على النظم الذي استحوذ على تفكيره في المسائل البلاغية كما كان للذوق عنده اعتبار خاص عند معالجة هذه النصوص وبيان مراتب الجودة والجمال فيها.

أما عبد الله دراز وإن كان يعتمد أيضا في طريقة معالجته للنصوص - ضمنيا - على النظم والذوق إلا أنه لم يكن يعتمد عليها كثيرا مثلما فعل الباقلاني، لأن عبد الله دراز اعتمد بصورة أوضح في طريقة هذه المعالجة على التناسب والتلاؤم في صنعة البيان القرآني بقوله: "هل رأيت أو سمعت أن أحدا من الكتاب أو

---

[1] - النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص99.

الشعراء استطاع في مفتتح حياته الأدبية أن يحصي كل ما سيجيء على لسانه من جيد الشعر أو النثر في المناسبات المتنوعة إلى آخر عهده بالدنيا... ثم يطمع أن يخرج له بتلك الصنعة ديوان كامل التقسيم والتبويب جيد النسق والترتيب مترابط متماسك في جملته وتفصيله كلمة كلمة وحرفا حرفا فتلك أمنية لا يظفر المرء منها إلا بعكس ما تمنى.

ثم يقول: هاأنت ذا قد عرفت نهج التأليف الإنساني في صنعة البيان وغير البيان ورأيت بعد ما بينه وبين نهج التأليف في نجوم القرآن وعرفت ماذا كان يجب أن يحدث في النظم القرآني من جراء هذا النهج العجيب في أسباب ثلاثة: عناصر معنوية مختلفة، ظروف زمانية منفصلة، أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة. من شأنها ألا يستقيم بها للكلام طبع. ولا يلتئم له معها شمل... فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه؟ وعلى أي عين صنع نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله "قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ"[1][2].

---

[1] – الزمر: 28.

[2] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص152، 154.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة

وأخيرا يمكن أن نجمل النتائج المتوصل إليها في الدراسة في النقاط التالية:

- المعجزة القرآنية العظمى عقلية روحية بيانية خالدة متجددة تساير كل زمان ومكان، إنها الرسول الحي بعد نبينا - عليه الصلاة والسلام - فهي معجزة تخاطب الأرواح والعقول معا. ولذلك كانت مدارك الناس تتفاوت في تعليل وجوه الإعجاز فيها.. وسوف تبقى كذلك متفاوتة إلى يوم الدين.

- إن أغلب الأبحاث التي كتبها العلماء في الإعجاز منذ القرن الثالث الهجري إلى العصر الحديث كانت في الإعجاز اللغوي والبياني وهذا لإثبات أن القرآن معجز في ذاته لا يمكن لأي أحد أن يأتي بمثله.

- إن مفهوم الإعجاز القرآني قد خرج عن دائرة الإعجاز المقرون بالتحدي إلى الإعجاز بمعنى الدليل على كون القرآن من عند الله بغض النظر عن موضوع هذا الدليل بيانيا كان أم علميا أم تشريعيا أم تاريخيا... وبهذا ازدادت دائرة الإعجاز اتساعا بعد ضيق. وعليه فهي تبين لنا العودة إلى التراث اللغوي والبياني وفهم كنوزه على ضوء العلم الحديث وبذلك نتمكن من صدّ حملات الطاعنين في القرآن الكريم نظمه وأسلوبه.

- يعتبر الباقلاني أول من دعا إلى النظرة النقدية الشاملة وأول من اعتمد السورة القرآنية جزءا للانطلاق إلى دراسة القرآن كله، أي الانطلاق من الصورة الجزئية إلى الصورة الكلية. كما ركز على الألوان البديعية مع النظم والتأليف ولم ينظر إليها مستقلة منفردة.

- إن محمد عبد الله دراز قد وسع مفهوم النظم وكشف عن خصائصه البيانية وأثبت أن في القرآن وحدة ونظاما يجعلان منه عملا أدبيا رائعا متكاملا. ذلك هو اتساقه في جملته وائتلاف السورة منه ائتلافا بين فيه ترابط أجزائها. وبرهن على أن حسن تأليفه معجزة قرآنية أعظم من سائر المعجزات. ظاهرة بالبرهان بحيث لا ينكرها إلا مكابر.

- إن هدف الباقلاني من خلال جهوده في كتاب: "إعجاز القرآن" هو محاولة الوقوف على درجة التي يفارق بها القرآن سائر النصوص البشرية على الرغم من توفر البشر على الأدوات الأولية للموضوع الذي يمسه الإعجاز البياني، وهي درجة من السمو تحمل على الاعتراف بأن النص الموحى صياغة ومحتوى من عند الله تعالى.

- كما أن هدف محمد عبد الله دراز من خلال جهوده في كتاب "النبأ العظيم" هو محاولة الوقوف على الدرجة التي يفارق بها القرآن سائر النصوص البشرية على الرغم من توفر البشر على الأدوات الأولية للموضوع الذي يمسّه الإعجاز البياني والعلمي والتشريعي... وذلك على مستوى الآية القرآنية وهي درجة من السمو

تحمل على الاعتراف بـأن النص الموحى صياغة ومحتوى من عند الله تعالى، بالإضافة إلى معجزة المعجزات وهي ترتيب كل آية في كل سورة وفق وحدة موضوعية منسجمة منطقية منسقة.

- لقد رفض الباقلاني ومحمد عبد الله دراز منهج القدماء قبلهما في دراسة البلاغة الجزئية، واتفقا على أن البحث البلاغي الجيد إنما يكمن في دراسة وحدة نظمية متكاملة، هي بالنسبة للبلاغة البشرية ديوان الشاعر كله أو القصيدة الكاملة بالنسبة للشعراء وعمل الأديب كله أو الخطبة التامة أو الدراسة التامة أو... بالنسبة للأدباء الناثرين، وبالنسبة للبلاغة الإلهية القرآن الكريم كله، أو السورة القرآنية التامة على أقل تقدير، وأجادا عرض ما في النظم القرآني من انسجام وائتلاف بين الآيات على الرغم من تعدد أغراضها ومعانيها من الناحية النقدية، ومن ثم فنحن نعدهما ناقدين رائدين في عصريهما.

- يعتبر الباقلاني أول من اختار سورة كاملة وأدار عليها حديث النظم وأثبت أن الحكم الجمالي في القرآن يستفاد من ناحية النظر في الصلات التي تربط بين هذه الموضوعات المختلفة ذات الدلالات والمضامين المطلقة، وهذا المفهوم هو الذي اعتمد عليه الدكتور محمد عبد الله دراز حين طبق منهجه على نظم القرآن وأسلوبه في سورة البقرة بكيفية تختلف عما اعتمده الباقلاني نوعا ما حين طبق منهجه على نظم القرآن وأسلوبه في سورة النمل مع اتفاقهما من حيث وجهة النظر.

- أثبت الباقلاني ومحمد عبد الله دراز أن القرآن كما أنه معجز بنظمه وفصاحته وشرف معانيه فهو معجز بترتبه ونظم آياته في المصحف، مع أنه منجما، وسبحان من هذا كلامه.

- إن كتابي إعجاز القرآن للباقلاني والنبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز يعدان بحق من الكتب التراثية التي لها قيمة علمية أكاديمية، فالباقلاني ومحمد عبد الله دراز - بفهمهما النسبي - تفاعلا مع النص القرآني المتضمن للحقيقة المطلقة حسب أرضيتهما المعرفية السائدة في عصر كل منهما كما استطاع كل منهما أن يبرهن وقتئذ ويؤكد على أن القرآن صالح لكل زمان ومكان في جانبين لغويين متلازمين هما:

أ - جانب اللفظ الثابت في شكله اللغوي العام الذي بهر الفصحاء فأعجبوا بفصاحته وأفحم البلغاء من الأعداء فاعترفوا ببلاغته.

ب - وجانب المضمون المتحرك بحركة التاريخ والمعنى المتجدد بتجدد الحياة والعلم والمعرفة.

والواقع أن القيمة الحقيقية هي للنص القرآني المعجز في ذاته الذي لا يمكن لأي أحد أن يأتي بمثله والذي نفهمه على أساس أنه تنزل علينا - هكذا إذن - فما علينا إلا أن نتفاعل مع النص القرآني طبقا لأرضيتنا المعرفية السائدة في عصرنا الحاضر.

فهرس المصادر والمراجع.

القرآن الكريم (برواية ورش عن قراءة الإمام نافع).

1 – أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار المعرفة لبنان 1979م.

2 – الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المكتبة الثقافية بيروت 1973م.

3 – أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، ط 3 ، دار المعارف مصر.

4 – أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد بدوي، ط 2 نهضة مصر.

5 – إتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، محمد إبراهيم الشريف، ط 1 دار التراث القاهرة، 1982م.

6 – إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، ط 1 مؤسسة الكتب الثقافية بيروت 1991م.

7 – إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، ط 3 ، دار المعارف مصر.

8 – اتجاهات البحث الأسلوبي – دراسات أسلوبية، شكري محمد عياد، ط 1 ، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1985م.

9 – إعجاز القرآن، أبو سليمان الجطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط 2 ، دار المعارف مصر 1968م.

10 – إتجاهات الفكر الأوربي الرئيسية في تحليل النصوص الأدبية، ط 1 ، مطبعة السعادة، 1991م.

11 – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرفاعي، مكتبة رحاب، الجزائر.

12 – الإعجاز البلاغي، محمد أبو موسى، ط 1 ، مكتبة وهبة، القاهرة، 1405 هـ، 1984م.

13 – الإعجاز الفني في القرآن الكريم، عمر السلامي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله تونس 1980م.

14 – الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح عبد المتعال الصعيدي، ط 5 مكتبة الآداب.

15 – الإعجاز في نظم القرآن، محمود السيد شيخون، ط 1 مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978م.

16 – الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ط 7 ، دار البحوث العلمية، 1981م.

17 – الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، محمد أحمد يوسف القاسم، ط 1 ، 1979م.

18 – بديع القرآن، لإبن أبي الأصبع المصري، تحقيق حنفي محمد شرف، ط2، دار النهظة مصر.

19 – البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل دار المعرفة بيروت (دت).

20 – البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط 3 ، 1968م.

21 – البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ط 2، دار المعارف، القاهرة 1965م.

22 – الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، عبد الرؤوف مخلوف منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978م.

23 – تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان (دت).

24 – تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، دار المعارف 1964م.

25 – تاريخ أدب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان (دت).

26 – تاريخ البلاغة العربية – علم المعاني – عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت 1974م.

27 – تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط 3 ، دار المنار، القاهرة، 1367 هـ.

28 – تفسير التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

29 – تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر الباقلاني تحقيق عماد الدين أحمد حيدر ط 1 مؤسسة الكتب الثقافية بيروت 1407 هـ ، 1987م.

30 – التبيان في علوم القرآن، محمد على الصابوني ط 3 ، دار البعث قسنطينة، الجزائر.

31 – التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) الفخر الرازي ط 2 دار الكتب العلمية طهران (دت).

32 – التفسير البياني في القرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط 2 دار المعارف مصر 1966م.

33 – التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي (دت).

34 – التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي ط 4 مكتبة وهبة 1988م.

35 – التعبير الفني في القرآن الكريم، بكري شيخ أمين ط 4 دار الشروق، بيروت.

36 – جواهر الألفاظ من حسن البلاغة – قدامة بن جعفر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط1 دار الكتب العلمية بيروت 1405 هـ ، 1985م.

37 – الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ط 3 دار الكتب المصرية 1387 هـ.

38 – دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر الجرجاني، صحح أصله علامتا المعقول والمنقول الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية والشيخ محمد محمود التركيزي السنقيطي، ووقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت 1402 هـ ، 1981م.

39 – دراسات حول الإعجاز البياني في القرآن الكريم، المحمدي عبد العزيز الحناوي ط 1 دار الطباعة المحمدية الأزهر 1984م.

40 – دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن، عبد العزيز أبو سريع ط 1 مطبعة السعادة 1991 م.

41 – الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، تقديم الناشر، دار القلم.

42 – سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط 2 مصطفى البابي الحلبي 1955م.

43 – شذرات الذهب، لابن عماد طبعة القدسي 1350 هـ.

44 – الشوقيات، أحمد شوقي، ط 10 ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1404 هـ ، 1984م.

45 – الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي ترجمة عبد الصابور شاهين دار العروبة.

46 – الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى العلوي، أشرفت على مراجعته وضبطه وتدقيقه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية. بيروت لبنان (دت).

47 – فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمص ط 2 مؤسسة الرسالة 1980م.

48 – في النقد الأدبي، شوقي ضيف دار المعارف مصر.

49 – في ظلال القرآن، سيد قطب ط 11 دار الشروق بيروت 1405 – 1985م.

50 – الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الحوزية دار الكتب العلمية بيروت (دت).

51 – القاموس المحيط للفيروز أبادي، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان.

52 – الكشاف، الزمخشري. شركة مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر.

53 – لسان العرب، ابن منظور دار لسان العرب بيروت لبنان.

54 – مناهل العرفان في علوم القرآن الكريم، محمد عبد العظيم الزرقاني دارالفكر.

55 – معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي تحقيق علي محمد البجاوي دار الفكر العربي.

56 – مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط 15 مؤسسة الرسالة 1985م.

57 – منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، مصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف القاهرة، مصر 1959م.

58 – مختصر تفسير لبن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني ط 7 دار القرآن الكريم بيروت 1402 هـ ، 1981م.

59 – مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ط 10، دار العلم للملايين بيروت 1977م.

60 – مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم.

61 – مناهج في تحليل النظم القرآني، منير سلطان طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية.

62 – مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، الهيئة العلمية للكتاب القاهرة 1990م.

63 – المعجم الوسيط، الصادر عن مجمع اللغة العربية بمصر، ط 2، مطابع دار المعارف بمصر، 1973م.

64 – الملل والنحل، الشهر ستاني، تحقيق محمد سيد كيلان، دار المعرفة بيروت لبنان.

65 – المقدمة، عبد الرحمـــن ابن خلدون دار العودة بيروت 1981م.

66 – المغني في أبواب العدل والتوحيد. للقاضي عبد الجبار الإستربادي، تحقيق أمين الخولي ط 1 دار الكتب المصريـــة 1960 وزارة الثقافة والإرشاد، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر.

67 – المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي و د. طبانا ط 1 دار النهضة مصر 1379 هـ ، 1959م.

68 – المعجزة الكبرى، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

69 – المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، محمد المدني، مطبعة مخيمر مصر.

70 – المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، ديوان المطبوعات الجامعية.

71 – نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف، دار الأندلس بيروت لبنان (دت).

72 – نخبة الأزهار وروضة الأفكار، محمد عبد الله دراز – سلسلة أحاديث إذاعية – ترجمة السيد محمد بدوي.

73 – نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، عزالدين إسماعيل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1975م.

74 – نظرات في القرآن الكريم، محمد الغزالي ط 6 دار الشهاب باتنة الجزائر.

75 – نكت الإنتصار في نظم القرآن، أبو بكر الباقلاني تحقيق محمد زغلول سلام طبعة منشأة المعارف بالإسكندرية.

76 – النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ط7 دار القلم 1993م.

77 – النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الكتب العربية.

78 – النقد المنهجي، محمد مندور، دار النهضة مصر، 1972م.

79 – النظم الفني في القرآن الكريم، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميزت.

80 – النظم القرآني في سورة الرعد، محمد بن سعد الدبل عالم الكتب.

81 – الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة القاهرة، 1970م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

• الرسائل الجامعية:

1 – الإتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم في العصور الحديثة. عبد الحميد بوكعباش، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس القاهرة، 1989م.

2 – الدرس البلاغي عنُد المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رابح دوب، رسالة دكتوراه 1994م.

• المجلات والجرائد:

1 – مجلة "فصول" المجلد الخامس، العدد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب بولاق القاهرة، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر 1984م.

2 – مجلة الفكر العربي، العدد السادس والأربعون السنة الثامنة، معهد الإنماء العربي بيروت لبنان، حزيران (يونيو) 1987م.

3 – مجلة "فصول" المجلد السادس العدد الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب بولاق يناير، فبراير، مارس 1986م.

4 – جريدة الجزائر اليوم العدد 370، الثلاثاء 24 ذو الحجة 1413 الموافق 15 جوان 1993م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المقدمة 1

الباب الأول : أسس الإعجاز البياني بين الباقلاني وعبد الله دراز 9

المدخل إلى إعجاز القرآن. 10

- تمهيد. 11
- تعريف الإعجاز والمعجزة. 13
- شروط المعجزة. 17
- مراحله المختلفة. 21

الفصل الأول : الباقلاني ومنهجه في كتاب إعجاز القرآن. 41

- **المبحث الأول: نبذة عن حياته. 42**
- **المبحث الثاني: منهجه في كتاب إعجاز القرآن. 44**
  - المطلب الأول: مرحلة التمهيد. 45
  - المطلب الثاني: مرحلة التفنيد. 48
  - المطلب الثالث: مرحلة التحديد. 51
  - المطلب الرابع: مرحلة التأييد والإثبات. 58
  - نقد وتقييم. 70

الفصل الثاني : عبد الله دراز ومنهجه في كتاب النبأ العظيم. 73

- **المبحث الأول: نبذة عن حياته. 74**
- **المبحث الثاني: منهجه في كتاب النبأ العظيم. 78**
  - المطلب الأول: مرحلة التمهيد. 79
  - المطلب الثاني: مرحلة التفنيد. 80
  - المطلب الثالث: مرحلة التحديد. 88
  - المطلب الرابع: مرحلة التأييد والإثبات. 99
  - نقد وتقييم. 102

الفصل الثالث : أسس الإعجاز بين الباقلاني وعبد الله دراز. 104

- **المبحث الأول: أسس الإعجاز عند الباقلاني. 105**
- **المبحث الثاني: أسس الإعجاز عند عبد الله دراز. 120**
- **المبحث الثالث: الموازنة بينهما من خلال أسس الإعجاز. 133**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني : نظام عقد المعاني بين الباقلاني وعبد الله دراز 148

تمهيد 149

- معنى الارتباط عند الباقلاني 150
- معنى الارتباط عند عبد الله دراز 153
- نظام عقد المعاني بين موضوعات السورة القرآنية 157

الفصل الأول : نظام عقد المعاني عند الباقلاني 159

- **مدخل 160**
- **المبحث الأول: نظرية نظام عقد المعاني في سورة النمل 162**
  - المطلب الأول: ترابط الايات في كل قسم بما يليه 167
  - المطلب الثاني: ترابط المقدمة بالخاتمة 170

الفصل الثاني : نظام عقد المعاني عند عبد الله دراز 171

- **مدخل 172**
- **المبحث الأول: نظرية نظام عقد المعاني في سورة البقرة 175**
  - المطلب الأول: ترابط الايات في كل قسم بما يليه 176
  - المطلب الثاني: ترابط المقدمة بالخاتمة 190

الفصل الثالث : النظم القرآني وأسلوبه بين الباقلاني وعبد الله دراز 194

- **المبحث الأول: ماهية النظم القرآني بين الباقلاني وعبد الله دراز 195**
- **المبحث الثاني: مخالفة النظم القرآني لأي صورة من صور النظم الحادث بينهما 203**
- **المبحث الثالث: وجوه إعجاز النظم القرآني بين الباقلاني وعبد الله دراز 210**
- **خلاصة الموازنة بين الباقلاني وعبد الله دراز منهجا وأسلوبا 249**

الخاتمة 263

فهرس المصادر والمراجع 266

فهرس الموضوعات 271

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية